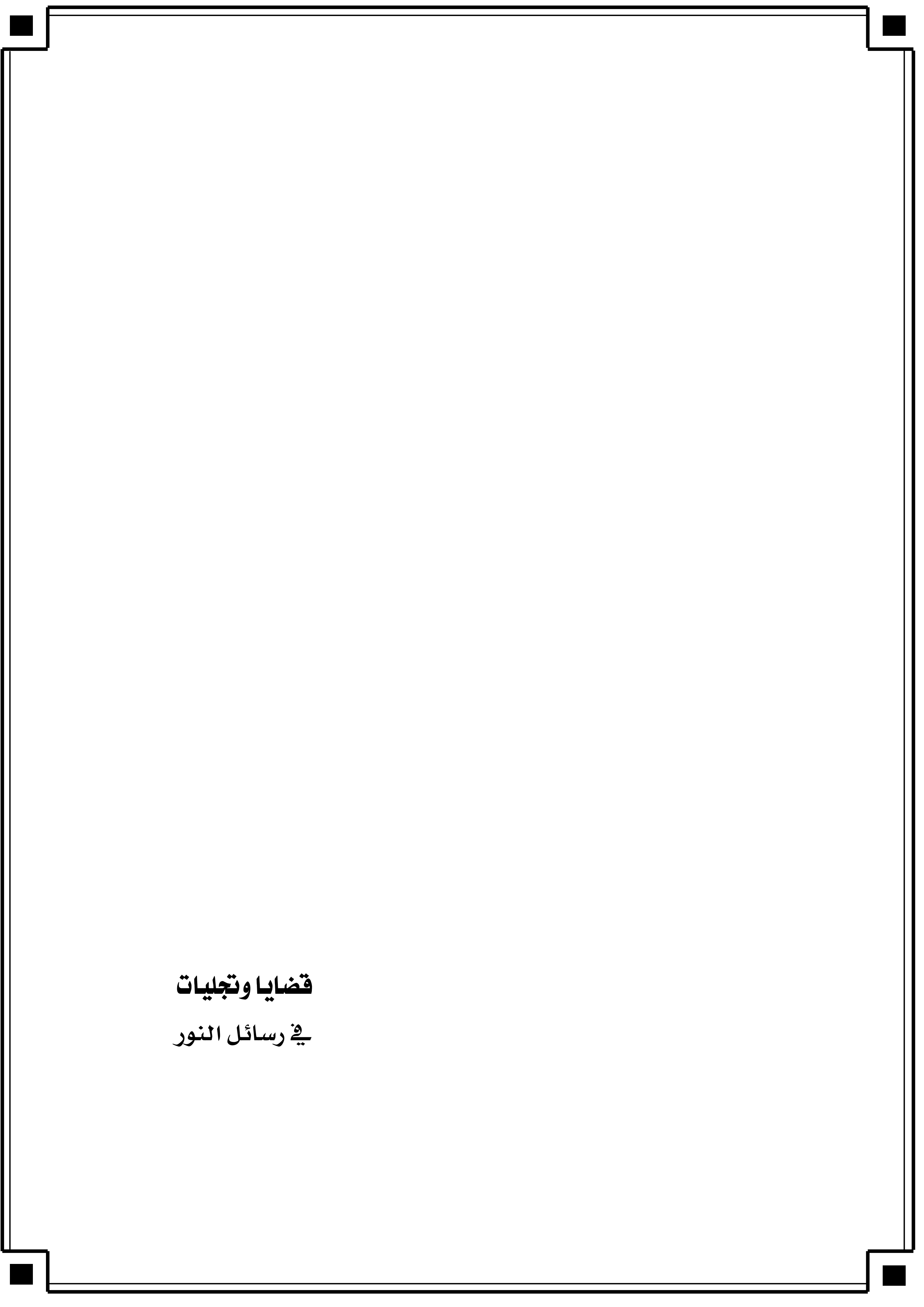


قضايا وتجليات

في رسائل النور

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٤/٣/١٢٣٠)

٢١١
جرار، مأمون فريز
قضايا وتجليات في رسائل النور- مأمون فريز جرار _ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٤.
(٢٦٠) ص
ر.أ: (٢٠١٤/٣/١٢٣٠).
الواصفات:/ الثقافة الاسلامية/ / الآداب الاسلامية/

❖ **يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.**

ردمك ISBN 978-9957-77-310-6



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

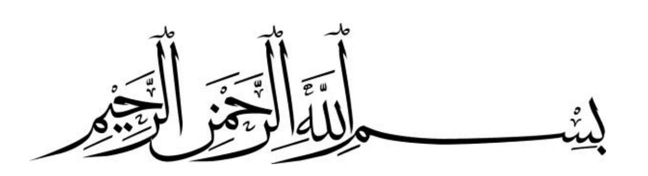
قضايا وتجليات

في رسائل النور

الدكتور
مأمون فريز جرار



دار المأمون للنشر والتوزيع



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه،

أما بعد، فهذا الكتاب يضم مجموعة من الدراسات التي كتبتها حول رسائل النور، وشاركت فيها في مؤتمرات في: مصر والهند وتركيا.

ومن حسنات المشاركة في المؤتمرت الخاصة برسائل النور أنها تتيح المجال للرحلة عبر الرسائل وتدبرها موضوعيا، حين يختار الباحث محورا محددا ويرى تجلياته في الرسائل. والباحث هو أول المنتفعين بهذا العمل وهو أولى الناس بذلك حين لا يكون هدفه (أكاديميا) فحسب، بل يكون مقصده الأول المزيد من معرفة عوالم الرسائل والانتفاع بها عقلا وقلبا، والاستنارة بها دنيا وبرزخا وآخرة.

أرجو ممن يطلع على هذا الكتاب أن يعذرني في تقصيري بالوفاء بحق الموضوعات التي بحثتها، فهذا جهد الطاقة، ولعل من يطلع عليها يشمر عن ساعد الجد ويجلو ما غمض، ويتمم ما نقص، ويصلح ما يجد من خلل، وحسبي أنني اجتهدت، والخير أردت، فأسال الله القبول، إنه سميع مجيب.

والحمد لله أولا وآخرا.

مأمون فريز جرار

العمل الإيجابي البناء
ومنزلته في دعوة النور

الابتلاء سنة من سنن الله تعالى في الأرض، ومن ألوان الابتلاء وقوف الكافرين والعصاة في وجه الدعاة إلى الله ليصدوهم عن الدعوة إلى الله، ويصدوا الناس عن الاستجابة لهم. ومن نظر في سير الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، وجد أن (الملأ) وهم علية القوم الذين أنعم الله عليهم بالجاه والمال، يقفون بالمرصاد للأنبياء، ينتقصون من شخصياتهم، ويهزؤون بمن آمن معهم. وكذلك كان حال المشركين مع رسول الله ﷺ ومن اتبعه من المؤمنين. وقد مضى رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين على درب الدعوة، سلاحهم الصبر على الأذى، والبحث عن مأمن يمكنهم من الدعوة وتبليغ رسالة الله، والعيش بعيدا عن الفتنة التي تمنعهم من أمر دينهم.

ونلاحظ أن المسلمين في العهد المكي لم يرفعوا السلاح في وجه الكفار، على ما نالهم من أذى بلغ حد القتل أحيانا، والعذاب الأليم أحيانا أخرى، مما دفع بعضهم إلى الهجرة إلى الحبشة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ **[النساء: ٧٧]**، فلما صارت للمسلمين دار أمان في المدينة المنورة،

وصارت لهم دولة واجهوا القوة بالقوة التي تردع الكافرين، والتي تفتح الطريق للناس إلى نور الإسلام طائعين غير مكرهين.

ولم يحدث في تاريخ الإسلام في ما أعلم - قبل عصرنا الحديث - أن تحولت دولة إسلامية من دار أمان للمسلمين إلى دار تشن الحرب على الإسلام فتمسحه من الحياة، وتشن الحرب على الإيمان فتسعى إلى إطفاء نوره، واقتلاع جذوره من القلوب، لم يحدث ذلك قبل الانقلاب الذي حدث على الدولة العثمانية فألغى السلطنة والخلافة، وحولها إلى جمهورية لادينية، بل حولها إلى أرض تحارب فيها شعائر الإسلام وتطمس فيها أنوار الإيمان.

ذلك ما كان، فكيف كان رد فعل المسلمين في تركيا التي انسلخت من ماضيها العثماني؟

كان الأمر مستفزا لمشاعر المؤمنين فاتخذ بعضهم الثورة على النظام الجديد وسيلة للمقاومة، ولكن النظام الجديد المتسلح بوسائل القوة الرادعة استخدم قوته في مواجهة الثائرين، وسقط الشهداء والجرحى، وفتحت المعتقلات للمجاهدين، ونفي منهم من نفي من دياره إلى أنحاء أخرى من الجمهورية الوليدة، ومضت الدولة في خطتها لحرب الإسلام ونزع الإيمان، والحيلولة بين الناس وأنوار القرآن[1]. فكيف تحافظ تركيا على هويتها؟ هل تستسلم؟ أليس هناك من سبيل للمقاومة؟

---

(١) انظر ثورة الشيخ سعيد بيران، الإسلام في تركيا الحديثة بديع الزمان النورسي، شكران واحدة، ص٢٧٣.

كان الجواب لدى الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي ﵀ داعيا، وفي رسائل النور منهجا، وفي العمل الإيجابي البناء أسلوبا للدعوة.

كان الأستاذ سعيد النورسي ﵀ في أواخر الأربعينات من عمره الخصب بالتجارب، علما وتعليما، وسعيا إلى إصلاح التعليم في ديار الإسلام، وجهادا في سبيل الله، ومعاناة للأسر في روسيا، واطلاعا على ما يحاك ضد الإسلام وأهله من مؤامرات، ويقظة إيمانية بدلت نظرته إلى النفس والحياة والموت والدنيا والآخرة، وخبرة بواقع علماء الإسلام من خلال دار الحكمة الإسلامية التي صار عضوا فيها بعد العودة من الأسر، وبصيرة بالفتنة القادمة، ومعرفة بنوايا مدبريها[1]. كل ذلك أهّل الأستاذ النورسي﵀ ليمضي في طريق المواجهة مع إعصار الفتنة المقبلة بعنف، المصممة على تنفيذ مخططات الأعداء في صورة تنزع من تركيا ملامح وجهها الإسلامي بل تغير فصيلة دمها، وتحول قبلتها.

كان ما حدث في تركيا ردة بكل ما تعني الكلمة من معنى، وشمل ذلك إلغاء السلطنة وإعلان الجمهورية، ثم إلغاء الخلافة، وإصدار القوانين التي

---

(١) هذه خلاصة لمعالم حياة الأستاذ بدءا من توجيه حياته لخدمة القرآن بعد سماع كلام جلادستون وزير المستعمرات البريطاني الذي رأى أن لا بقاء للمستعمرين في بلاد الإسلام إن بقي القرآن في حياتهم، سيرة ذاتية ص ٦٥ – ٦٦، وتقديمه اقتراحا للسلطان عبد الحميد لإصلاح التعليم، سيرة ذاتية ص ٦٩، ووقوعه في الأسر بعد الجهاد على الجبهة الشرقية، سيرة ذاتية ١٢٨، وتقلده عضوية دار الحكمة الإسلامية، سيرة ذاتية ١٣٣، ويقظته الروحية وبداية تكون شخصية سعيد الجديد، سيرة ذاتية ١٤٩.

غيرت أحرف الكتابة من العربية إلى (اللاتينية)، ومنع الأذان بالعربية، وإصدار مجموعة من القوانين المتتابعة التي بدأت تحرم كل ما له علاقة بالإسلام، وبدأت بتدريس الإلحاد[١].

كان ذلك مبعث نقمة عارمة لدى المؤمنين في تركيا، واختلفت المواقف في مواجهتها، فمنهم من نادى إلى الجهاد والثورة المسلحة (مثل الشيخ سعيد بيران)، ومنهم من آثر الهجرة إلى ديار يستطيع فيها إقامة شعائر الله (منهم شيخ الإسلام مصطفى صبري)، ومنهم من لاذ بالصمت وكظم غيظه. فماذا كان موقف الأستاذ النورسي رحمه الله؟

علينا أن نستحضر صورة شخصيته ونحن نتحدث عن موقفه لنفهمه حق الفهم، فقد كان رجلا صلبا قويا لا يهادن الباطل ولا يجامل في الحق، وله في ذلك مواقف مشهورة، كان ذلك في موقفه من المحكمة العسكرية في أحداث ٣١ مارت ١٩٠٩[٢]، وكان صلبا في مواجهة إمكان الحكم بالإعدام، وكذلك كان قويا جريئا في مواجهة القائد الروسي وهو في الأسر[٣]، وكذلك كان جريئا بعيدا عن المداهنة والمهادنة في موقفه من مصطفى كمال حين دعاه إلى إلقاء كلمة في مجلس النواب في أنقرة، وتحدث عن الإيمان والصلاة، وواجه

(١) انظر التحولات الهائلة في تركيا، سيرة ذاتية: ٢١٣ – ٢١٦.
(٢) سيرة ذاتية ص١٠٣.
(٣) سيرة ذاتية ص ١٢٩.

غضب مصطفى كمال ببيان أن من فقد الإيمان ولم يقم الصلاة فهو خائن[١]. فنحن أمام شخصية قوية لا تهاب في الحق لومة لائم، ولا تخاف من شيء، ولا تميل إلى الراحة، بل لم تكن تملك من متاع الدنيا ما تخاف أن تفقده، فقد كان حقا من الزاهدين.

بعد لقاء الأستاذ النورسي رحمه الله مع مصطفى كمال وموقفه الصلب معه، ورفضه ما عرضه عليه من مناصب، وإدراكه للفتنة القادمة، آثر أن ينسحب إلى دياره في شرق تركيا، وبدأ رحلة اعتكاف وعزلة لم تطل[٢]!! وقامت ثورة على مصطفى كمال ونظامه، عرفت باسم أشهر قادتها الشيخ سعيد بيران، وكان رأي الأستاذ النورسي رحمه الله ألا تقوم، ولم يشارك فيها، وذلك لما كان يراه الأستاذ من أن المواجهة المسلحة مع الدولة لن تحقق الهدف المنشود، وسيقع بسببها ضحايا أبرياء. ولكنها قامت، واستطاعت القوة الضاربة للدولة أن تخمدها، ونال الشهادة دفاعا عن دين الله من نالها، وفتحت السجون، وبدأت حملة كبيرة لنفي رؤوس المواجهة مع الدولة[٣].ومع أن الأستاذ النورسي رحمه الله لم يشارك في الثورة، وكان رأيه ألا تقوم، وكان معتزلا معتكفا في جبل (أرك) إلا أن رأس الفتنة في أنقرة كان يدرك أن هناك خطرا كامنا على نظامه في شخص الأستاذ النورسي رحمه الله، وأن اعتكافه مؤقت، وأن من

---

(١) سيرة ذاتية ص ١٨٦،١٨٣.

(٢) سيرة ذاتية ص ١٩٩: الهجر الجميل.

(٣) سيرة ذاتية ٢٠٦.

الضروري نفيه إلى مكان معزول يغيب فيه شخصه، ويطمس فيه ذكره، ويكون من المنسيين. ولذلك جاءت الأوامر بنفيه من موطنه في شرق تركيا إلى غربها، إلى بوردور عدة أشهر، ثم إلى قرية بارلا القريبة من إسبارطة(١). والمؤمن وهو يرقب الأحداث لا يغيب عن باله أن الله تعالى على كل شيء رقيب، ويتذكر أنه الحي القيوم الذي لا يعزب عنه شيء في الأرض أو في السماء، ويتذكر من الآيات الكريمة ما ينزل بردا وسلاما على قلبه: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ **[الطارق: ١٥ - ١٦]** و﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ **[الفجر: ١٤]**.

يتذكر أن الله تعالى الذي أرسل للناس عبر الزمان رسلا هادين مهديين تكفل لهذه الأمة أن يرعاها ويرعى دينه الذي تحمله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ **[الحجر: ٩]** ومن تجليات تلك الرعاية قول الرسول الكريم عليه وآله الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»(٢).

أستذكر هذا وأنا أتابع سيرة الأستاذ النورسي رحمه الله ومسار حياته ودعوته، ومنهجه في مواجهة الفتنة التي أصابت تركيا، والمحن المتتابعة التي خاضها، وكيف تحول المنفى الذي أرادوه معزلا إلى كرسي تعليم ودعوة امتد

---

(١) سيرة ذاتية ٢١٠، ٢١٨.

(٢) "رواه أبو داود (رقم/ ٤٢٩١) وصححه السخاوي في "المقاصد الحسنة" (١٤٩)، والألباني في "السلسلة الصحيحة" (رقم/ ٥٩٩)".

صدى صوت الأستاذ منه إلى أنحاء العالم، وكيف سخر الله تعالى له من التلاميذ المخلصين من كانوا خير عون له في إشعال قناديل النور بنسخ الرسائل ونشرها في تركيا بل في العالم كله لمواجهة أمواج الظلمات المتراكمة.

إن الذي يطالع سيرة الأستاذ النورسي رحمه الله يجد أنه قد تعرض إلى ألوان من الظلم التي لا تكاد تحتمل، من غير جريمة ارتكبها أو مخالفة صدرت عنه. وأول ألوان الظلم النفي القسري الذي استمر حتى آخر حياته، فقد سمحت السلطات لغيره ممن نفتهم أن يعودوا إلى ديارهم بعد مدة من الزمن، أما هو فلم يسمح له، وبقي تحت الرقابة والإقامة الجبرية، وكان ينقل من منفى إلى آخر، ولا يبقى في منفى أكثر من ثماني سنوات، وكان يقدم إلى محاكمة تلو أخرى مع أنه لم تثبت عليه وعلى طلاب النور أي تهمة من التهم التي وجهت إليهم. وتعرض لمحاولة القتل بالسم أكثر من مرة، وكان يعزل في سجن انفرادي أحيانا ويمنع طلابه من خدمته، مع أنه كان كبير السن يعاني من أمراض متعددة.

فكيف تصرف تجاه هذه الألوان من الظلم غير المحدود؟

من عرف طبيعة شخصية الأستاذ ربما يتوقع منه الموقف الثوري العنيف يواجه به ما أصاب تركيا عموما، وما ناله هو خصوصا من ألوان الأذى والاضطهاد، ولكن الذي كان منه في مسيرة حياته منذ بدء النفي سنة ١٩٢٥ حتى نهاية حياته كان مختلفا عن التوقع.

كان في بداية النفي فردا غريبا، لكنه مع مرور الوقت، وبدء كتابة رسائل النور تحول إلى أستاذ انتشر طلابه مع امتداد أنوار رسائل النور، حتى كانوا في أواخر الأربعينات قريباً من نصف مليون[١]، وبلغوا قبيل وفاته الملايين[٢]، وكانوا رهن إشارته، وكانت ظلمات الكفر تتردد في أنحاء تركيا، والأذى لا يفتر عنه ولا عن طلابه، لكنه آثر منهج الصبر، ولم يتخذ منهج الثورة والعمل السلبي الذي يثير الفتنة في المجتمع، ويكون سببا للقتل والتدمير، وسيلة للتغيير.

ومن المهم للوقوف على نظرة الأستاذ النورسي رحمه الله إلى وسائل التغيير الرجوع إلى الدرس الأخير الذي ألقاه على طلابه قبيل وفاته، وهو درس يحدد الطريق إلى ما ترجوه دعوة النور من خير للناس، ويضاف إلى هذا الدرس ويعززه الدفاعات التي ألقاها الأستاذ بنفسه أو أعدها للرد على ما كان يقدم ضده وضد طلبة النور من دعاوى في المحاكم المختلفة. (في نهاية هذه الكلمة مقتطفات من تلك الدفاعات).

كان الأستاذ خبيرا بالتاريخ الإسلامي مطلعا على أحداثه، وكان مطلعا على الأفكار الثورية المعاصرة التي جاءت بها الماركسية التي قامت لها دولة في الاتحاد السوفياتي والصين والبلقان، وكان مطلعا على آثارها السلبية في المجتمعات التي حكمتها، وفي البلاد التي انتشرت فيها؛ ولذلك اتخذ منهجا يبني

---

(١) سيرة ذاتية ص ٥٤٢.

(٢) سيرة ذاتية ص٤٧٠.

ولا يهدم، يعمر ولا يدمر، يحفظ البلاد والعباد من كل أثر سلبي، ويحقق مصلحة الإنسان.

وقد حدد الأستاذ رحمه الله طريقة العمل لنشر دعوة الله بما سماه "العمل الإيجابي البناء" الذي استوحاه من القرآن الكريم، ذلك العمل الذي يعني القيام بما أمر الله الإنسان به من الدعوة، وأما تحقيق النتيجة فإنه من تدبير الله لا من شأن البشر.

يقول الأستاذ في هذا الشأن:

"إن وظيفتنا هي العمل الإيجابي البنّاء وليس السعي للعمل السلبي الهدام، والقيام بالخدمة الإيمانية ضمن نطاق الرضى الإلهي دون التدخل بماهو موكول أمره إلى الله. إننا مكلفون بالتجمل بالصبر، والتقلد بالشكر تجاه كل ضيق ومشقة تواجهنا؛ وذلك بالقيام بالخدمة الإيمانية البناءة التي تثمر الحفاظ على الأمن والاستقرار الداخلي"[1].

وقد يظن من لا يعرف الأستاذ وشخصيته وسيرته، أن هذا المنهج ناشئ عن ضعف أو خوف، والحقيقة بخلاف ذلك فشخصية الأستاذ التي أشرنا إلى لمحات منها في بداية الحديث تثبت بما لايدع مجالا للشك أنه لم يكن يخاف في الله لومة لائم، وسيرته تدل على أنه لم يكن يؤثر السلامة الذاتية، بل كان يفدي غيره بنفسه، ويقيهم ما يستطيع دفعه عنهم من شر.

---

(١) سيرة ذاتية ٤٦٩.

إن العمل الإيجابي البناء كما يحدده الأستاذ النورسي ﵀ يعني: الجهاد المعنوي أي قيام الإنسان بما هو مطلوب منه من الدعوة التي يسميها الأستاذ الخدمة، وأن يدع تحقيق النتائج لرب العالمين الذي تكفل بها. وفي تسمية الدعوة بالخدمة إشارة إلى أن الأستاذ مستخدم لدى ربه، يعمل لنشر دينه، ونيل رضاه، ولله الأمر من قبل ومن بعد، ومثله من سار على منهجه من طلاب النور. يقول الأستاذ:

"إن أعظم شرط من شروط الجهاد المعنوي هو عدم التدخل بالوظيفة الإلهية، أي بما هو موكول إلى الله. بمعنى أن وظيفتنا الخدمة فحسب، بينما النتيجة تعود إلى رب العالمين، وإننا مكلفون ومرغمون في الإيفاء بوظيفتنا"(١). وهنا نستحضر قول الله تعالى في بيان وظيفة المؤمنين وفي وعد الله لهم بالنصر والتمكين والاستخلاف في الأرض:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾**[النور: ٥٥]** فالمطلوب منهم: الإيمان والعمل الصالح، وتحقيق الوعد هو شأن الله تعالى الذي ييسر لذلك الأسباب.

---

(١) سيرة ذاتية ٤٧٠.

ومن أسس العمل الإيجابي ومرتكزاته الآية الكريمة ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

فالعمل السلبي، أي استخدام القوة في السعي إلى الإصلاح الداخلي في المجتمع، يؤدي إلى وقوع الأذى على من لا ذنب له، ويؤدي إلى إيقاد نار الفتنة في المجتمع وزعزعة الأمن الداخلي، وما ينتج عن ذلك من الآثار السلبية المدمرة من قتل أو تخريب .

وبيانا لذلك يقول الأستاذ:

"إن المسألة الأساسية في هذا الزمان هو الجهاد المعنوي، وإقامة السد المنيع أمام التخريبات المعنوية، وإعانة الأمن الداخلي بكل ما نملك من قوة"(١).

والجهاد المعنوي يبدأ من النفس بأن تكون على منهج الله متجردة من أنانيتها، ثم بعد ذلك ناشرة للخير لدى غيرها.

وقد أدرك الأستاذ طبيعة العمل الدعوي المطلوب عندما جاءه رسول من شيخ الإسلام مصطفى صبري ودار بينهما الحوار الآتي:

"يروي الأستاذ (علي أوزك):

عندما قدمت إلى إستانبول من مصر وأنا مازلت طالباً في الأزهر الشريف، استفسرت عن الأستاذ النورسي رحمه الله، فوجدته ساكناً في منطقة الفاتح في بيت خشبي قديم، ولدى زيارتي له في غرفته رأيته متمدداً على

---

(١) سيرة ذاتية ٤٦٩.

فراشه - من المرض - سلمت عليه، فرد السلام، ولكن حينما أخبرته بأن الشيخ مصطفى صبري يخصك بالسلام، جلس وعدل نفسه وقال بتقدير وإكبار:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. وماذا يقول الأستاذ مصطفى صبري؟

- سيدي الأستاذ يسأل الشيخ مصطفى صبري عن عدد طلابكم!

- لي خمسمائة ألف طالب وخادم للقرآن الكريم!

- يقول الشيخ مصطفى صبري.. إذن ماذا ينتظر؟ ولماذا لا يبدأ بجهاد إسلامي مع هذا العدد من طلابه؟

- بلّغ سلامي له أولا، ثم قل له:

إن دعوتنا هي الإيمان، والجهاد يلي الإيمان، وإن زماننا هذا هو زمان خدمة الإيمان ووظيفتنا هي الإيمان وخدمتنا تنحصر في الإيمان...

ثم تكلم بإسهاب عن موضوعات إيمانية، وعن كيفية القيام بخدمة الإيمان، وعندما أردت المغادرة قام ليودعني فقبلت يده وودعته.

ولما رجعت إلى مصر، زرت الشيخ مصطفى صبري، وكان طريح الفراش، وقد أنهكه المرض وأدركته الشيخوخة، حدثته عما دار بيني وبين الأستاذ النورسي رحمه الله في تركيا، فاستمع لي جيداً، ثم قال:

- حقاً إن الأستاذ النورسي رحمه الله هو المحق، نعم إن ما قاله صدق

وصواب، فقد وفقه الله في مسعاه، أما نحن، فقد أخطأنا، حيث ثبت هو في البلاد ونحن غادرناها.

وهكذا استصوب مصطفى صبري عمل بديع الزمان وقوله[1].

العمل الإيجابي والتسامح مع الخصوم

ومن أمثلة العمل الإيجابي وتطبيقا لقاعدة ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ اتصاف الأستاذ النورسي رحمه الله بصفة التسامح مع أشد الناس عداء له وإساءة إليه، ومن ذلك أن الأستاذ رحمه الله لم يكن يدعو على من يحاكمونه رحمة بأهاليهم، وقد هم أن يدعو على مدع عام ظلمه كثيرا ولما وقعت عينه على طفلة صغيرة وعرف أنها ابنة ذلك المدعي العام كف عن الدعاء عليه. بل إنه سامح الحزب الذي ناصبه العداء، حزب الشعب الجمهوري، وذلك لأنه نظر إلى الوجه الآخر من القضية، حيث إن عداء ذلك الحزب أسهم من حيث لم يحتسب ذلك الحزب في نشر رسائل النور والتعريف بها لا على المستوى الشعبي بل على أعلى المستويات، حيث كانت تعرض على كبار المسؤولين، ومنهم من تأثر بها. يقول الأستاذ مبينا ما سبق من تسامحه داعيا طلاب النور أن يمضوا على منهجه: "على إخوتي في الآخرة أن يتجاوزوا عن الهجوم على أخطاء بعض المخطئين المساكين، وليعدّوها من قبيل أهون الشرين. وليقوموا بالعمل الإيجابي دائماً، لأن العمل السلبي ليس من وظيفتنا، ولأن العمل

(١) سيرة ذاتية ص٥٤٢.

السلبي في الداخل لا يُغتفر "(....)" لقد سامحت عن جميع حقوقي وعفوت عن حزب من الأحزاب السياسية رغم مقاساتي منه ألوفاً من المضايقات والسجون منذ ثلاثين سنة. فقد أصبحت جميع تلك المشقات والمضايقات وسيلةً لخلاص خمسة وتسعين بالمئة من المساكين في أن يسقطوا في مضايقات ومظالم واعتراضات"[١].

ومن مظاهر التسامح الذي اختطه الأستاذ النورسي ﷬ الإعراض عن مهاجمة بعض العلماء الذين وقعوا تحت وطأة الضرورات الموهومة، فصاروا نماذج في الوقوع فيها، وكان منهم من يهاجم الأستاذ ورسائل النور، وهم في قرارة أنفسهم يعرفون الحق لكنهم قيدوا أنفسهم عن اتباعه بالضرورات الموهومة التي وقعوا فيها.

كان هذا الموقف من الأستاذ حين كان لديه في أخريات عمره ملايين من طلبة النور، ولم يكن ناشئا عن ضعف، لكن عن رغبة منه في استئناسهم، وإطفاء نار الأنانية في نفوسهم لعلهم يرون الحقيقة، ويثوبون إلى الحق الذي يفترض أنهم حملته ودعاته. وانظر إلى هذا الموقف المتسامح في قول الأستاذ :

" نحن نسامحهم حتى لو عاملونا بالظلم"[٢].

ولا يعني هذا الموقف المتسامح من الأستاذ، ورفضه إيقاد الخصومة الحربية في داخل المجتمع أن الأستاذ النورسي ﷬ يعطل الجهاد الحربي، فإذا

---

(١) سيرة ذاتية ٤٧٣ – ٤٧٤.

(٢) سيرة ذاتية ٤٧١.

كان يتخذ الجهاد المعنوي بالدعوة بالحسنى والتجمل بالصبر سبيلا للتعامل مع الداخل، في مقاومة أفكار الشر والفساد ونشر الخير، فإن رد العدوان الخارجي حين يتعرض المجتمع للغزو يكون باستعمال القوة المادية. يقول في بيان ذلك: " أجل، يستوجب مجابهة الهجمات الخارجية بالقوة، لان أموال العدو وذراريه يكون بمثابة غنيمة للمسليمن، أما في الداخل فالأمر ليس هكذا، ففي الداخل ينبغي الوقوف أمام التخريبات المعنوية بشكل إيجابي بناء، بالإخلاص التام. إن الجهاد في الخارج يختلف عما هو في الداخل[1]".

الضرورات الموهومة والعمل الإيجابي

العمل الإيجابي له جانبان: **الأول:** الإيمان والعمل **والآخر:** الدعوة إلى الله لإنقاذ إيمان الآخرين، ولن يستطيع أحد أن ينقذ الآخرين ما لم ينقذ نفسه، فمن عجز عن إصلاح نفسه فهو عن إصلاح غيره أعجز.

وقد نبه الأستاذ النورسي رحمه الله في درسه الأخير لطلابه إلى أمر يمنع الإنسان من الجهاد المعنوي، هو الوقوع تحت سطوة الضرورات الموهومة التي توقعه في المحرمات وتشغله عن حقيقة وجوده وعن حقيقة الدنيا وعن الآخرة. وهذا من مساوئ المدنية الحديثة التي" زيّدت الحاجات الضرورية من الأربعة إلى العشرين، فجعلت الحاجات غير الضرورية بمثابة الحاجات الضرورية بالإدمان والاعتياد والتقليد. فتجد من يفضل الدنيا على الآخرة رغم إيمانه

---

(١) سيرة ذاتية ٤٧٠.

بها لانهماكه بالأمور المعاشية والدنيوية ظناً منه أنها ضرورة"[١]. وعند الوقوع تحت هذه الحاجات الموهومة يقع الإنسان في محاذير وممنوعات تحت دعوى "الضرورات تبيح المحظورات" وهي دعوى لا حقيقة لها ولا تقبل إلا مع الضرورات الحقيقية.

وقد ذكر الأستاذ النورسي رحمه الله حادثة وقعت معه حين أرسل إليه قائد عام بعض الضباط والعلماء ليعيدوه إلى الأمور الدنيوية بعد الصحوة التي أرته الحقائق، وجعلته يتحول إلى سعيد الجديد، وحين ناقشهم الأستاذ ادّعوا أنهم مضطرون لأنهم واقعون تحت ضرورات الحياة فكان رده عليهم:

"الأعمال النابعة من سوء الاختيار والميول غير المشروعة لا تكون عذراً لجعل الحرام حلالاً "[٢].

ولو وقف الإنسان عند الضرورات الحقيقية لأعفى نفسه من كثير من المواقف التي تذله، وتشغله عن وظيفته الحقيقية، ولمضى في طريق الدعوة متخففا من أعباء الدنيا غير الضرورية.

الرضى بأي موقف إيجابي

ومن مظاهر العمل الإيجابي البناء الرضى بأي جهد يسهم في إنقاذ الإيمان من أي طرف، ولو كان قليلا، وقد تجلى هذا الأمر في الموقف من الحزب الديمقراطي الذي خفف القيود السابقة التي فرضها حزب الشعب

(١) سيرة ذاتية ٤٧٠.

(٢) سيرة ذاتية ٤٧٠-٤٧١.

الجمهوري على بعض الأنشطة الدينية، وسمح بطباعة رسائل النور، فأي خطوة نحو الحق وأهله خطوة إيجابية يرحب بها الأستاذ وطلبة النور. ولذلك صوت الأستاذ وطلبة النور للحزب الديمقراطي لما رأوا منه من خير كانت له بعض التجليات الإيجابية في المجتمع التركي[١].

العمل الإيجابي في مواجهة التخريب الثوري

كان المد الماركسي في أوجه في مرحلة كتابة رسائل النور، وقد انتشر الفكر الماركسي في الاتحاد السوفياتي وفي الصين وأخذ يمتد إلى بعض البلاد الإسلامية، وقد رأى الأستاذ النورسي ﵀ أن رسائل النور تمثل سدا أمام تخريبات ذلك الفكر لا في البلاد الإسلامية وحدها بل في العالم كله، لأنها تحارب الكفر الذي يعني العدم للإنسان وللوجود كله، وقد أسهم ذلك الفكر في نشر الفوضى والقتل في المجتمعات التي انتشر فيها:

"إن إحدى المعجزات المعنوية للقرآن الحكيم أنه قد منح هذا الدرس لطلاب رسائل النور ليكونوا سداً أمام الكفر المطلق والإرهاب في هذا القرن. وحقاً أن الرسائل أدت دورها. نعم إن هذا الدرس القرآني هو الذي وقانا من هذا التيار الجارف الذي استولى على الصين ونصف أوروبا ودول البلقان وأقام سداً أمام هذا الهجوم.

وهكذا وُجد حل سليم أمام هذا الخطر الداهم"[٢].

---

(١) انظر: سيرة ذاتية ٤٧٣.

(٢) سيرة ذاتية ٤٧٢.

لذا نشكر الله عز وجل أن قد بدأ بالانتشار درس من دروس القرآن المعجز لينقذ هذا العصر باسم رسائل النور بين ملة الترك والعرب باللغة التركية والعربية. وقد تحقق أنها مثلما أنقذت قبل ست عشرة سنة إيمان ستمائة ألف شخص فإنها الآن قد تجاوز هذا العدد إلى الملايين من الناس. وكما أن رسائل النور أصبحت وسيلة لإنقاذ الإنسانية من الإرهاب - شيئاً ما - أصبحت وسيلة للتآخي والوحدة بين الأخوين الجليلين للإسلام وهما العرب والترك، وكذلك أصبحت وسيلة لنشر الأحكام الأساسية للقران الكريم حتى بتصديق أعدائها"[1].

العمل الإيجابي والإخلاص التام:

من الأمور الأساسية التي تحدث عنها الأستاذ وضرب فيها مثلا من نفسه في سيرته الطويلة ومحنته الممتدة: الإخلاص، والتجرد من حظ النفس، ولذلك كان من وصاياه أن يقرأ طلاب النور رسالة الإخلاص مرة كل أسبوعين على حد أقصى، ليظل الإخلاص نصب أعينهم،ولتظل المعركة بينهم وبين أنانية النفس قائمة حتى يصلوا مرحلة التجرد التام لله.

والإخلاص شرط لابد منه في العمل الإيجابي الذي يحتاج إلى صبر وكظم للغيظ وإيثار الخير للناس على حساب راحة النفس، وذلك ما قدمه الأستاذ في سيرته قدوة حسنة لطلاب النور، ومن ذلك قوله:

"إخواني! ربما أموت قريباً، فإن لهذا العصر مرضاً داهماً، وهو الأنانية

---

(١) سيرة ذاتية ٤٧٢.

وحب النفس، واشتهاء قضاء حياة جميلة في ظل مباهج وزخارف المدنية الجذابة وأمثالها من الأمراض المزمنة. إن أول درس من دروس رسائل النور الذي تلقيته من القرآن الكريم، هو التخلي عن الأنانية وحب النفس، حتى يتم إنقاذ الإيمان بالتقلد بالإخلاص الحقيقي. ولله الحمد والمنة، فقد برز في الميدان كثيرون ممن بلغوا ذلك الإخلاص الأعظم الحقيقي، فهناك الكثيرون ممن يضحون بأنانيتهم وبمنصبهم وجاههم في سبيل أصغر مسألة إيمانية"(١).

ثمرات العمل الإيجابي في تركيا

كان من ثمرات هذا المنهج الدعوي الذي اختطه الأستاذ النورسي رحمه الله واستمده من نور القرآن الكريم أن جنب تركيا الوقوع في بحار من الدماء، وجنبها المنهج الثوري الدموي، مع أن ما أصاب تركيا على المستوى الرسمي نوع من الكفر البواح الذي شن حربا عنيفة على الإسلام والإيمان، وقد رأى الأستاذ في أخريات حياته بداية انحسار موجات الكفر عن تركيا بتراجع شعبية حزب الشعب الجمهوري الكمالي، وتقدم الحزب الديمقراطي الذي كان "أهون الشرين" كما وصفه الأستاذ(٢)، وها نحن نرى مسيرة الإسلام في تركيا كيف يزداد نورها يوما بعد يوم وهي تتقدم نحو مستقبل إسلامي يكتمل نهاره بإذن الله.

العمل الإيجابي في مقتطفات من دفاعات الأستاذ في المحاكم

(١) سيرة ذاتية ص ٤٧٤.

(٢) سيرة ذاتية ص ٤٧٣.

من دفاع الأستاذ أمام محكمة إسكي شهر:

"إن من دَرسَ رسائل النور، لن يخوض في فتن تهدر دماء أبرياء كثيرين وتضيّع حقوقهم، ولن يقترب بأي وجه من فتن تكرّر فشلها وضررها. وإن عشر فتن في هذه السنوات العشر، لم يشترك فيها عُشر طلاب رسائل النور، بل لم يشترك فيها واحد منهم، إنما يدل على أن الرسائل ضدها وأنها مدار تحقيق الأمن والنظام"[1].

في منفى قسطموني

"خدمتنا تسعى لإنقاذ النظام والأمن:

جاءني موظف مسؤول، له علاقة معنا ومع السياسة ومنشغل بمراقبتنا كثيراً فقلت له:

إنني لم أراجعكم منذ ثماني عشرة سنة، ولم أقرأ صحيفة واحدة من الصحف، وها قد مرت ثمانية شهور لم أسأل ولو مرة واحدة ما يحدث في العالم، ولم أعر سمعي إلى الراديو الذي يُسمع هنا منذ ثلاث سنوات. كل ذلك كي لا يلحق ضرر معنوي بخدمتنا السامية.

والسبب في ذلك هو:

أن خدمة الإيمان وحقائق الإيمان هي أجلّ من كل شيء في الكون. فلا تكون أداة لأي شيء كان. فإن خدمة القرآن الكريم قد منعتنا كلياً من

---

(١) سيرة ذاتية ٢٦٧.

السياسة. حيث إن:

أهل الغفلة والضلالة في هذا الزمان الذين يبيعون دينهم للحصول على حطام الدنيا ويستبدلون بالألماس القطع الزجاجية المتكسرة، يحاولون اتهام تلك الخدمة الإيمانية بأنها أداة لتيارات قوية خارج البلاد وذلك للتهوين من شأنها الرفيع.

فأنتم يا أهل السياسة والحكومة! لا تنشغلوا بنا بناءً على الظنون والأوهام، بل عليكم أن تذللوا المصاعب لنا وتسهّلوا الطريق أمامنا. لأن خدمتنا تؤسس الأمن والاحترام والرحمة فتسعى لإنقاذ النظام والأمن والحياة الاجتماعية من الفوضى والإرهاب. فخدمتنا ترسي ركائز وظيفتكم الحقيقية وتقويها وتؤيدها"[١].

في منفى قسطموني:

"أسس العمل مع المعترضين:

لما كان أولياء الله الصالحون لا يمكنهم أن يعرفوا الغيب - إن لم يلهمهم الله سبحانه تعالى - حيث لا يعلم الغيب إلاّ الله؛ لذا فإن أعظم ولي صالح لا يستطيع أن يطلع على حقيقة وواقع الحال عند ولي آخر، بل ربما يعاديه لعدم علمه بحقيقته، وما حدث فيما بين بعض العشرة المبشرين بالجنة من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، خير دليل على هذا. وهو يعني أن وليين اثنين إذا ما أنكر أحدهما على الآخر، فإن ذلك لا يسقطهما من مقام

---

(١) سيرة ذاتية ٣١٣.

الولاية ومنـزلتها إلاّ إذا كان هناك أمر يخالف مخالفة كلية لظاهر الشريعة. لذا:

اتباعاً لدستور الآية الكريمة: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وحفاظاً على إيمان المؤمنين من التصدع، وذلك بالمحافظة على حسن الظن القائم بينهم وبين شيوخهم أو رؤسائهم.

وبناء على ما يلزم من إنقاذ الأركان من طلاب النور المخلصين من سَورة الغضب المضرة - مع كونها محقة - على اعتراضات باطلة.

واجتناباً لما يستفيد منه أهل الإلحاد من هذه الخصومة بين طائفتين من أهل الحق بجرح الطائفة الأولى بسلاح الأخرى واعتراضاتها، وتهوين شأن الثانية بدلائل الأولى ثم دحرهما معاً.

على طلبة النور حسب الأسس المذكورة:

ألاّ يواجهوا المعارضين بالحدة والتهور، ولا يقابلوهم بالمثل، بل عليهم أن يكتفوا بالدفاع عن أنفسهم فحسب، مع إظهار روح المصالحة، والإجابة بوضوح عن نقاط الاعتراض، حيث إن الأنانية في عصرنا هذا قد تطاولت واشرأبت بعنقها حتى أصبح كل شخص لا يريد أن يذيب أنانيته - التي هي كقطعة ثلج بطول قامته- ولا يرغب في تغييرها بل يسوّغ لنفسه ويراها معذورة دائماً. وها هنا ينشأ النـزاع والخصومة ويكون موضع استفادة أهل

الباطل والضلال على حساب أصحاب الحق وأهله.

إن حادثة الاعتراض في إستانبول تومئ إلى أن بعض العلماء المعجبين بمشربهم والأنانيين من المتصوفة وبعض المرشدين وأهل الحق ممن لم يقتلوا نفوسهم الأمارة بالسوء ولم ينجوا من ورطة حب الجاه سيعترضون على رسائل النور وطلابها، حفاظاً على رواج مشربهم ومسلكهم، وتوجّه اتباعهم إليهم. بل هناك احتمال قوي أن تكون المقابلة شديدة.. فعند وقوع مثل هذه الحوادث علينا بالتأني، وضبط النفس، والثبات، وعدم الولوج في العداء، وعدم التهوين من شأن رؤساء الطائفة المعارضة...

فلو افترض - فرضاً محالاً - أن اعتراضاً على رسائل النور ورد حتى من القطب الأعظم ومن مكة المكرمة، فإن طلاب رسائل النور يثبتون ولا يتزعزعون، بل يتلقون اعتراض ذلك القطب الأعظم على صورة التفاتة كريمة وتحية وسلام. ويحاولون كسب توجهه وتقبيل يده وإيضاح مدار الاعتراض لأستاذهم العظيم"[1].

مقتطفات من الدفاع أمام محكمة أفيون:

نحن طلاب النور آلينا على انفسنا ألاّ نجعل من رسائل النور أداة طيعة للتيارات السياسية، بل للكون كله. فضلاً عن أن القرآن الكريم قد منعنا بشدة من الاشتغال بالسياسة.

---

(١) سيرة ذاتية ٣١٧ – ٣١٨.

نعم، إن مهمة رسائل النور الأساس هي: خدمة القرآن الكريم، والوقوف بصرامة وحزم في وجه الكفر المطلق الذي يودي بالحياة الأبدية ويجعل من الحياة الدنيا نفسها سماً زعافاً وجحيماً لا تطاق.

ومنهجها في ذلك: هو إظهار الحقائق الإيمانية الناصعة المدعمة بالأدلة والبراهين القاطعة التي تلزم أشد الفلاسفة والمتزندقة تمرداً على التسليم بالإيمان. لذا فليس من حقنا أن نجعل رسائل النور أداة لأي شيء كان، وذلك لأسباب[1]:

أولاً: كي لا تحول الحقائق القرآنية التي تفوق الألماس نفاسة إلى قطع الزجاج المتكسر في نظر أهل الغفلة، حيث توهموها كأنها دعاية سياسية تخدم أغراضاً معينة، وكي لا نمتهن تلك المعاني القرآنية القيمة.

ثانياً: إن منهج رسائل النور الذي هو عبارة عن: الشفقة والعدل والحق والحقيقة والضمير ليمنعنا بشدة عن التدخل بالأمور السياسية أو بالسلطة الحاكمة. لأنه إذا كان هناك بعض ممن ابتلوا بالإلحاد واستحقوا بذلك العقاب فإن وراء كل واحد منهم عدداً من الأطفال والمرضى والشيوخ الأبرياء. فإذا نزل بأحد أولئك المبتلين المستحقين للعقاب كارثة أو مصيبة، فإن أولئك الأبرياء أيضاً سيحترقون بنارهم دون ذنب جنوه. وكذا لأن حصول النتيجة المرجوة أمر مشكوك فيه، لذا فقد مُنعنا بشدة من التدخل في الشؤون

---

(١) سيرة ذاتية – ٣٩.

الإدارية بما يخل بأمن البلاد ونظامها عن طريق وسائل سياسية.

ثالثاً: في زمن عجيب كزماننا هذا، لا بد من تطبيق خمسة أسس ثابتة، حتى يمكن إنقاذ البلاد وإنقاذ الحياة الاجتماعية لأبنائها من الفوضى والانقسام. وهذه المبادئ هي:

١- الاحترام المتبادل

٢- الشفقة والرحمة

٣- الابتعاد عن الحرام

٤- الحفاظ على الأمن

٥- نبذ الفوضى والغوغائية، والدخول في الطاعة.

والدليل على أن رسائل النور في نظرتها إلى الحياة الاجتماعية قد ظلت تثبت وتحكم هذه الأسس الخمسة وتحترمها احتراماً جاداً محافظة بذلك على الحجر الأساس لأمن البلاد، هو أن رسائل النور قد استطاعت في مدى عشرين عاماً أن تجعل أكثر من مائة ألف رجل أعضاء نافعين للبلاد والعباد دون أن يتأذى أو يتضرر بهم أحد من الناس. ولعل محافظتي إسبارطة وقسطموني خير شاهد وأبرز دليل على صدق ما نقول.

فإذا كانت هذه هي الحقيقة. فلا شك أن أكثر أولئك الذين يتعرضون لأجزاء رسائل النور إنما يخونون الوطن والأمة والسيادة الإسلامية. ويعملون

- سواءً بعلم أو بدون علم - لحساب الفوضوية والتطرف[1].

من تتمة الاعتراض المقدم إلى محكمة أفيون

كلمتي الأخيرة:

أودّ أن أبيّن ما يلي لهيئة المحكمة:

لقد أدركت من لائحة الاتهام ومن وضعي لمرات عديدة وطويلة في السجن الانفرادي بأن شخصي هو الهدف في هذه المسألة، فقد لوحظ وجود مصلحة لتهوين شأني والنيل من شخصي. وقد زعم أنني شخص ضار للإدارة وللأمن وللوطن، وأنني أسعى تحت ستار الدين إلى مقاصد دنيوية ومن أجل نوع من السياسة، و ردّاً على هذا فإنني أبيّن لكم بقطعية تامة:

من أجل هذه الأوهام ومن أجل محاولتكم محاربتي شخصياً لا تمدّوا يدكم بالأذى إلى رسائل النور ولا إلى طلاب النور الميامين لأنهم هم الأبناء المضحون في سبيل هذا الوطن وفي سبيل هذه الأمة، وإلاّ سيلحق بهذا الوطن وبهذه الأمة ضرر كبير وقد يكون ذلك سبيلاً إلى خطر عليهما. وأريد أن أؤكد لكم:

لقد قررت أن أقبل - في ضوء مسلكي الحالي - أي أذى وأية إهانة وأيّ عذاب وأيّ عقاب موجه إلى شخصي بشرط ألاّ يأتي أي ضرر إلى رسائل النور وإلى طلابها بسببي، ففي هذا ثواب لي في الآخرة وهو وسيلة لإنقاذي وخلاصي من شرور نفسي الأمارة بالسوء. فبينما أبكي من ناحية فإنني

---

(١) سيرة ذاتية ٣٩٠-٣٩١.

مسرور من ناحية أخرى. ولو لم يدخل هؤلاء الأبرياء المساكين السجن معي من أجل هذه المسألة لكانت لهجتي في الدفاع شديدة جداً[١].

من خطابه إلى محكمة التمييز

إنه لم يسجل رجال أمن الحكومة في ست ولايات أية حادثة تخل بالأمن لطلبة النور مع أنهم يعدّون بمئات الآلاف سوى حادثة صغيرة تتعلق بقيام أحد الطلبة الصغار بدفاع شرعي. ولم يسمع أحد أن طالباً من طلاب النور دخل السجن بسبب جرم أو جناية، وما دخل السجن إلاّ وأصلح المسجونين. ومع أن مئات الآلاف من نسخ رسائل النور منتشرة في أرجاء البلد فلم يشاهد أحد ضرراً لها، بل لم يجدوا منها سوى النفع طوال ثلاث وعشرين سنة. وأصدرت ثلاث محاكم لثلاث حكومات أحكامها بالبراءة، كما أن مئات الآلاف من الطلبة يشهدون ويصدقون بأقوالهم وبأفعالهم على قيمة رسائل النور[٢].

---

(١) سيرة ذاتية ٤٠٥.

(٢) سيرة ذاتية ٤١١.

مستقبل العالم الإسلامي
كما يتجلى في الخطبة الشامية

من الله تعالى على الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي بمجموعة من الأمور التي أهلته لمقام التجديد في هذا العصر، منها: الذكاء الخارق، والعلم الواسع، والعقل الناقد، والبصيرة الثاقبة، والحدس الصادق، والتجربة العريضة العميقة في جوانب متعددة من الحياة .

كل ذلك جعله بنور الإيمان قادرا على استشراف المستقبل، وشق حجب الزمان، والتنبؤ بمستقبل الإسلام في زمن كثرت فيه المؤامرات، ووصل الخراب إلى عقر دار الإسلام، حين تبنى نفر من أبناء المسلمين تنفيذ مخططات الأعداء لضرب الإسلام، والسير وراء الحضارة الغربية خطوة خطوة، بل نفذوا المخطط الذي أشار إليه وزير المستعمرات البريطاني غلاديستون بإبعاد المسلمين عن القرآن، فقال الأستاذ النورسي رحمه الله يومها ردا على ذلك: "لأبرهنن للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها، ولا يمكن إطفاء نورها"(١).

إن من متطلبات الرؤية الصادقة لمستقبل الأمة أن يحسن الإنسان تشخيص دائها الحاضر وجذوره الماضية، وأن تكون لديه الرؤية الواضحة

---

(١) سيرة ذاتية ص٨٩، سوزلر، القاهرة ط ٦، ٢٠١١.

لعلاج الأمراض المستعصية، والخروج من الأزمة الراهنة. وهذا ما وجدناه جليا لدى الأستاذ النورسي ﵀.

ولا بد من التنبه إلى أمر مهم هو أن الأستاذ النورسي ﵀ الذي جعل حياته مرحلتين: سعيد القديم وسعيد الجديد لم يخلع من فكره كل ما أنتجه سعيد القديم ولم يتبرأ منه ولم يتخل عنه، ودليل ذلك أنه أشرف بنفسه على إعداد رسائل النور في صورتها النهائية، وقام بتدقيقها والإشراف على نشرها، وكان مما احتفظ به فيها كثير مما كتبه سعيد القديم، ومنه:إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، وصيقل الإسلام.

ومما ورد في صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، تلك الخطبة التي ألقاها عام ١٩١١ في المسجد الأموي في دمشق، وأعاد النظر فيها بعد أربعين عاما، ونقحها و"ضم إليها فقرات مهمة وهوامش قيمة، وحذف منها ما يحدد شموليتها"[(١)].

وقال عنها الأستاذ النورسي ﵀ في مقدمته لها بعد تلك التعديلات: "إن الحقائق الواردة فيها، قد أحسَّها "سعيد القديم" بإحساس مسبق فزفها بشائر عظيمة بيقين جازم، ظناً منه أن تلك الحقائق وشيكة التحقق، بيد أن الحربين العُظميين، والاستبداد المطلق الذي استمر ربع قرن من الزمان قد أدّيا إلى تأخر تحقق تلك الحقائق أربعين أو خمسين عاماً. والآن وقد بدأت تباشير تحقق

(١) صيقل الإسلام، الخطبة الشامية: مقدمة الأستاذ إحسان قاسم، ص ٤٤٩، سوزلر، القاهرة ط ٦، ٢٠١١.

ما أخبر عنه تلوح في أفق العالم الإسلامي. بمعنى أن هذا الدرس المهم ليس مجرد خطبة قديمة، قد عفا عليها الزمن، بل هو درس اجتماعي إسلامي، يحتفظ بكامل جدته وطراوته وحقيقته طوال هذه الفترة، وكل الذي حدث هو أن عام ١٣٢٧هـ قد أصبح عام ١٣٧١هـ وأن الجامع الأموي قد حل محلّه جامع العالم الإسلامي الذي يضم ثلاث مائة وسبعين مليون نسمة"[١].

اكتسبت هذه الخطبة أهمية كبيرة منذ إلقائها، فقد طبعت أكثر من طبعة، واهتم بها الدارسون وعقدت حولها الدراسات المتعددة والندوات المتكررة. وتظل هذه الخطبة موضع دراسة واهتمام خاص لأنها مثلت تشخيص الأستاذ النورسي رحمه الله لواقع الإسلام والمسلمين ومستقبلهم، والإجابة عن السؤال الذي كان يلح على مفكري الإسلام في ذلك العصر: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟

ولم يقتصر الحديث عن حال المسلمين ومستقبلهم على الخطبة الشامية بل نجد حديثا عن ذلك في مواضع متعددة من صيقل الإسلام ومواضع أخرى من الرسائل[٢].

(١) صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ص ٤٥٣.

(٢) انظر في صيقل الإسلام: المناظرات، ومحاكمات عقلية، وفي الكلمات: اللوامع: مجلس في عالم المثال ص ٨٤٠.

إن مما يثير الإعجاب أن تجد تشخيصا دقيقا لحال المسلمين وإدراكا واعيا للأمراض التي تمنعهم من التقدم وهي:

أولاً: حياة اليأس الذي يجد فينا أسبابه وبعثه.

ثانياً: موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية.

ثالثاً: حبّ العداوة.

رابعاً: الجهل بالروابط النورانية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض.

خامساً: سريان الاستبداد، سريان الأمراض المعدية المتنوعة.

سادساً: حصر الهمة في المنفعة الشخصية [1].

إننا أمام أمراض فردية وجماعية: نفسية واجتماعية وسياسية، تضافرت كلها فأنتجت التخلف في حياة المسلمين، وقد انكشفت تلك الأمراض للأستاذ النورسي فصاغها في إيجاز ثم تحدث عن الأدوية لها من خلال تفصيل تلاها، ولنقف وقفات مختصرة مع كل مرض منها.

المرض الأول هو اليأس:

واليأس أشبه بفقر الدم الذي ينهك الجسد ويمنع أجهزته من القيام بوظائفها، والأمة اليائسة أمة تعيش على هامش الحياة، وهذا ما كان عليه حال الأمة يوم ألقى الأستاذ النورسي رحمه الله خطبته في المسجد الأموي، فقد أشرف

---

(١) صيقل الإسلام/ الخطبة الشامية – ٤٦١ – ٤٦٢.

الرجل المريض على الموت، وكانت خطط اقتسام تركته جاهزة بين الأعداء الذين قارعهم قرونا، والمؤامرة امتدت إلى الجسد الإسلامي فتحول بعض المسلمين إلى أعداء لأمتهم وللدولة العثمانية التي كانوا جزءا منها، وتعاونوا مع الأعداء للإجهاز على الرجل المريض. واليأس مرض فردي جماعي يغلق فيه الأفق ويقف فيه الناس أمام الحد الأدنى من كل شيء!!

لقد أحس الأستاذ النورسي رحمه الله أنه غريب عن أهل عصره لأنهم لم يعيشوه كما عاشه ووقف منهم موقف المشخص الناقد في وصفه لهم بأنهم تذكار العصور الوسطى[1].

والمرض الثاني: تفشي الكذب في الحياتين السياسية والاجتماعية:

و**الأستاذ النورسي** رحمه الله عبر عن هذا الأمر بقوله: موت الصدق، ولم يقل انتشار الكذب، لأن الأصل في حياة المسلمين هو الصدق، والكذب ليس من شيم المسلمين على أي مستوى: سياسيا كان أو اجتماعيا، وإذا وجد الكذب وجدت الرذائل كلها، وإذا وجد الصدق فتحت أبواب الخير .

والمرض الثالث: حب العداوة:

وهو تشخيص عجيب للواقع الذي تعيشه الأمة في

---

(١) انظر صيقل الإسلام، محاكمات عقلية : ٢٢.

مرحلة تخلفها حين تنتشر العداوة بين الأفراد والجماعات، بل تصبح أمرا محبوبا لديهم!! وأي خير يرجى من شخص أو جماعة أو أمة ينتشر بينهم هذا المرض العضال الذي يقتل إنسانية الإنسان فضلا عن أجنة الإيمان في القلوب؟؟ بل إن مرض العداوة يعطل كل الطاقات الفاعلة في الأمة لأنها تكون في حال تشاكس لا توافق، وحال تعارض لا تعاون فيذهب جهدها سدى وتضيع طاقاتها عبثا.

المرض الرابع: الجهل برابطة الأخوة الإيمانية:

والروابط النورانية هي رابطة أخوة الإيمان التي تتجاوز ما يجتمع عليه الناس من أسس وروابط: من رابطة العشيرة والقومية إلى رابطة:﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ والرابطة الإيمانية كانت الباعث للقدرات الكامنة لدى العرب حين آمنوا بالإسلام، وهي التي استخرجت ما لدى الأمم الأخرى التي انتمت إلى تلك الرابطة فصنعت الحضارة الإسلامية.

هذا المرض "الجهل بالروابط النورانية" التي تربط المؤمنين

بعضهم ببعض، نتيجة طبيعية لما سبقه من أمراض، ولانتشار آفة الجهل بين الناس، والغفلة عن حقيقة الأمة ودورها في الحياة، وما يجب أن تكون عليه من حال؛ أفرادا وجماعات. فظلمات الجهل وحب العداوة وموت الصدق تكون ثمراتها الجهل والتعامي عن روابط الإيمان التي تجعل المؤمنين إخوة بل تجعلهم كالجسد الواحد إحساسا وتعاونا، بل إن الجهل بهذه الروابط والتعامي عنها يحولهم إلى إخوة أعداء! ويعطل ما لديهم من قدرات ويميت فيهم روح البحث عن المعالي ويوقعهم في شرك العداوة والصراع لتحقيق الدوائر الضيقة التي تتجاهل الدائرة الأوسع: دائرة أخوة الإيمان.

المرض الخامس: مرض سياسي لكن آثاره مدمرة قاتلة:

وهو سريان الاستبداد، هذا المرض لا يتحقق معه خير أبدا، لأنه أشبه بالحالة الفرعونية أو النمرودية التي تحول الحاكم إلى إله ورب، وتحول الرعية إلى قطيع مستسلم طوعا أو كرها، وهذا المنهج الفرعوني أو النمرودي مضاد ومخالف للمنهج النبوي والمنهج الراشدي، ويصادر حق أهل الحل

والعقد ممثلي الشعب في المشاركة في إدارة أمور الأمة ورسم مسارها، ويحول الدولة إلى مزرعة مملوكة لشخص أو أسرة ليس أكثر!! وحين يسود هذا المنهج يفقد الناس الرغبة في الإبداع والقدرة على التجديد .

المرض السادس: الأنانية بحصر الهم في المنفعة الشخصية:

في مثل هذا الجو وفي مجتمع تسوده هذه الأمراض ليس غريبا بل من المنطقي أن تنتشر فيه الأنانية، حيث يسعى كل فرد فيه إلى تحقيق المنفعة الذاتية لنفسه،لأنه لا حقوق للأخوة فيه، ولا روابط بين أفراده، فيصبح شعار: نفسي نفسي، هو السائد المتداول. وحين تنتشر الأنانية تفقد أمتنا الدور الذي أهلتها له الرسالة الإسلامية، دور التبليغ عن رسول الله ﷺ، والشهادة على الناس ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ **[البقرة: ١٤٣]**.

من التشخيص إلى العلاج:

كان تشخيص الأستاذ النورسي رحمه الله لأمراض الأمة أساسا لما استخلصه من القرآن الكريم من الأدوية لتلك

الأمراض. ويلفت النظر أنه كان يملك رؤية مستقبلية ثاقبة تجاوزت الواقع المحبط بكل ما فيه من العوائق، وانطلقت تبحث عن عوامل النهضة وعناصر القوة، والجوانب المشرقة التي تلوح من بعيد لذوي البصائر.

لقد تكرر عنده في الخطبة الشامية ومواضع أخرى إشارات جازمة بأن المستقبل للإسلام وللقرآن، وأن الأمة ستتجاوز العقبات التي تحول بينها وبين النهضة، هذا التكرار دليل يقين جازم لا يقبل الشك، يدفع المخلصين إلى السير نحوه بهمة عالية، وهو شرط مهم لتحقيق الهدف، فمن فقد الثقة قعد به العجز وأحبطه الكسل .

ولنقف على مقتطفات من كلام الأستاذ نفسه فهي أقدر على التعبير عن مراده، يقول: "إنه بناء على ما تعلمته من دروس الحياة، يسرّني أن أزفّ إليكم البشرى يامعشر المسلمين، بأنه قد أَزِفَ بزوغ أمارات الفجر الصادق ودنا شروق شمس سعادة عالم الإسلام الدنيوية وبخاصة سعادة العثمانيين، ولاسيما سعادة العرب الذين يتوقّف تقدم العالم

الإسلامي ورقيّه على تيقظهم وانتباههم، فإنني أعلن بقوة وجزم، بحيث أسمع الدنيا كلها وأنفُ اليأس والقنوط راغم: إن المستقبل سيكون للإسلام، وللإسلام وحده. وإن الحكم لن يكون إلاّ لحقائق القرآن والإيمان. لذا فعلينا الرضى بالقدر الإلهي وبما قسمه الله لنا؛ إذ لنا مستقبل زاهر، وللأجانب ماضٍ مشوش مختلط"(١).

إنه لم يكن يرى الفجر بعيدا بل قريبا، وإن يكن حال دون ذلك الحربان العالميتان، ووقوع كثير من بلاد الإسلام تحت الاحتلال الأجنبي، وقيام دولة استبداد في تركيا بعد زوال الدولة العثمانية.

وكان مما يعاني منه العالم الإسلامي عند مراجعة الأستاذ النورسي رحمه الله للخطبة بعد أربعين سنة وقوع عدد من البلاد العربية تحت سطوة الاستعمار، وقد تنبأ الأستاذ النورسي رحمه الله بزوال ذلك الاستعمار واستقلال البلاد العربية والإسلامية وتوجهها نحو الوحدة:

"لقد أخبر (سعيد القديم) بإحساس مسبق منذ خمسة وأربعين عاماً بأن العالم الإسلامي – وفي مقدمته الدول العربية – سينجو من سيطرة الأجانب وتحكمهم، وسيشكلون دولاً إسلامية سنة،١٣٧١ ولم يفكر آنذاك في الحربين

(١) صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ٤٦٢.

العالميتين ولا في الاستبداد المطلق الذي دام ما يقارب أربعين عاماً، فبشّر بما كان سنة ١٣٧١ وكأنه ١٣٢٧دون أن يأخذ سبب التأخير بنظر الاعتبار"[١].

ونجده انطلاقا من ذلك اليقين يرفع صوته لا ليخاطب من استمع إليه في الجامع الأموي فحسب بل ليسمع العالم الإسلامي بعد عقود، وكأنه كان على يقين من انتشار رسائل النور في العالم وبلوغ صوته لا إلى المسلمين وحدهم بل إلى غيرهم ،وهذا ما تحقق على أيدي طلبة النور الذين انتشروا في العالم وعملوا على نشر رسائل النور بلغات مختلفة ليبلغ صوت الأستاذ العالم كله في الرسائل كلها لا في الخطبة الشامية وحدها، فلم تكن تلك الخطبة عابرة تلقى في جمع حاشد يتفرق بعدها وينتهي كل شيء بل كانت رؤية تشخيصية لواقع العالم الإسلامي ونظرة لمستقبله:

"يا إخواني الذين يضمهم هذا الجامع الأموي، ويا إخواني في جامع العالم الإسلامي! اعتبروا أنتم أيضاً! وقيّموا الأمور في ضوء الأحداث الجسام التي مرت خلال السنوات الخمس والأربعين الماضية. كونوا راشدين يا من يعدّون أنفسهم من أولي الفكر والعلم"[٢].

وهذه دعوة من الأستاذ النورسي ﵀ إلى المسلمين جميعا للتفكر في واقعهم والسعي إلى تحقيق النهضة المنشودة .

(١) صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، هامش ٤٦٢.

(٢) صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ٤٦٥.

وينظر في مستجدات أحوال تركيا في أوائل الخمسينات فيرى بداية تحول في السياسة تخف بها القيود عن الإسلام ودعاته، وأهل تركيا جميعا، ويرى تحولات أخرى في المشهد الإسلامي فيقول:

"ها قد أخذت الحجب التي كانت تكسف شمس الإسلام تنزاح وتنقشع، وأخذت تلك الموانع بالانكماش والانسحاب. ولقد بدأت تباشير ذلك الفجر منذ خمس وأربعين سنة، وها قد بزغ فجرها الصادق سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة والف أو هو على وشك البزوغ، وحتى إن كان هذا الفجر فجراً كاذباً فسيطلع الفجر الصادق بعد ثلاثين أو أربعين عاماً إن شاء الله"(١).

لقد كان الأستاذ النورسي رحمه الله حذرا في كلامه، بعد أن وجد في أعقاب الخطبة من الأحداث ما أبعد تحقيق رؤيته مدة من الزمن، ولذلك يحتاط في الحديث عن الفجر الذي هو كما هو معلوم فجران: فجر كاذب يسبق الفجر الحقيقي ويكون مقدمة له وفجر صادق ينبثق منه النور.

ولا يكتفي الأستاذ النورسي رحمه الله بمخاطبة من توقع قدومهم بعد أربعين أو خمسين سنة بل ها هو يخاطب أجيالا يتوقع أن تأتي بعد ثلاثمئة سنة في ربيع زاهر للأمة يتحقق فيه ما كان يتمنى أن يراه في حياته، وهو نص طويل لا بأس من اقتباسه والنظر فيه، فهو مع اليقين الجازم يضم عاطفة جياشة. ويبدأ تلك المخاطبة بالإعراض عمن كانوا في عصره ممن لم يرتقوا إلى ما كان

(١) صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ٤٦٥.

يستشرفه ووقعوا في أسر الجهل والوهم وها هو يقول بمرارة فيها اعتراض على اليأس الذي سيطر على المسلمين وحال بينهم وبين النهضة في عصره:

"لماذا تكون الدنيا ميدان تقدمٍ وترقٍ للجميع، وتكون لنا وحدنا ميدان تأخر وتدنٍ.. فهل الأمر هكذا؟! فها أنذا آليتُ على نفسي ألاّ أخاطبكم، فأدير إليكم ظهري وأتوجه بالخطاب الى القادمين في المستقبل"(١).

ويستحضر أولئك القادمين كأنهم أمامه ليبلغهم كلمات رسائل النور، ويصف ما يتوقع أن يكونوا عليه، ويحملهم تحقيق ما كان يصبو إليه وتصديق ما أخبر به:

"أيا مَن اختفى خلف عصر شاهق لما بعد ثلاثمائة سنة، يستمع إلى كلمات النور بصمت وسكون. وتلمحنا بنظر خفي غيبي..

أيا من تتسمّون بسعيد وحمزة، وعمر وعثمان وطاهر، ويوسف وأحمد وأمثالهم

إنني أتوجه بالخطاب إليكم: ارفعوا هاماتكم وقولوا: لقد صدقت" وليكن هذا التصديق دَيْناً في أعناقكم.

إن معاصري هؤلاء وإن كانوا لايعيرون سمعاً لأقوالي، لندعهم وشأنهم.

إنني أتكلم معكم عبر أمواج الأثير الممتدة من الوديان السحيقة للماضي

---

(١) صيقل الإسلام، المناظرات، ٣٨٢.

- المسمّى بالتأريخ - إلى ذرى مستقبلكم الرفيع..

ماحيلتي لقد استعجلتُ وشاءت الأقدارُ أن آتي إلى خضم الحياة في شتائها..

أما أنتم فطوبى لكم ستأتون إليها في ربيع زاهر كالجنة،

إن ما يُزرع الآن ويُستنبت من بذور النور ستتفتح أزاهير يانعة في أرضكم..

نحن ننتظر منكم لقاء خدماتنا، أنكم إذا جئتم لتعبروا إلى سفوح الماضي، عوجوا إلى قبورنا، واغرسوا بعض هدايا ذلك الربيع على قمة "القلعة التي هي بمثابة شاهد قبر مدرستي، والمستضيفة لرفاتنا وعظامنا والحارسة لتراب "خورخور"

سنوصي الحارس ونذكّره... نادونا...

ستسمعون صدى: "هنيئاً لكم" ينطلق من قبورنا [ولو من الشاهد على طيف الضيف]. إن عيون هؤلاء الذين يرتضعون معنا ثدي هذا الزمان في قفاهم تنظر إلى الماضي دوماً، وتصوراتُهم شبيهة بهم معزولة وبلا حقيقة، هؤلاء الصبيان وإن كانوا ينظرون إلى حقائق هذا الكتاب ويتوهمونها خيالاً.. فلا أبالي، لأنني على ثقة من أن مسائل هذا الكتاب ستتحقق فيكم واضحة.

أيا من أخاطبكم، ألا معذرةً، إني أصرخ عالياً، وأنا معتلٍ منارة العصر الثالث عشر الهجري، أدعو أولئك المدنيين المتحضرين صورةً وشكلاً

والمتهاونين في الدين حقيقة، والذين يجولون في أودية الماضي السحيق فكراً..

أدعوهم إلى الجامع..

فيا أيتها القبور المتحركة برجلين اثنتين،

أيتها الجنائز الشاخصة!

ويا أيها التعساء التاركون لروح الحياتين كلتيهما.. وهو الإسلام،

انصرفوا من أمام باب الجيل المقبل، لا تقفوا أمامه حجر عثرة، فالقبور تنتظركم..

تنحّوا عن الطريق ليأتي الجيل الجديد الذي سيرفع أعلام الحقائق الإسلامية عالياً ويهزها خفاقة تتماوج على وجوه الكون"[1].

ما أجمله من خطاب، وما أرسخه من يقين، وما أبلغه من تشخيص لواقع عصره، وما أصدقها من رؤية تتولد أملا في مستقبل لا بد أن يأتي تحقيقا لتلك الرؤية لا الرؤيا!! وما أشدها من مرارة كانت في نفسه وهو يصف حال معاصريه "عيونهم في قفاهم" وهم "صبيان" لا يتقنون بما يخبرهم به، بل إنه يطلب منهم ألا يكونوا حجر عثرة أمام جيل النهضة القادم ويطلب منهم أن يتنحوا عن طريقه[2].

---

(١) صيقل الإسلام، المناظرات ٣٨٢-٣٨٣.

(٢) وانظر حواره مع الجندي الروسي حول مستقبل الأمة الإسلامية سنة ١٩١٠ على تل صنعان ففيه تفاؤل يشمل العالم الإسلامي كله، صيقل الإسلام، السانحات، ص ٣٥٠ .

التخلص من اليأس وآثاره التي تعيق النهضة

وقف الأستاذ النورسي رحمه الله مع اليأس وأثره في إعاقة النهضة وقفة الخبير المدرك لعوامل التخلف ودوافع التقدم، ورأى أن التخلص من اليأس شرط من شروط النهضة، فهو داء قاتل، وهو أشبه ما يكون بالسرطان، وهو سبب الاستسلام للدول المستعمرة التي تحكمت بالمسلمين عدة قرون، وقاتل للخصال الحميدة، وعامل من عوامل انتشار الأنانية الفردية ،ومانع من بلوغ الكمالات. والتخلص من اليأس يفتح بوابة الأمل التي تؤدي إلى طريق النهضة ولذلك وجدناه يستطرد في الحديث عن الأمل[١].

الأمل وبواعث النهضة:

لم يكن استشراف الأستاذ النورسي رحمه الله للمستقبل أماني أو أحلاما يأوي إليها هربا من واقع مرير، بل كان ثمرة تشخيص للأمراض ورؤية لعلاجها، وكانت رؤيته المستقبلية مبنية على أمور منها:

أولا : إدراك منزلة هذه الأمة :

أدرك الأستاذ النورسي رحمه الله منزلة الأمة الإسلامية، وعرف أن لها موقع الريادة في قافلة البشرية، ولذلك كان مما يشغل باله : تأخر المسلمين وتقدم غيرهم، ونجده يتساءل بمرارة مخاطبا اليائسين من نهضة الأمة في عصره بما هم فيه من تخلف وجهل وخضوع للاستبداد: "فكيف تيأسون، وتثبطون روح العالم الإسلامي المعنوية وتظنون ظن السوء وفي يأس وقنوط: أن الدنيا دار

---

(١) انظر صيقل الإسلام، الخطبة الشامية ص٤٧٤-٤٧٥.

ترقٍ وتقدم للأجانب وللجميع بينما أصبحت دار تدنٍ وتأخّر للمسلمين المساكين وحدهم. إنكم بهذا ترتكبون خطأً شنيعاً"[١].

كان لدى الأستاذ النورسي رحمه الله يقين لا يقبل الشك في أن المسلمين يجب أن يكونوا "خير أمة أخرجت للناس" بتحقيق شروط الخيرية:

"ثبت أيضاً بشهادة الحقائق التي قدّمها الإسلام للبشرية والتي تخص البشر والكائنات: أن المسلمين هم أفضل البشر وأشرفهم وهم أهل الحق والحقيقة، كما ثبت بشهادة التاريخ والوقائع والاستقراء التام: أن أشرف أهل الحق المشرَّفين من بين البشر المكرَّمين وأفضلَهم هو محمد ﷺ الذي يشهد له ألفٌ من معجزاته وسمو أخلاقه ومكارمه وحقائق الإسلام والقرآن"[٢].

ونجده وهو يعرف منزلة الأمة الإسلامية يتصورها في ضوء رابطة الأخوة الإيمانية كالعشيرة الواحدة:

"وهكذا فبفضل هذه الرابطة المقدسة التي تشد الأمة الإسلامية بعضها ببعض يصبح المسلمون كافةً كعشيرة واحدة. فترتبط طوائف الإسلام برباط الأخوة الإسلامية كما يرتبط أفراد العشيرة الواحدة ويمد بعضهم بعضاً معنويّاً، وإذا اقتضى الأمر فمادياً، وكأن الطوائف الإسلامية تنتظم جميعها كحلقات سلسلة نورانية. فكما إذا ارتكب فرد في عشيرة ما جريمة فإن عشيرته بأسرها تكون مسؤولة ومتّهمة في نظر العشيرة الأخرى وكأن كل فرد من تلك

(١) صيقل الإسلام، الخطبة الشامية،ص ٤٧١.

(٢) صيقل الإسلام،ص ٤٧٣.

العشيرة هو الذي قد ارتكب الجريمة، فتلك الجريمة قد أصبحت بمثابة الألوف منها، كذلك إذا قام أحد أفراد تلك العشيرة بحسنةٍ واحدة افتخر بها سائر أفراد العشيرة وكأن كل فرد منها هو الذي كسب تلك الحسنة"[١].

وقد بنى على هذا التصور أمرا مهما يتعلق بتضاعف الحسنات والسيئات التي يقوم بها أفراد المسلمين وجماعاتهم وهذا يقتضي تنبه كل مسلم إلى أن يكون دوره إيجابيا لا سلبيا في نهضة الأمة.

ثانيا: معرفة جوانب القوة والضعف فيها:

وقد تسنى للأستاذ النورسي رحمه الله ذلك بتشخيص أمراض الأمة ووضع اليد على عوامل النهضة، ومن أهم ما يدفع الأمة إلى التقدم تمسكها بدينها تمسكا حقيقيا واعيا، وقد استشهد بكلام لزعماء من غير المسلمين رأوا أن هذه الأمة تتقدم حين تتمسك بدينها وبغير ذلك تتأخر[٢].

وقد وضع الأستاذ النورسي رحمه الله يده على خمس قوى تدفع المسلمين إلى الرقي هي:

القوة الأولى: "الحقيقة الاسلامية" التي هي أستاذ جميع الكمالات والمثل، الجاعلة من ثلاثمائة وخمسين مليون مسلم كنفسٍ واحدة والمجهّزة بالمدنية الحقيقية والعلوم الصحيحة، ولها من القوة ما لا يمكن أن تهزمها قوة مهما

(١) صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ٤٨٠.

(٢) انظر: صيقل الإسلام، الخطبة الشامية،٤٦٣ و٤٦٧-٤٦٨.

كانت"[١].

والحقيقة الإسلامية كما تبدو لي هي الرؤية الشاملة الواضحة الكاملة للوجود، تلك الرؤية التي تمتد منذ خلق الله السماوات والأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ويمضي الناس زمرا:أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار.

تلك الرؤية التي ترد أمر الوجود إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته التي ما الوجود كله إلا تجليات لها، حين يمتلك المسلمون هذه الرؤية أو الحقيقة الإسلامية ينفتح لهم الطريق إلى التقدم، وتزول الغشاوات عن العيون ويشرق فجر الإسلام من جديد، لأنهم بامتلاك هذه الحقيقة يدركون معنى الحياة، وحقيقة الاستخلاف، ودورهم في الشهادة على الناس، ويسعون إلى استجلاء تجليات الأسماء الحسنى في أنفسهم وفي الآفاق، ويحسنون عمارة الأرض ليحصدوا ثمرات ما يزرعونه من خير في الدنيا وفي الآخرة، وذلك ما كأن الأستاذ النورسي رحمه الله على يقين منه .

القوة الثانية هي: "الحاجة والفقر، وكما قيل: الحاجة أم الاختراع، والفقر باعث للهمة إلى السعي لا من أجل مصلحة الفرد وحده بل مصلحة الجماعة كذلك، ولا يكون هذان الأمران حافزين إلى التقدم إلا بوجود عوامل تكسر قيود العجز والكسل، وتثير الهمم، والحقيقة الإسلامية السابقة الذكر من أهم

---

(١) صيقل الإسلام، الخطبة الشامية ص٤٦٩.

الحوافز[١].

القوة الثالثة: هي الحرية الشرعية" وهي كما يرى الأستاذ النورسي رحمه الله بتصوير بديع "تعني التحلي بأسمى ما يليق بالإنسانية من درجات الكمال والتشوق والتطلع إليها." فإذا وجدت هذه الحرية في المجتمع الإسلامي فإنه لن يرضى بالدنية ولا الدون في أي شيء، لأنها توقظ فيه العزة الإسلامية، والحرية بهذا المفهوم تطلق طاقات الإنسان من قيودها، وتجعل الإنسان يتمتع بإنسانية حقيقية غير منقوصة[٢].

القوة الرابعة: "الشهامة الإيمانية التي تمنع المسلم من أن يظلم أحدا أو يرضى بظلم غيره له على المستويين الفردي والجماعي، ويوضحها في صورة بينة بقوله: "عدم مداهنة المستبدّين وعدم التحكم بالمساكين أو التكبّر عليهم،" وهذا أساس مهم من أسس الحرية الشرعية، فما لا يرضاه المسلم لنفسه من إذلال لا يرضاه لغيره، وهذه الشهامة تحرر الإنسان من القيود، وتطلق طاقاته الكامنة وتحرره من هواجس الخوف التي تكبت القدرات الكامنة في أعماق الإنسان[٣].

القوة الخامسة: العزة الإسلامية ويوضحها بقوله: "العزة الإسلامية" التي تعلن إعلاء كلمة الله. وفي زماننا هذا يتوقف إعلاء كلمة الله على التقدم

(١) انظر: صيقل الإسلام، الخطبة الشامية ص٤٦٩-٤٧٠.

(٢) انظر: صيقل الإسلام، الخطبة الشامية ٤٧٠.

(٣) انظر: المصدر السابق.

المادي والدخول في مضمار المدنية الحقيقية. ولاريب أن شخصية العالم الإسلامي المعنوية سوف تدرك وتحقق في المستقبل تحقيقاً تاماً ما يتطلبه الإيـمان من الحفـاظ على عزة الإسلام.." ونستذكر هنا قول الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] ولن تتحقق العزة بالمعنى الحقيقي ما لم تحقق الأمة الإسلامية التقدم المادي وما لم تمتلك القوة الرادعة لأعدائها، وما لم تستثمر ما في أرضها من المعادن والطاقات التي توفر للناس الحياة الكريمة وللدولة القدرة التي بها تفوق من ينافسها وذلك لتقدم الإسلام في صورة عزيزة ناصعة يجمع نور الدعوة مع التقدم المدني حتى لا يكون التخلف قرين الدين(١).

هذه القوى هي العوامل الدافعة للتخلص من القيود والتحرر من اليأس وإحكام روابط الأخوة بين المسلمين واستنهاض هممهم في المجالات كلها.

ثالثا: إدراك طبيعة العصر ومآلات الأمور فيه:

لم يكن نظر الأستاذ النورسي رحمه الله مقصورا على العالم الإسلامي وحده بل كانت عينه على العالم كله، وكان يدرك ما يجري في العالم، وما سيكون له من عواقب، وكان يؤمن أن الإسلام هو مستقبل البشرية ولذلك على المسلمين أن يرتقوا إلى ما ستؤول إليه الأمور.

إنه لم يكن ينظر إلى نهضة العالم الإسلامي وحده بل كان ينظر إلى مهمة

---

(١) انظر: صيقل الإسلام، الخطبة الشامية ٤٧٠.

المسلمين بإنقاذ البشرية وإيصال نور الإسلام إليها. ولذلك نجده يحدد موانع انتشار الإسلام في العالم، وهذه الموانع منها ما يخص غير المسلمين وهي: الجهل والتأخر عن العصر والتعصب للدين، وهذه الموانع بدأت تزول بفضل التقدم العلمي ومحاسن المدنية، وهناك عاملان آخران هما تحكم القسيسين بالأجانب وحجبهم الحقيقة عنهم، وتقليد الأجانب لهم من غير تفكر أو تدبر، وهذان العاملان آخذان في الزوال بسبب حرية الفكر التي أخرجت الأجانب من سيطرة القسيسين، وبسبب ميل البشر إلى البحث عن الحقائق(١).

هذه العوامل كانت لدى الأجانب، ولكن كانت هناك عند المسلمين موانع تحول بين الأجانب وإدراك حقيقة الإسلام، وهي: تفشي الاستبداد في ديار الإسلام وانتشار الأخلاق الذميمة مما يعطي صورة سلبية عن الإسلام، ويحول دون إدراك الأجانب حقيقته. وهذان العاملان في طريقهما إلى الزوال كما يرى الأستاذ النورسي رحمه الله (٢).

وهناك مانع مهم هو توهم وجود التناقض بين العلم والدين، وهذا العامل سيزول بفضل المؤلفات التي تكشف زيف ذلك التناقض، ورسائل النور عامل مهم في هذا المجال، ومعها كثير من مؤلفات العلماء الذين ينقضون هذا الوهم(٣). وها نحن نرى تحولا كبيرا في هذا المجال من خلال الدراسات

---

(١) انظر: صيقل الإسلام، ٤٦٦.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ٤٦٦-٤٦٧.

التي يجريها علماء من مختلف التخصصات في مجال الإعجاز العلمي، وهي دراسات تزيل أي شبهة تعارض بين حقائق القرآن والعلم.

ومما يلفت النظر ذلك اليقين الذي يتحدث به الأستاذ النورسي رحمه الله عن مستقبل الإسلام وانتشاره، فقد ثبت في عصرنا أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بغير دين، وأن الدين حاجة بشرية ملحة[(١)]بل نجده يقدم صورة مستقبلية للإسلام في أوربا وأمريكا فيقول في ثقة جازمة:

"إن أوروبا وأمريكا حَبَالى بالإسلام، وستلدان يوماً ما دولة إسلامية، كما حَبِلت الدولة العثمانية بأوروبا وولدت دولة أوروبية"[(٢)]. بل إنه يرى أن الإسلام سيحكم آسيا وإفريقيا ونصف أوربا[(٣)] وها نحن نرى انتشار الإسلام في أوربا وأمريكا ويشكل المسلمون فيها جاليات كبيرة العدد يمكنها إذا أحسنت تطبيق الإسلام والتعامل مع الواقع بحكمة أن تنشر أنواره في أوربا وأمريكا بصورة واسعة.

الشورى والحرية وأثرهما في النهضة المنشودة:

كان الاستبداد مرضا من الأمراض التي أشار إليها الأستاذ النورسي رحمه الله في تشخيصه لحال الأمة، وعلاج الاستبداد يكون بالشورى التي هي مفتاح سادة المسلمين، وهي منهج إسلامي في الحكم، قرره القرآن الكريم ﴿وَأَمْرُهُمْ

(١) انظر: صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ٤٦٤.

(٢) صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ٤٦٨.

(٣) صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ٥٠٠.

﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، وسيرة النبي ﷺ ومسيرة الخلفاء الراشدين G. وبالشورى تفك القيود التي كبلت المسلمين، وألقت عليهم ألوان الاستبداد الفردي أو العائلي عبر قرون من تاريخ الإسلام، والشورى قرينة الحرية الشرعية التي ترفض أن يذل المسلم لغيره أو أن يسعى إلى إذلال غيره، وألا يتخذ المسلمون بعضهم بعضا أربابا[1].

لقد انطلق الأستاذ النورسي ؒ في موقفه من الشورى والحرية من روح الإسلام القائم على التوحيد، والمبني على العزة، ومن نظرته في تاريخ المسلمين وواقعهم ورؤيته للمستقبل المنشود لهم .

ولننظر كيف يرى الأستاذ النورسي ؒ الشورى أساسا للسعادة وركنا لنهضة مهما للمستقبل:

"إن مفتاح سعادة المسلمين في حياتهم الاجتماعية إنما هو "الشورى" فالآية الكريمة تأمرنا باتخاذ الشورى في جميع أمورنا، إذ يقول سبحانه: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ **[الشورى: ٣٨]**.

أجل فكما أن تلاحق الأفكار بين أبناء الجنس البشري إنما هو شورى على مر العصور بوساطة التاريخ، حتى غدا مدار رقي البشرية وأساس علومها، فإن سبب تخلف القارة الكبرى التي هي آسيا عن ركب الحضارة إنما هو لعدم قيامها بتلك الشورى الحقيقية.

---

(١) انظر: صيقل الإسلام،الخطبة الشامية، ص ٤٨٣– ٤٨٤.

إن مفتاح قارة آسيا وكشاف مستقبلها إنما هو الشورى، أي: كما أن الأفراد يتشاورون فيما بينهم، كذلك ينبغي أن تسلك الطوائف والأقاليم المسلك نفسه فتتشاور فيما بينها. إن فك أنواع القيود التي كبّلت ثلاثمائة بل أربعمائة مليون مسلم، ورفع أنواع الاستبداد عنهم إنما يكون بالشورى والحرية الشرعية النابعة من الشهامة الإسلامية والشفقة الإيمانية، تلك الحرية الشرعية التي تتزين بالآداب الشرعية وتنبذ سيئات المدنية الغربية"(١).

المستقبل السياسي للمسلمين:

كان لدى الأستاذ النورسي رحمه الله أمل في إنقاذ الدولة العثمانية من الزوال وقد تجلى ذلك في مواضع من الخطبة الشامية ومنها قوله:

"نعم! إنه بناء على ما تعلمته من دروس الحياة، يسرّني أن أزفّ إليكم البشرى يامعشر المسلمين، بأنه قد أَزِفَ بزوغ أمارات الفجر الصادق ودنا شروق شمس سعادة عالم الإسلام الدنيوية وبخاصة سعادة العثمانيين، ولاسيما سعادة العرب الذين يتوقّف تقدم العالم الإسلامي ورقيّه على تيقظهم وانتباههم، فإنني أعلن بقوة وجزم، بحيث أسمع الدنيا كلها وأنفُ اليأس والقنوط راغم:أن المستقبل سيكون للإسلام، وللإسلام وحده" (٢).

لكننا نجده يتحدث عن الترك والعرب من غير صفة (العثمانيين) وذلك في رأيي يدل على أنه كان يتوقع زوال الدولة العثمانية ،بعد أن تحققت نبوءته

---

(١) صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ٥١٤.

(٢) صيقل الإسلام،الخطبة الشامية، ص ٤٦٢.

في ما بعد فولدت الدولة العثمانية دولة أوربية بعد إلغاء الخلافة وقيام الجمهورية العلمانية(١)، وكان يرى أن زوال الدولة العثمانية سيعوض عنه المسلمون سعادة كبيرة(٢) لكنه كان يؤمن أشد الإيمان بضرورة بقاء الوحدة الإسلامية بين المسلمين وفي مقدمتهم العرب الذين يعرف قيمتهم ومنزلتهم في مسيرة الإسلام(٣)، وهو يقدم تصورا جديدا عن هذه الوحدة ويلفت النظر أنه يقدم نموذج الولايات المتحدة الأمريكية ليطبق في البلاد الإسلامية(٤).

ويبدو أن ما دفعه إلى ذلك الصيغة الفديرالية التي تحافظ بها الشعوب على خصوصيتها في الشأن الداخلي مع توحدها عسكريا وسياسيا واقتصاديا فضلا عن التوحد الأهم في مجال الشأن الإسلامي الذي هو الرابط بين تلك الشعوب وقد كان عارفا بما كانت عليه الشعوب في أخريات الدولة العثمانية من تطلع إلى نوع من الاستقلال والمحافظة على شخصيتها في وجه حملة التتريك. يخاطب العرب والترك فيقول: "إن مصالح الطوائف الصغيرة وسعادتها الدنيوية والأخروية ترتبط بأمثالكم من الطوائف الكبيرة العظيمة، والحكام والأساتذة من العرب والترك. فإن تكاسلكم وتخاذلكم يضران بإخوانكم من الطوائف الصغيرة من أمثالنا أيما ضرر. وإنني أوجه كلامي هذا

(١) انظر صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ص ٤٦٨، ٤٨٠.

(٢) انظر: الكلمات، اللوامع ص ٨٤٠.

(٣) انظر مثلا: صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ص ٤٧٥.

(٤) انظر: صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ٤٨١.

بوجه خاص إليكم يا معشر العرب العظماء الأماجد، ويا من أخذتم من التيقظ حظاً أو ستتيقظون تيقظاً تاماً في المستقبل؛ لأنكم أساتذتنا وأساتذة جميع الطوائف الإسلامية وأئمتها، فأنتم مجاهدو الإسلام الأوائل، ثم جاءت الأمة التركية العظيمة لتمدّ وظيفتكم المقدسة تلك أيّما إمداد. لذا فإن ذنبكم عظيم بالتكاسل والتقاعس، كما أن حسناتكم جليلة وسامية أيضاً. ولا سيما نحن على أمل عظيم برحمة الله أنه بعد مرور أربعين أو خمسين عاماً تتحدون فيما بينكم - كما اتحدت الجماهير الامريكية - وتتبوأون مكانتكم السامية وتوفّقون بإذن الله إلى إنقاذ السيادة الإسلامية المأسورة وتقيمونها كالسابق في نصف الكرة الأرضية بل في معظمها. فإن لم تقم القيامة فجأة فسيرى الجيل المقبل هذا الأمل[1].."

إنه أمل قد تؤخر تحققه حجب الإقليمية والقومية ومخططات الاستعمار لإبقاء الأمة الإسلامية مقسمة منهوبة الثروات،ولكنه أمل ممكن التحقيق حين يفيء المسلمونم إلى حقيقة الإسلام.

ولا يقتصر حديث الأستاذ النورسي رحمه الله على العرب والترك وحدهم بل يمتد إلى الحديث عن مستقبل مرتبط بذلك لآسيا وإفريقيا، ونظرته هذه تتوقع أن تفيء آسيا وإفريقيا إلى رحاب الإسلام وتحقق التقدم المنشود، والنهضة المأمولة، ولكن كما وقعت عوائق أجلت تحقق رؤية الأساذ في الخطبة أربعين سنة أو أكثر فإن عوائق أكبر قد وقعت من خلال الاستعمار

(١) صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ص ٤٨١.

الجديد الذي لم يتمثل في قوات احتلال بل في أنظمة وطنية سعت إلى رعاية مصالح الدول المستعمرة من وراء حجاب، والنظر في واقع كثير من البلدان الآسيوية والإفريقية في نصف القرن الماضي يجد مصداق ذلك.

ذلك ما استشرفه الأستاذ النورسي ﵀ ودعا إليه، والذي أرى أنه سيكون ولو بعد حين من الزمن الذي توقعه،وها نحن نرى ما حدث في تركيا في السنوات الأخيرة من توجه إلى أصولها الإيمانية ولو بخطوات بطيئة لكنها واثقة مطمئنة، وما يحدث الآن في البلاد العربية من صعود للتيارات الإسلامية، وأقول ما قاله الأستاذ النورسي ﵀ لئن لم يكن ما نحن فيه فجرا صادقا فإنه يمهد لذلك الفجر بإذن الله.

ويبشر الأستاذ النورسي ﵀ بقرب ما سماه "الاتحاد الإسلامي" فيقول جازما "فقد آن أوان الاتحاد الاسلامي وهو على وشك التحقق[(١)]". ولا أدري إن كانت تلك البشارة في الخطبة التي ألقاها أم هي مما أضافه عند مراجعة الخطبة بعد أربعين سنة، وإن كنت أرجح أنها مما زيد فيها في أوائل الخمسينات.

ويبدو أن الأستاذ النورسي ﵀ لم يكن متمسكا بمصطلح أو اسم الخلافة نظاما للحكم، بل المهم عنده ألا يكون في الحكم استبداد وتحكمه حرية شرعية وعدل في الرعية، وذلك كله لا يتحقق إلا في ظل حكم الإسلام.

(١) صيقل الإسلام، الخطبة الشامية،ص ٤٨٢.

ولذلك نجده يقبل نظام الجمهورية ويعرفها فيقول: "الجمهورية عبارة عن العدالة والشورى وحصر القوة في القانون"(١).

وكذلك نجده يدعو إلى الاتحاد الإسلامي أو الاتحاد المحمدي الذي يبين ملامحه وأصوله في هذا النص الطويل:

"إن التوحيد الإلهي هو جهة الوحدة في الاتحاد المحمدي الذي هو حقيقةُ اتحاد الإسلام (الوحدة الإسلامية).

أما يمينه وبيعته فهو الإيمان.

ومقرّاته وأماكن تجمعاته: المساجد والمدارس الدينية والزوايا.

ومنتسبوه: جميع المؤمنين.

ونظامه الداخلي: السنن الأحمدية. والقوانين الشرعية بأوامرها ونواهيها. فهذا الاتحاد ليس نابعاً من العادة وانما هو عبادة.

فالإخفاء والخوف من الرياء. والفرائض لا رياء فيها. وأوجب الفرائض في هذا الوقت هو اتحاد الإسلام (الوحدة الإسلامية).

وهدف الاتحاد وقصده تحريك الرابطة النورانية التي تربط المعابد الإسلامية التي هي منتشرة ومتشعبة. وإيقاظ المرتبطين بها بهذا التحريك، ودفعهم إلى طريق الرقي بأمر وجداني.

مشرب هذا الاتحاد هو: المحبة. وعدوه: الجهل والضرورة والنفاق.

---

(١) صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ص ٤٩٦.

وليطمئن غير المسلمين بأن اتحادنا هو الهجوم على هذه الصفات الثلاث ليس إلاّ. وبالنسبة إليهم فسبيلنا الإقناع. لأننا نعتقدهم مدنيين. وأننا مكلفون بأن نظهر الإسلام بمظهر الجمال والحسن المحبوب. لأننا نظن فيهم الإنصاف[(١)].

ومع هذا المستقبل السياسي القائم على الاتحاد الإسلامي يرى الأستاذ النورسي رحمه الله للمسلمين دورا في نشر دين الله في الناس ولكن بجهاد لا يقوم على السيف بل على الحوار والإقناع لأن الحواجز المادية التي تدفع إلى الجهاد لإزالتها غير موجودة وباب الدعوة مفتوح، وما على المسلمين إلا أن يحسنوا التعامل معه واستثماره.

"وكما أن رقي الإسلام وتقدمه في الماضي كان بالقضاء على تعصب العدو وتمزيق عناده ودفع اعتداءاته، - وقد تم ذلك بقوة السلاح والسيف – فسوف تغلب الأعداء ويشتت شملهم بالسيوف المعنوية - بلا من المادي – للمدنية الحقيقية والرقي المادي والحق والحقيقة"[(٢)].

إن النظر من خلال مرآة الأستاذ النورسي رحمه الله إلى مستقبل العالم الإسلامي يفتح لنا باب الأمل أن المستقبل لهذا الدين، ولهذه الأمة التي يجب عليها أن تكسر قيد الاستبداد، وتشق ظلام اليأس، وتعيش في نور الأمل، وأن الوحدة مستقبلها القريب لا البعيد، متخطية حواجز التفرقة بين أبنائها، مقيمة

---

(١) صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ص ٤٩٨-٤٩٩.

(٢) صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ص ٤٧٠.

علاقة الإيمان أساسا للترابط، وأن الحياة الكريمة القائمة على العدل وكرامة الإنسان وعزة الإيمان وتساند المؤمنين، أمور لابد منها في ظلال العيش تحت راية القرآن ،وأن واجب الدعوة إلى الله الذي حملته أمانة من رسول الله ﷺ يجب أن تقوم به، متسلحة بكل أدوات المدنية الحديثة، مراعية لظروف العصر، مخاطبة للناس باللغة التي يدركون بها حقيقة الإسلام الذي يجيب عن الأسئلة التي رافقت البشرية منذ وجودها: من أنا؟ لماذا جئت؟ وكيف أعيش؟ وإلى أين أمضي؟

كل ذلك سيكون، ولكنه لن يتحقق من غير جهد بشري يدرك النجاح بفضل الله وتوفيقه، لا بد من الدعوة والحركة التي تمثلت في رسائل النور منهجا، وفي طلبة النور الذين حملوا الرسائل يجوبون أنحاء الأرض يثيرون همة المسلمين ليحققوا معنى إسلامهم بالإيمان التحقيقي، وليكونوا شهداء على الناس .

الأستاذ النورسي رحمه الله

والسعي إلى التحديث

يمكننا أن نقول بثقة: إن الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله،كان ابن عصره بل إنه سبق عصره، وأدرك حقيقة عصره ومتطلباته، وما على المسلمين أن يفعلوه ليكونوا أبناءه لا أبناء عصور سالفة، ليعيشوه وليستطيعوا مخاطبة أهله باللغة التي يفهمونها، وليستفيدوا من منجزات المدنية المعاصرة .

والوعي هو مقدمة التغيير، ومن أدرك واقعه استطاع التأقلم معه والانطلاق به نحو التغيير المطلوب، وذلك هو ما كان حال الأستاذ النورسي رحمه الله مع عصره .

لقد أدرك الأستاذ النورسي رحمه الله أن المسلمين كانوا في عصره متخلفين في جوانب متعددة:سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وعلميا وتعليميا، وتحدث عن ذلك التخلف ولاسيما في مؤلفات سعيد القديم التي ضمها كتاب "صيقل الإسلام".

أدرك التخلف والفساد في السياسة والاجتماع المتمثل في الاستبداد، وقدم علاجا له بالشورى والحرية الشرعية، وفي الأمل ومحاربة الأنانية، ونشر الأخلاق الإسلامية الفاضلة[1].

---

(١) انظر: صيقل الإسلام ، الخطبة الشامية من ص٤٩٢.

وأدرك وجود الخلل في مجال الفقه الإسلامي ودعا إلى إنشاء مجلس شورى للاجتهاد[١]، وأدرك الحاجة إلى تفسير معاصر يكشف كنوز القرآن ورأى أن ذلك ليس في قدرة فرد فدعا إلى تشكيل هيئة متنوعة الاختصاص لكتابة تفسير معاصر[٢].

يقول الأستاذ في مقدمة كتابه "محاكمات عقلية" المنشور ضمن صيقل الإسلام مبينا الغرض من تأليفه ومصورا تصويرا بليغا دقيقا حال التخلف الذي كان فيه المسلمون من معاصريه:

" إن ما أقصده بهذا الكتاب: صقل ذلك السيف الألماسي وشحذه.

فإن سألت:

- لِمَ هذا الاضطراب والقلق، وماجدوى سرد البراهين على ما صار كالعلوم المتعارفة؟ إذ المسائل التي تمخضت عن تلاحق الافكار_وكشفيات التجارب صارت واضحة وضوح البديهة، فإيراد البراهين عليها من قبيل الإعلام بالمعلوم؟!

---

(١) انظر: صيقل الإسلام ص٣٥١.

(٢) إشارات الإعجاز ص٢٠.

أقول جواباً:

- إن معاصريّ - مع الأسف - وإن كانوا أبناء القرن الثالث عشر الهجري إلا أنهم تذكار القرون الوسطى من حيث الفكر والرقي. وكأنهم فهرس، ونموذج، وأخلاط ممتزجة لعصور خلت- من القرن الثالث إلى الثالث عشر الهجري - حتى غدا كثير من بديهيات هذا الزمان مبهمة لديهم"[١].

وتكررت شكوى الأستاذ النورسي رحمه الله من معاصريه الذين لم يعيشوا عصرهم ولم يدركوا ما أنجزته البشرية عبر عصورها من تقدم علمي يفتح آفاقا للمسلم يدرك من خلالها تجليات آيات الله في الكون، ومن ذلك قوله:

"إن عيون هؤلاء الذين يرتضعون معنا ثدي هذا الزمان في قفاهم تنظر إلى الماضي دوماً، وتصوراتُهم شبيهة بهم، معزولة وبلا حقيقة، هؤلاء الصبيان وإن كانوا ينظرون إلى حقائق هذا الكتاب ويتوهمونها خيالاً.. فلا أبالي، لأنني على يقين أن مسائل هذا الكتاب ستتحقق فيكم واضحة" ثم يقول:

"فيا أيتها القبور المتحركة برجلين اثنتين،

أيتها الجنائز الشاخصة!

ويا أيها التعساء التاركون لروح الحياتين كلتيهما.. وهو الإسلام،

انصرفوا من أمام باب الجيل المقبل،

---

(١) صيقل الإسلام، محاكمات عقلية ص٢٤.

لا تقفوا أمامه حجر عثرة، فالقبور تنتظركم.."[1].

لقد أدرك الأستاذ النورسي رحمه الله أهمية تحديث المجتمع الإسلامي لنقل المسلمين من حال التخلف إلى التقدم، وليكون هذا التقدم مدخلا إلى قلوب المعاصرين من غير المسلمين.

وسنقف في هذه الكلمة على جانبين من الرؤية الحداثية للأستاذ النورسي، تلك الرؤية التي سعى بها إلى تجاوز التخلف في حياة المسلمين والانتقال بهم إلى عصرهم الحديث، وتشمل هذه الرؤية جانبين هما: التعليم، والوعظ.

الأستاذ النورسي رحمه الله وتحديث التعليم:

أدرك الأستاذ النورسي رحمه الله التخلف التعليمي الذي كان يعيشه المسلمون في عصره، وقد كان في ذلك العصر نوعان من المدارس: المدارس الدينية التي تمضي على النمط القديم الموروث،والمدارس الحديثة التي تسير على النهج الأوربي الوافد. وكان الأستاذ يدرك أهمية التعليم في الحياة ولذلك سعى إلى إصلاحه ليكون أداة مهمة من أدوات التغيير والتحديث في واقع المسلمين، وذلك ما دفعه وهو في أوائل الثلاثينات من عمره إلى تقديم عريضة إلى السلطان عبد الحميد يدعوه فيها إلى إصلاح التعليم ولاسيما في شرقي تركيا،وفي هذه العريضة رؤية واضحة لأهمية التعليم في تخطي التخلف والانتقال إلى العصر الحديث.

والغريب أن يواجه صاحب تلك الرؤية المتقدمة في الإصلاح تهمة

(١) صيقل الإسلام، المناظرات ٤٠٩.

الجنون التي رماه بها بعض أفراد حاشية السلطان، وأرسلوه بسببها إلى مستشفى المجاذيب!!

ولعل من المهم أن نقف على بعض ما دار من حوار بين الأستاذ النورسي رحمه الله وطبيب القصر الذي ذهب ليفحصه ويتأكد من حالته.

ولنقف على جوابه عن أمر من الأمور التي جلبت له الشبهات في إسطنبول وهي: مناظرته العلماء بل تحديه لهم أن يسألوه عن أي شيء مع إعلانه أنه لا يسأل أحدا عن شيء، وربما جر عليه ذلك الأمر الحسد خشية المنافسة، كما أن ما عرض من أفكار تخالف السائد المألوف أثار حوله الظنون.

لقد بين الأستاذ للطبيب بعض ما شاهده عند قدومه إسطنبول عام ١٩٠٨ من تخلف المدارس الدينية، وضعف طلبتها وتخلف أساليب التدريس فيها، وضعف الملكات لدى طلابها، ورأى أن من وسائل حل مظاهر التخلف انتشار المناظرات بينهم لتنشيط القدرات العقلية، كما رأى أن يتخصص كل طالب في علم من العلوم ويأخذ خلاصة من العلوم الأخرى المتعلقة به،ولا يتحقق الإصلاح في التعليم لم تتوافر لدى الطلبة الهمة العالية والدافع المشوق لاكتساب العلوم[١].

ويضع الأستاذ النورسي رحمه الله في حواره مع الطبيب يده على سبب تخلف المسلمين فيقول:

---

(١) سيرة ذاتية ٧١.

"إن الإسلام الذي يمثل الحضارة الحقة في عصر الرقي والتقدم هذا،لم يترق كالحضارة الحاضرة، وأرى أن أهم سبب في ذلك هو: تباين الأفكار وتخالف المشارب بين أهل المدارس الدينية والمدارس الحديثة والزوايا."

وقد أدى هذا التباين بين طلاب نوعي المدارس إلى تبادل الاتهامات بينهما، فكل يرى نفسه مصيبا وعلى الحق، ويرى الآخر مبطلا:

"فأهل المدرسة الدينية يتهمون أهل المدرسة الحديثة بضعف العقيدة لتأويلهم ظواهر بعض الآيات والأحاديث تأويلاً يفضي إلى غير المراد منها. وهؤلاء يعدّون أولئك غير موثوق بهم لعدم إقبالهم على العلوم الحديثة، (...)"

"فهذا التباين في الأفكار والتخالف في المشارب قد هزّ الأخلاق الإسلامية هزاً وأخّرها عن ركب المدنية".

وبعد أن شخص الأستاذ النورسي رحمه الله الداء في هذا المجال قدم العلاج له فقال:

"وعلاج هذا: تدريس العلوم الدينية في المدارس الحديثة تدريساً حقيقياً، وتحصيل بعض العلوم الحديثة في المدارس الدينية في موضع الحكمة القديمة التي أصبحت لا ضرورة لها.. وكذا تواجد علماء متبحرين في التكايا...

ويؤمل أملاً قوياً بعد هذا أن تصبح هذه المرافق الثلاثة جهازاً متناسقاً

يقطع المراتب نحو الرقي والتقدم"[١].

---

(١) سيرة ذاتية ٧١-٧٢ .

وقد قدم الأستاذ النورسي ﵀ تصورا متكاملا لعلاج التعليم في مشروعه الذي سماه: مدرسة الزهراء، تقليدا لاسم الأزهر، وسعيا إلى أن توجد في شرق الأناضول مدرسة (أو جامعة) تكون منارة علمية لبلاد المسلمين من حولها.

لقد بين الأستاذ أن من أسباب إنشاء مدرسة الزهراء:

"تدني العلوم في المدارس الدينية" (١).

ومواجهة "المؤامرة الخبيثة على القرآن" (٢).

وبين النتائج والمنافع المرجوة من إنشائها فقال: "إن الجامع الأزهر مدرسة عامة في قارة أفريقيا، فمن الضروري إنشاء جامعة في آسيا على غراره، بل أوسع منه بنسبة سعة آسيا على أفريقيا. وذلك:

لئلا تفسد العنصرية الأقوام في البلدان العربية والهند وإيران والقفقاس وتركستان وكردستان وذلك لأجل إنماء الروح الإسلامية التي هي القومية الحقيقية الصائبة السامية الشاملة فتنال شرف الامتثال بالدستور القرآني﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ **[الحُجُرات: ١٠]**.

وكذلك لتتصافح العلوم النابعة من الفلسفة مع الدين .

وتتصالح الحضارة الأوروبية مع حقائق الإسلام مصالحة تامة.

---

(١) سيرة ذاتية ٤٩٧.

(٢) سيرة ذاتية ٤٩٩.

ولتتفق المدارس الحديثة وتتعاون مع المدارس الشرعية في الأناضول.

لذا بذلت جهدي كله لتأسيس هذه الجامعة في مركز الولايات الشرقية التي هي وسط بين الهند والبلاد العربية وإيران والقفقاس وتركستان، وسميتها مدرسة الزهراء، فهي مدرسة حديثة ومدرسة شرعية في الوقت نفسه"[١].

ويحدد الأستاذ النورسي رحمه الله الشروط التي يجب أن تتوافر في تلك المدرسة ومنها:

"(...) التسمية باسم المدرسة لأنه مألوف ومأنوس وجذّاب، ومع كونه عنواناً اعتبارياً إلاّ أنه يتضمن حقيقة عظيمة ممّا يهيّج الأشواق وينبّه الرغبات.

(...) مزج العلوم الكونية الحديثة ودرجها مع العلوم الدينية معَ جعل اللغة العربية واجبة، والكردية جائزة، والتركية لازمة.وذلك لتخليص المحاكمة الذهنية (العقلية) من ظلمات السفسطة الحاصلة من أربعة أنواع من الأقيسة التمثيلية الفاسدة وإزالة المغالطة التي تولدها الملكة المتفلسفة على التقليد الطفيلي.

نعم ضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو العلوم الحديثة، فبامتزاجهما تتجلّى الحقيقة، فتتربّى همة الطالب وتعلو بكلا الجناحين، وبافتراقهما يتولد التعصب في الأولى والحيل والشبهات في الثانية"[٢].

---

(١) سيرة ذاتية ٥٠٠.

(٢) سيرة ذاتية ٥٠٣.

إنه وعي متقدم لوظيفة التعليم الجامعي، مع أنه سماها مدرسة،

ووعي لأهمية مزج العلوم الكونية مع العلوم الشرعية،

وإدراك للمنزلة التي يجب أن تتبوأها اللغة العربية في العالم الإسلامي .

ومن الفوائد المرجوة من هذه المدرسة النموذجية التي رأى الأستاذ أن تكون في شرقي الأناضول:

- "توحيد المدارس الدينية وإصلاحها".
- "إنقاذ الإسلام من الأساطير والإسرائيليات والتعصب الممقوت، تلك التي أصابت سيف الإسلام المهنّد بالصدأ.
- فتح باب لنشر محاسن المشروطية".

"فتح طريق لجريان العلوم الكونية الحديثة إلى المدارس الدينية،بفتح نبع صافٍ لتلك العلوم بحيث لا ينفر منها أهل المدارس الدينية ولقد قلت مراراً بأن فهماً خطأً وتوهماً مشؤوماً قد أقاما - لحد الآن - سدّين أمام جريان العلوم."

"إن هذه المدرسة تصالح بين أهل المدرسة الدينية والمدرسة الحديثة وأهل الزوايا التكايا وتجعلهم يتحدون- في الأقل- في المقصد، وذلك بما تحدث فيما بينهم من الميل وتبادل الأفكار"[1].

(١) سيرة ذاتية ٥٠٥.

ونقرأ جوانب بعيدة المدى لإصلاح التعليم من خلال مدرسة الزهراء في نشر الفكر الإيجابي الذي ينشر السلام ويحارب الفكر الثوري الإلحادي الهدام، فالقضية ليست تعليما فحسب بل تمتد آثارها سياسيا كذلك بما تنشر من الفكر الإيجابي، ويتجلى ذلك في قول الأستاذ :

"إن هذه الجامعة حجر الأساس لإحلال السلام في الشرق الاوسط وقلعته الحصينة وستثمر فوائد جمة لصالح هذه البلاد والعباد بإذن الله.

إن العلوم الإسلامية ستكون أساساً في هذه الجامعة، لأن القوى الخارجية المدمّرة قوى إلحادية، تمحي المعنويات، ولا تقف تجاه تلك القوى المدمّرة إلاّ قوة معنوية عظيمة، تنفلق على رأسها كالقنبلة الذرية" (١) .

ويختم الأستاذ النورسي رحمه الله حديثه عن الثمرات المرجوة من مدرسة الزهراء، الجامعة النموذجية، التي لو طبقت خطتها في العالم الإسلامي لخرّجت أجيالا مؤمنة عالمة تستثمر كل قدراتها، وتقدم للبشرية النموذج المتكامل للإنسان، يختم ذلك بهذا التصوير البديع لقصر الإسلام وما يحوي في داخله من أقسام متكاملة:

"إن الإسلام لو تجسّم لكان قصراً مشيداً نورانياً ينور الأرض ويبهجها فأحد منازله مدرسة حديثة، وإحدى حجراته مدرسة دينية، وإحدى زواياه تكية، ورواقه مجمع الكل، ومجلس الشورى، يكمل البعض نقص الآخر..

---

(١) سيرة ذاتية ٥٠٢.

وكما أن المرآة تمثل صورة الشمس وتعكسها فهذه المدرسة الزهراء ستعكس وتمثل أيضاً صورة ذلك القصر الإلهي الفخم في البلدان الخارجية"[١].

رؤية الأستاذ النورسي رحمه الله الحداثية للتعليم كانت رؤية حضارية شاملة لمستقبل المسلمين ودورهم في الأرض هداة للبشرية إلى طريق الإيمان، ولا يكونون كذلك إلا إذا أعطوا عصرهم حقه وكانوا فيه الطليعة في ميدان العلم.

لقد بين الأستاذ النورسي رحمه الله أن تقدم المسلمين شرط مهم لابد من توافره ليستطيعوا تقديم الإسلام إلى العالم لأن واقعهم يقدم صورة عن دينهم، ولا يجوز أن يقترن الإسلام بالتخلف .

الأستاذ النورسي رحمه الله وتحديث الوعظ:

وكما التفت الأستاذ النورسي رحمه الله في حديثه مع طبيب القصر الذي جاء يحاوره إلى التعليم، ورأى ما فيه من التخلف، ورسم الخطة لتحديثه في مدرسة (جامعة) نموذجية، فإنه نبه إلى تخلف الوعاظ في وعظهم مما يجعله ضعيف التأثير في سامعيهم.

والحديث عن الوعظ حديث عن جانب آخر مهم من جوانب التعليم، من خلال ما يقدمه العلماء والدعاة من خطب الجمعة والدروس الوعظية في المساجد.

ويبدو أن الوعظ حين يصبح مهنة يؤديها الواعظ باعتبارها عملا لا

---

(١) سيرة ذاتية ٥٠٦.

رسالة، يفقد تأثيره في السامعين لأنه يخرج باردا لا حرارة فيه، ميتا لا حياة فيه، فكيف إذا فقد الأسس المهمة في التأثير إلى جانب ذلك العيب الكبير؟

ذلك ما وضع الأستاذ النورسي رحمه الله يده عليه، وسعى إلى تحديثه وإصلاحه، فهو لا يقل أهمية عن التعليم، فالواعظ داعية إلى الله، ونائب عن رسول الله ﷺ في تبليغ الدين، وهذا مقام إن أدركه الواعظ اجتهد للقيام بحقه أيما اجتهاد.

والمقياس الذي بنى عليه الأستاذ موقفه من الوعظ هو نفسه من خلال أثر الوعظ في نفسه، فإذا كان من هو في منزلته لا يتفاعل مع وعظ الوعاظ فماذا عن عامة الناس؟بل ماذا عن تأثيرهم فيهم؟ إن يكن تأثير فسيكون سلبيا.

يقول الأستاذ النورسي رحمه الله:

"إنني استمعت إلى الوعاظ، فلم تؤثر فيّ نصائحهم ووعظهم. فتأملت في السبب، فرأيت أنه فضلاً عن قساوة قلبي هناك ثلاثة أسباب"[(١)]:

ونجد الأستاذ هنا يشير إلى أن عدم تأثير الوعظ قد يكون ناشئا عن عيب في الواعظ كما قد يكون من عيب في السامع، وقد يكون فيهما معا، وذلك إنصاف منه حين لا يلقي التبعة على الوعاظ وحدهم.

ولنقف على الأسباب التي ذكرها الأستاذ في ضعف تأثير الوعظ:

---

(١) سيرة ذاتية ٧٢.

١- "أنهم يتناسون الفرق بين الحاضر والماضي فيبالغون كثيراً في تصوير دعاويهم محاولين تزويقها دون إيراد الأدلة الكافية التي لابد منها للتأثير وإقناع الباحث عن الحقيقة، فالزمن الحاضر أكثر حاجة إلى إيراد الأدلة" (١).

الأستاذ هنا يقف على نقطة مهمة لابد أن تراعى في أساليب التدريس والوعظ وهي اختلاف الزمان الذي تنتج عنه عقليات جديدة وأذواق جديدة وثقافة جديدة لا بد أن تراعى، شأن الناس في هذا كشأنهم في جوانب الحياة المختلفة من الطعام واللباس وأدوات الحياة المتطورة، وأدوات الاتصال والمواصلات! فإذا كان الناس في عصور سابقة يتأثرون بالكلام المزوق الخالي من الأدلة، ويشدهم الإغراق في الصنعة اللفظية لضعف الثقافة، أو عامية التفكير، ويستثير عواطفهم التهييج، فهم في هذا الزمان بحاجة إلى الأدلة القوية التي تورث الطمأنينة وتولد اليقين وتقنعهم بالفكرة المقدمة إليهم، فلا يكفي خطاب القلب وحده بل لا بد أن يخاطب العقل كذلك، وذلك هو منهج القرآن الذي قدم الآيات في الأنفس والآفاق ليتولد اليقين في نفوس المؤمنين .

والسبب الثاني لضعف الوعظ هو:

٢- "أنهم عند ترغيبهم بأمرٍ ما وترهيبهم منه يُسقطون قيمة ما هو أهم منه، فيفقدون بذلك المحافظة على الموازنة الدقيقة الموجودة في الشريعة، أي

---

(١) سيرة ذاتية ٧٢.

لا يميزون بين المهم والأهم"[١].

تنبه الأستاذ النورسي رحمه الله إلى أن كثيرا من الوعاظ لا يعطون الموضوعات التي يتحدثون عنها قيمتها الحقيقية، فيضخمون بعض الأمور الصغيرة ويكثرون من الحديث عنها، ويغفلون عما هو أهم منها، وهذا الأمر دليل على مستواهم الفكري المتخلف عن عصرهم، فكما قيل: دل على عاقل اختياره،فاختيارهم الموضوعات ووضعها في مكانة أكبر من قيمتها مؤشر سلبي على مستواهم الفكري، وهذا يقتضي أن يكون لديهم الميزان الدقيق الذي يضعون به كل أمر في نصابه، من غير تضخيم ولا تقزيم، شأنهم في ذلك شأن الطبيب الذي يشخص حال المريض، فإن كانت علته في القلب توجه إلى علاجه وترك بعض الظواهر المرضية العارضة التي لا تؤثر على حياته، وأخر علاجها إلى حين الفراغ من المرض الأهم.

٣- "إن مطابقة الكلام لمقتضى الحال هي أرقى أنواع البلاغة، فلا بد أن يكون الكلام موافقاً لحاجات العصر، إلاّ أنهم لا يتكلمون بما يناسب تشخيص علة هذا العصر، وكأنهم يسحبون الناس إلى الزمان الغابر، فيحدثونهم بلسان ذلك الزمان"[٢].

هذا التشخيص يدل على غيبوبة الوعاظ وعدم إدراكهم طبيعة عصرهم ومتطلباته، ولا ما أصاب الناس فيه من تحولات فكرية واجتماعية، وكثيرا ما

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سيرة ذاتية ص٧٢.

نسمع من الناس شكوى من خطب الجمعة أو دروس الوعظ بأن الوعاظ يتحدثون عن أمور لا تراعي حاجات الناس ولا تتوافق مع مجريات الأحداث، وذلك يدل على غياب المقياس لدى الواعظ الذي يعرف به حاجة الناس الفكرية والقلبية فيسعى إلى إشباعها، وإلا فإنه سيكون في واد والناس في واد آخر، يخرجون من صلاة الجمعة من غير أن يحصلوا علما جديدا أو تتأثر قلوبهم بما سمعوا، وهذا ما يخل ببلاغة الكلام وفق ما هو متعارف عليه بأن يكون مناسبا للمقام الذي يقال فيه، وهذا ما نبه الأستاذ النورسي رحمه الله إليه.

وببلاغة موجزة نجد الأستاذ النورسي رحمه الله يضع خطة تحديث الوعظ في كلمات قليلة ما أشد فاعليتها لو اتبعها الوعاظ والخطباء، يقول الأستاذ رحمه الله:

"فعلى الوعاظ والمرشدين المحترمين أن يكونوا محققين ليتمكنوا من الإثبات والإقناع. وان يكونوا ايضاً مدققين لئلا يفسدوا توازن الشريعة. وأن يكونوا بلغاء مقنعين كي يوافق كلامهم حاجات العصر. وعليهم أيضاً أن يَزنوا الأمور بموازين الشريعة" [1].

ثلاث كلمات ترسم منهج التغيير والتحديث: التحقيق والتدقيق وبلاغة الإقناع.

فالتحقيق بذكر الأدلة المقنعة للعقل بحسن مخاطبته.

---

(١) سيرة ذاتية ٧٣.

والتدقيق باستخدام ميزان دقيق يضع الأمور الشرعية التي يتحدثون عنها في موضعها الصحيح وفق قيمتها في الشرع وحياة الناس.

والبلاغة بمراعاة حال الناس في ما يعرضونه من موضوعات في مواعظهم.

إن تحديث التعليم من خلال المدارس والجامعات، وتحديث الوعظ والخطابة الدينية في المساجد يؤديان إلى وجود أجيال من المسلمين تتسلح بالعلم والوعي وتفتح الذهن واستخدام الملكات، ويفتحان الطريق إلى التقدم المنشود.

هذه إطلالة سريعة موجزة على جانب من جوانب الرؤية التحديثية للأستاذ النورسي ﵀، ورسائل النور في حقيقتها رؤية حديثة تقدم للإنسانية كتاب الله والوجود والإنسان كأنه يراها أول مرة، رؤية تجدد الإيمان، وتجدد علاقة الإنسان بالوجود، وتضعه في منزلة عالية في سلم الكائنات، منزلة الثمرة من الشجرة،الثمرة التي تمثل أرقى تجليات تلك الشجرة.

تجليات الشفقة والرحمة

في حياة النورسي وفكره

تتجلى في الأنبياء والمصلحين المجددين صفة حب الخير في أعلى تجلياتها، فالنبوة هي الخير الأكبر الذي نزل من خزائن رحمة الله تعالى على البشر، والأنبياء هم صفوة البشرية، وأشدها رحمة بها، وحرصا على هدايتها. ومع أنهم حملة خير فقد جابهتهم أقوامهم بكل شر، من عناد وإعراض، ومن تهديد ووعيد بل من إخراج وقتل. ومضى أتباع الأنبياء على دربهم، فسعوا إلى نشر الخير، وصبروا على كل أذى وضر.

وإذا كانت النبوة قد ختمت بخير البشرية سيدنا محمد عليه وآله الصلاة والسلام فإن المجددين توالوا عبر القرون مصلحا يخلف آخر، يجددون للناس أمر دينهم، ويعيدون إلى الدين رونقه وبهاءه بما يجلون عن عيون الناس وقلوبهم ما تراكم عليها من صدأ الغفلة وحجب الشهوات والشبهات.

المجددون المصلحون تتجلى فيهم روح الآية الكريمة في خطاب رسولنا الكريم عليه وآله الصلاة والسلام: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ **[الأنبياء: ١٠٧]**.

ولنقف على تجلي هذه الرحمة في شخصية مجدد مصلح من أعلام المسلمين في عصرنا هو: بديع الزمان سعيد النورسي الذي فهم الدين فهما

عميقا تجلى في رسائل النور، كما تجلى في شخصيته وسيرته، فكان بحق داعية الرحمة، وإمام السلام، وفدائي المحبة.

الشفقة ركن من أركان دعوة النور

لقد استخلص الأستاذ النورسي رحمه الله من فيض القرآن الكريم ما سماه: أقرب طريق إلى الله تعالى، ولسلوك هذا الطريق أربع خطوات أو أركان هي: العجز والفقر والشفقة والتفكر. ويهمني هنا الوقوف عند ركن الشفقة التي هي مظهر الحب، وهي صفة ضرورية في الدعاة إلى الله تعالى لا تتحقق الدعوة بغيرها، ومن ثمراتها التفاني في الدعوة، والرحمة بالمدعوين، والصبر على ما يلقى الداعي من أذى مع اجتناب حظ النفس. ولنستمع إلى ما يقوله الأستاذ من تجلي الشفقة في نظرته إلى الخصوم الذين سببوا له الأذى ولنجعل هذه النظرة مقياسا لسواها:

"كانت (الشفقة) دستور حياتي منذ ثلاثين سنة، وأساس مسلكي ومسلك رسائل النور، فإنني لا أتجنب التعرض للمجرمين الذين ظلموني وحدهم بل لا أستطيع حتى مقابلتهم بالدعاء عليهم، وذلك لكي لا أتسبب في إلحاق الضرر بأي شخص بريء. بل إن هذه الشفقة هي التي منعتني من أن أتعرض - أو حتى أن أدعو - على بعض الفساق بل الظالمين اللادينيين الذين اندفعوا بحقد شديد في ظلمي، ذلك لكي لا أتسبب في ضرر مادي يلحق بالشيوخ والعجائز المساكين من أمثال والد ذلك الظالم أو والدته، أو في الإضرار بأنفس بريئة مثل أولاده. لذا فمن أجل أربع أو خمس من الأنفس البريئة لا أستطيع التعرض لذلك الظالم الغدّار، بل أعفو عنهم أحياناً.

وهكذا فبسرّ هذه الشفقة لا أكتفي قطعاً بعدم التعرض للحكومة وللأمن فقط، بل أوصي جميع أصدقائي بذلك إلى درجة أن بعض رجال الأمن المنصفين في ولايات ثلاث قد اعترفوا أن "طلاب رسائل النور" هم رجال أمن معنويون" (١).

فالشفقة تتجلى في السلام الذي اتخذه الأستاذ النورسي ﵀ منهجا في التعامل داخل المجتمع الإسلامي، والمحبة التي امتلأ بها قلبه تجاه من اتبع طريق النور ومن وقف في وجهها، فلم يكرههم لذواتهم بل لما يصدر عنهم من شر، وكم كانت فرحته عظيمة حين يستنير قلب من كان بالأمس عدوا ليصبح وليا، بل إنه كان يرى أن المحن التي مر بها من نفي وسجن ومحاكمات كان لها وجه إيجابي حيث كانت سببا لنشر رسائل النور(٢).

الموقف من قتل الأطفال الأرمن

وكما اتخذ الأستاذ النورسي ﵀ منهج السلام والمحبة في داخل المجتمع الإسلامي فقد اتخذ الرحمة منهجا في التعامل مع أشد الخصوم، وأكثرهم إيذاء للمسلمين وذلك في الحرب التي شارك فيها الأرمن ضد العثمانيين في شرق تركيا، وكان الأستاذ النورسي ﵀ قائدا لفريق من الأنصار المتطوعين الذين يعينون الجيش، ولننظر كيف قابل جرائم الأرمن بحق أطفال المسلمين وكيف

(١) الشعاعات ٤٣٩ وانظر منهج الأستاذ الذي بينه في الدرس الأخير لطلابه الذي سماه: العمل الإيجابي البناء، فهو تجل واضح للشفقة سيرة ذاتية ٤٦٩.
(٢) انظر: سيرة ذاتية ٤٧٣.

استطاع بمنهج الإحسان أن يحقن دماء الأطفال لدى الطرفين:

"كان الفدائيون الأرمن يذبّحون أطفال المسلمين في عدد من المناطق وكان المسلمون يقابلونهم بالمثل في ذبح أطفال الأرمن. ولكن ما إن جُمع ألوف من أطفال الأرمن في المنطقة التي كانت تحت إمرة بديع الزمان حتى أمر الجنود: لا تتعرضوا لهؤلاء الأطفال بشيء. ثم أطلق سراحهم جميعاً دون أن يمس أحدهم بسوء، فعادوا إلى عوائلهم التي كانت خلف الخطوط الروسية. هذا السلوك كان درساً قيماً وعبرة للأرمن مما دفعهم إلى الإعجاب بأخلاق المسلمين.

وعلى إثر هذه الحادثة تخلى فدائيو الأرمن عن عادتهم في ذبح أطفال أهالي القرى التي احتلتها القوات الروسية حيث قالوا: إن ملا سعيد لم يذبح أطفالنا بل سلّمهم إلينا فنحن كذلك نفعل بأطفال المسلمين مثله. فتعاهدوا على ذلك. أي إن بديع الزمان أصبح سبباً في إنقاذ الآلاف من الأطفال الأبرياء من كلا الجانبين[(١)].

لم يحكّم الأستاذ النورسي رحمه الله شهوة القتل، ولم يمض على منهج المثل بالمثل في العداوة بل استل تلك العداوة من نفوس الأعداء بالإحسان الذي حقن دماء الأطفال الأبرياء من الطرفين وحقق نموذج المثل بالمثل في العفو والإحسان.

---

(١) سيرة ذاتية ص ١٢٦.

الموقف من الكوارث التي تصيب الكفار

قد لا نعجب حين نجد مما يشغل بال هذا الداعية الرحيم ما يصيب الكفار من الحوادث التي تنزل بهم البلاء وتصيب ضحايا، ومثلها ما ينتج عن الحروب من قتل ودمار ومآس.. نعم كان ذلك مما يشغل باله إضافة إلى ما شغله من هموم المسلمين التي كان قلبه ينشق لها. ويحس الأستاذ أن هناك ما أسماه بالشفقة المفرطة التي تتجاوز الحد وتتجاوز القرآن الكريم وتكذبه، ولنقرأ بتدبر قول الأستاذ:

"لما كانت شفقة الإنسان تجلِيا من تجليات الرحمة الربانية، لا ينبغي تجاوز درجة الرحمة الإلهية والمغالاة أكثر من رحمة من هو رحمة للعالمين ﷺ، فلو تجاوزها وغالى بها فإنها ليست رحمة ولا رأفة قط، بل هي مرض روحي وسقم قلبي يفضي إلى الضلالة والإلحاد.

فمثلا: إن الانسياق إلى تأويل عذاب الكفار والمنافقين في جهنم، وما يترتب على الجهاد وأمثالها من الحوادث - من جراء ضيق شفقة المرء عن استيعابه وعدم تحملها له - إنكار لقسم عظيم من القرآن الكريم والأديان السماوية وتكذيب له، وهو ظلم عظيم وعدم رحمة في منتهى الجور في الوقت نفسه؛ لأن حماية الوحوش الكاسرة والعطف عليها، وهي التي تمزق الحيوانات البريئة، غدر عظيم تجاه تلك الحيوانات البريئة، ووحشية بالغة نابعة من فقدان الوجدان والضمير"(١).

---

(١) الملاحق ١٢٣-١٢٤.

إذن لا تعاطف مع المجرمين ولا شفقة على الظالمين لأنهم ارتكبوا من الجرائم ما يستحقون عليه العقاب، وإن تكن شفقة أو تعاطف فليكونا مع الضحايا المظلومين:

"فالتعاطف إذن وموالاة أولئك الذين يبيدون حياة ألوف المسلمين الأبدية ويمحونها، ويسوقون مئات المؤمنين إلى سوء العاقبة بدفعهم إلى ارتكاب الذنوب والخطايا، والدعاء لأولئك الكفار والمنافقين، رحمةً بهم وعطفاً عليهم لينجوا من العقاب الشديد، لاشك إنه ظلم عظيم وغدر شنيع تجاه أولئك المؤمنين المظلومين. إن البلاء عندما ينزل بالمستحقين له، يُبتلى به الأبرياء أيضاً. وعندها لا يمكن عدم الرأفة بهم. إلاّ أن هناك رحمة خفية لأولئك الأبرياء المظلومين الذين تضرروا من ذلك البلاء النازل بالجناة"[1].

ويضرب لنا الأستاذ مثلا من نفسه وشفقته على ضحايا الحرب العالمية الأولى من المسلمين وما كان له من مخرج خلصه من ذلك العذاب النفسي:

"ولقد كنت - في وقت ما في الحرب العالمية الأولى - أتألم كثيراً من المظالم والقتل الذي يرتكبها الأعداء تجاه المسلمين ولاسيما تجاه أطفالهم وعوائلهم، وكنت أتعذّب عذاباً يفوق طاقتي - لما فيّ من شفقة مفرطة ورأفة متزايدة - وحينها ورد على القلب فجأة الآتي:

إن أولئك الأبرياء المقتولين يُستشهدون ويصبحون أولياء صالحين، وإن

---

(١) الملاحق ١٢٤.

حياتهم الفانية تُبدل إلى حياة باقية، وإن أموالهم الضائعة تصبح بحكم الصدقة فتبدل إلى أموال باقية. بل حتى لو كان أولئك المظلومون كفاراً فإن لهم من خزينة الرحمة الإلهية مكافآت بالنسبة لهم كثيرة - مقابل ما عانوا من البلاء في الدنيا - بحيث لو رفع ستار الغيب فإن ما ينالونه من رحمة ظاهرة يدفعهم إلى أن يلهجوا بـ: الشكر لله والحمد لله،عرفت هذا، واقتنعت به قناعة تامة، ونجوت بفضل الله من الألم الشديد الناشئ من الشفقة المفرطة"[1].

ويزيد الأستاذ الأمر وضوحا في حديث عن مصير الأبرياء من الكفار في البلايا، ونجد الشفقة الإيمانية لديه تلتمس للضحايا الأبرياء من الكفار ما ينجون به من النار ولنقرأ ما يكتبه القلب الرحيم وما ينبض به من المحبة للإنسانية المعذبة:

"لقد مسّ مسّاً شديداً مشاعري وأحاسيسي المفرطة في الرأفة والعطف ما أصاب الضعفاء المساكين من نكبات وويلات ومجاعات ومهالك من جراء هذه الطامة البشرية التي نزلت بهم وفي هذا الشتاء القارس... ولكن على حين غرة نُبّهتُ إلى أن هذه المصائب وأمثالها ينطوي تحتها نوع من الرحمة والمجازاة - حتى على الكافر - بحيث يهوّن تلك المصيبة، فتظل هينة بسيطة بالنسبة إليهم. وأصبح هذا التنبيه مرهماً شافياً لإشفاقي المؤلم على الأطفال والعوائل في أوروبا وروسيا.

---

(١) الملاحق ١٢-١٢٥.

"ونجد من الأستاذ تحليلا وتفصيلا لهؤلاء المنكوبين فمن كان منهم لم يبلغ الحلم فهم في حكم الشهداء، لأنهم لم يبلغوا سن التكليف، ومن جاوز ذلك العمر ولكنه لم يبلغه أمر الإسلام بلوغا يقيم عليه الحجة فحاله كحال أهل الفترة، يرجى له النجاة، أما الظالمون المجرمون بحق البشرية فهم أهل للعذاب الأليم في نار جهنم:

"نعم، إن الذين نزلت بهم هذه الكارثة العظمى - التي ارتكبها الظالمون - إن كانوا صغاراً وإلى الخامسة عشرة من العمر، فهم في حكم الشهداء، من أيّ دين كانوا. فالجزاء المعنوي العظيم الذي ينتظرهم يهوّن عليهم تلك المصيبة.

أما الذين تجاوزوا الخامسة عشرة من العمر، فإن كانوا أبرياء مظلومين، فلهم جزاء عظيم ربما ينجيهم من جهنم، لأن الدين- ولاسيما الإسلام - يُستر بستار اللامبالاة في آخر الزمان، وإن الدين الحقيقي لسيدنا عيسى عليه السلام سيحكم ويتكاتف مع الإسلام، فيمكن القول بلا شك أن ما يكابده المظلومون من النصارى المنتسبين إلى سيدنا عيسى عليه السلام والذين يعيشون الآن في ظلمات تشبه ظلمات "الفترة" وما يقاسونه من الويلات تكون بحقهم نوعاً من الشهادة. ولاسيما الكهول وأهل النوائب والفقراء والضعفاء المساكين الذين يقاسون النكبات والويلات تحت قهر المستبدين والطغاة الظالمين.

وقد بلغتني من الحقيقة: أن تلك النكبات والويلات كفارة بحقهم من الذنوب المتأتية من سفاهات المدنية وكفرانها بالنعم ومن ضلالات الفلسفة وكفرها، لذا فهي أربح لهم مئة مرة. وبهذا وجدتُ السلوان والعزاء من ذلك

الألم المعذب النابع من العطف المتزايد، فشكرتُ الله شكراً لا نهاية له.

أما أولئك الظالمون الذين يسعّرون نار تلك الفتن والنكبات، أولئك السفلة من شياطين الإنس والجبابرة الطغاة الذين ينفذونها إشباعاً لمنافعهم الشخصية، فهم يستحقون ذلك العذاب المهين، فهو بحقهم عدالة ربانية محضة" (١).

وشتان بين من يحمل هم البشرية ومصيرها الأبدي ويتمنى أن ينجو أكبر عدد من الناس من العذاب الأليم، ويلتمس لهم سبل النجاة، ومن همه الأكبر أن يقضي على الناس بالكفر والفسوق ويدخلهم النار أفواجا.

الموقف من غير المسلمين وطريقة دعوتهم

منذ نزل الإسلام صارت أمة المسلمين نائبة عن رسول الله ﷺ في تبليغ الدين للعالمين. وقد أدى الجيل الأول الرسالة وبلغ الأمانة التي حملها، وفعلت مثل ذلك أجيال تالة وبذلك انتشر الإسلام. ولكن المسلمين حين تخلفوا صاروا حجابا بين الناس والدين الذي حملوا أمانة تبليغه، ولذلك يرى الأستاذ النورسي ﵀ أن أحسن وسيلة لنشر الدين هي الرقي المادي الذي يحافظ فيه المسلمون على دينهم ويحسنون به تقديمه إلى العالمين في صورة مشرقة بشهادة واقعهم. ويرفع الأستاذ شعارا رائعا في وصف دعاة الإسلام بأنهم "فدائيو المحبة" (٢) وهو شعار يدل دلالة رائعة على مخزون الشفقة على البشرية والرغبة

(١) الملاحق ١٤٦-١٤٧.

(٢) صيقل الإسلام ٥٢٧.

في هدايتها.

يقول الأستاذ مبينا وظيفة المؤمنين في هذا العصر:

"كل مؤمن مكلف بإعلاء كلمة الله وأعظم وسيلة لإعلاء كلمة الله في زماننا هذا هو الرقي المادي. إذ الأجانب يسحقوننا تحت تحكمهم المعنوي بسلاح العلوم والصنائع ونحن سنجاهد بسلاح العلم والتقنية الجهلَ والفقرَ والخلاف الذي هو ألد أعداء إعلاء كلمة الله" (١).

وفي هذا الزمان الذي فتحت فيه أبواب الدعوة إلى الله أمام المسلمين في الأرض يرى الأستاذ أن الجهاد المطلوب لنشر الدين ليس الجهاد بالسيف بل بالبراهين القاطعة التي تكشف نور الإسلام:

"أما الجهاد الخارجي فنحيله إلى السيوف الألماسية للبراهين القاطعة للشريعة الغراء. لأن الغلبة على المدنيين إنما هي بالإقناع وليس بالإكراه كما هو شأن الجهلاء الذين لا يفقهون شيئاً" (٢).

لقد أرسل رسولنا محمد ﷺ الرسائل لملوك الأرض في زمانهم ودعاهم إلى الإسلام لكنهم وقفوا من الدين موقف العهداء وصدوا شعوبهم عن إدراك نور الإيمان، فما دامت أبواب الدعوة مفتوحة فنشر الإسلام يكون يالبيان والبرهان لا بالسيف والسنان، لأننا نريد مؤمنين يقبلون على الدين طواعية لا منافقين يبدون الإيمان ويبطنون الكفر إن أكرهوا على الإسلام .

---

(١) المصدر السابق.

(٢) صيقل الإسلام ٥٢٧.

وفي حديث الأستاذ النورسي رحمه الله عن الاتحاد المحمدي الذي يضم بلاد المسلمين يلتفت إلى غير المسلمين في بلاد الإسلام ويطمئنهم أنهم لن يجبروا على اعتناق الإسلام بل ستتم دعوتهم بالإقناع لا بالإكراه، ويلتفت إلى المسلمين المتفلتين من الدين الذين يظنون بذلك أنهم ينالون حظوة عند الأجانب فيبين لهم حقيقة ما يفعلون، يقول الأستاذ في بيان هذا الأمر:

"مشرب هذا الاتحاد هو: المحبة، وعدوه: الجهل والضرورة والنفاق.

وليطمئن غير المسلمين بأن اتحادنا هو الهجوم على هذه الصفات الثلاث ليس إلاّ. وبالنسبة إليهم فسبيلنا الاقناع لأننا نعتقدهم مدنيين. وإننا مكلفون بأن نظهر الاسلام بمظهر الجمال والحسن المحبوب. لأننا نظن فيهم الإنصاف". ألا فليعلم المهملون غير المكترثين أنهم لا يحببون أنفسهم بالانسلاخ من الدين لأي أجنبي كان. وإنما يظهرون أنهم على غير هدى ليس إلاّ"[1].

ويكرر الأستاذ هذا الأمر في شأن دعوة غير المسلمين بأنه يقوم على الإقناع لا الإكراه وتقديم النموذج الإسلامي المشرق، وتاريخ الإسلام لم يشهد ما شهده التاريخ الأوربي من محاكم التفتيش التي استأصلت الإسلام من الأندلس:

"أما جهل الأجانب بالإسلام في القرون الوسطى، فالإسلام مع اضطراره إلى معاداة الجهل والهمجية إلاّ أنه قد حافظ على العدالة والاستقامة معهم

---

(١) صيقل الإسلام ٥٢٩ –٥٣٠.

فلم يُرَ في التاريخ الإسلامي أمثال محاكم التفتيش. ولما قوي ساعد المدنيين في زمن التحضر هذا فقد زال عنهم ذلك التعصب الذميم.

إن الظهور على المدنيين من منظور الدين إنما هو بالإقناع وليس بالإكراه. وبإظهار الإسلام محبوباً وسامياً لديهم وذلك بالامتثال الجميل لأوامره وإظهار الأخلاق الفاضلة" [١].

الأستاذ النورسي رحمه الله والكائنات غير البشرية:

لم تقتصر رحمة الإسلام على البشر وحدهم بل شملت الكائنات غير البشرية، ولو نظرنا في حياة الأستاذ النورسي رحمه الله لرأينا تجليات الرحمة والشفقة والمحبة تشمل كائنات غير بشرية من حشرات وحيوانات وطير، ولم يكن ذلك أمرا عارضا في حياته بل هو منهج متبع. بل هاهو أحد طلبته يروي صورة رائعة عن علاقة الأستاذ بالكون: أحيائه وجماداته، ذلك الكون الذي رآه كتابا دعا طلبته إلى مطالعته: "عندما كان الأستاذ يتجول في السهول الممتدة على مد البصر وبين المروج المزدهرة بالأثمار والأزهار، كان يتصفح كتاب الكون المنظور بنظراته الدقيقة الواعية ويقرأ ما وراءه من معان ورموز، كمن يقرأ كتاباً مفتوحاً بين يديه بكل اهتمام وذوق، وكان يقول لنا في أثناء ذهابنا وإيابنا في السيارة:

---

(١) صيقل الإسلام ٥٣٥، وانظر ص ٥٠٠.

- أأنتم تطالعون كتاب الكون ايضاً؟

كان للاستاذ علاقة متينة مع المخلوقات ويشفق كثيراً جداً على الأشجار والحيوانات بل حتى على الأحجار أيضاً"(١).

ومما يذكر في هذا المجال من باب التمثيل لا الاستقصاء رحمته بالنمل، وله في هذا المجال مواقف متعددة، ولنستمع إلى رواية شاهد من طلابه يروي لنا رحمة الأستاذ بالنمل حيث لم يرض أن يبني طلابه بيتا يؤوي الأستاذ ويؤويهم من الشتاء على حساب النمل بل كان يكرم النمل الذي يظهر في ذلك البيت بعد بنائه ولنستمع ولنعجب من هذه الرحمة الغامرة:

"بدأ الجو يبرد شيئاً فشيئاً حيث الشتاء مقبل ونحن لازلنا على جبل أرك، كنا نتوقع هطول أمطار غزيرة وتساقط الثلوج بكثرة وكان المكان الذي نبقى فيه هو على شكل ربوة او مرتفع صغير، فأراد الأستاذ ان نبني غرفة. فبدأنا ببناء الغرفة على هذا المرتفع، وعندما حفرنا الأساس وجدنا مملكة للنمل، ولما رأى الأستاذ النمل أمرنا بالتوقف. فسألناه عن السبب. قال:

- هل يجوز بناء بيت بهدم بيت آخر؟ لا تخربوا بيوت هذه الحيوانات. احفروا في مكان آخر غيره.

فبدأنا نحفر في مكان آخر فوجدنا مملكة أخرى ايضاً للنمل. وحفرنا ثالثة فوجدنا نفس الشيء. وهكذا تكررت العملية ثلاث مرات. فسألني أحد

(١) سيرة ذاتية ٥٣٤.

الطلاب الذي كان يساعدني في هذا العمل:

- هل سيستمر الأمر هكذا؟ علينا أن نحفر في مكان ما فإذا ظهر النمل واريناه التراب لئلا يراه الأستاذ ومن بعد ذلك نستمر بالحفر، وإلا فسوف نظل إلى العشاء ولما نقم بشيء، فليس في هذه المنطقة شبر إلا وفيها مملكة للنمل.

وعلى كل حال بنينا غرفة صغيرة للاستاذ هناك، فكان الأستاذ كلما يرى النمل ويشاهد مملكته في الغرفة يقدم له البرغل والسكر وفتات الخبز.

فسألناه عن سبب تقديمه السكر للنمل فأجابنا ضاحكاً:

- فليكن السكر شاياً لهم!"(١).

بل إن الأستاذ كان يؤثر النمل ببعض طعامه الخاص، وكان يعلل ذلك بإعجابه بنظام حياة النمل وإدارتها لحياتها الذي وصفه بالنظام الجمهوري القائم على التعاون لا على الاستبداد، وها نحن نقرأ رواية الأستاذ في هذا الشأن:

"كنت آنذاك منزوياً - كحالي الآن - تحت قبة خالية، فكانوا يأتون لي بالحساء، وكنت أقوم بإعطاء حبات الحساء إلى النمل واكتفي بغمس الخبز في سائل الحساء. سألوني (في محكمة أسكي شهر) عن السبب فقلت: إن أمة النمل وكذلك النحل تعيش في نظام جمهوري، وأنا أعطي الحبات للنمل

---

(١) سيرة ذاتية ص٥٢٢.

احتراماً لنظامها الجمهوري"[١].

وتمتد رحمة الأستاذ ومحبته لتشمل القطط، هذه المخلوقات الجميلة الأليفة، بل إنه تواصل معها وفهم عنها تسبيحها وسمعه بأذنه، ولنقرأ هذا الموقف العجيب بتفاصيله الممتعة يرويه الأستاذ بنفسه:

"لاحظت القطط وتأملت فيها، فرأيت أنها بعدما اكلت ولعبت، نامت. فورد إلى ذهني سؤال: لِمَ يُطلق على هذه الحيوانات الشبيهة بالمفترسة، حيوانات مباركة طيبة؟ ثم في الليل اضطجعت لأنام وإذا بقطة من تلك القطط جاءت واستندت إلى مخدتي وقرّبت فمها إلى أذني، وذكرت الله ذكراً صريحاً باسم: "يا رحيم.. يا رحيم.. يا رحيم "وكأنها ردّت ما ورد من الاعتراض والإهانة باسم طائفتها. فورد إلى عقلي: تُرى هل إن هذا الذكر خاص بهذه القطة فقط أم بطائفة القطط عامة؟ وإن استماع ذكرها، هل هو خاص بي ومنحصر لمعترض بغير حق مثلي أم أن كل إنسان يستطيع الاستماع - إلى حد - لو أعار سمعه إليها؟ وفي الصباح بدأتُ أنصت إلى القطط الأخرى، كانت تكرر الذكر نفسه بدرجات متفاوتة وإن لم يكن صريحاً مثل الأولى. إذ في بداية هريرها لا يتميز هذا الذكر ثم يمكن تمييز: يا رحيم .. يا رحيم.. في الهرير، ثم يتحول هريرها كله إلى: يا رحيم نفسه. فتذكر الله ذكراً حزيناً فصيحاً دون إخراج للحروف حيث تسد فمها وتذكرالله ذكراً لطيفاً بـــ: يا رحيم.

---

(١) سيرة ذاتية ٥٤.

ذكرتُ الحادثة نفسها إلى الذين أتوا لزيارتي، وهم بدورهم بدأوا يلاحظون الأمر. ثم قالوا: نسمع الذكر إلى حدٍ ما، ثم ورد بقلبي: ما وجه تخصيص هذا الاسم: يارحيم؟ ولِمَ تذكر القطط هذا الاسم بالذات بلهجة لسان الإنسان ولا تذكره بلسان الحيوانات. فورد: أن القط حيوان رقيق لطيف كالطفل الصغير، يختلط مع الإنسان في كل زاوية من مسكنه، حتى كأنه صديقه فهو محتاج إذن إلى مزيد من الشفقة والرحمة. فعندما يُلاطف ويستأنس به يحمد تاركاً الأسباب - بخلاف الكلب - ومعلناً في عالمه الخاص رحمة خالقه الرحيم، فيوقظ بذلك الذكر الإنسان السادر في نوم الغفلة وبنداء "يارحيم" ينبه عَبَدة الأسباب قائلاً: ممن يَرِدُ المدد والعون وممن يتوقع الرحمة[1]؟" بل إن الأستاذ كان يجد بركة في رزقه ردها إلى وجود القطط التي وصفها بأنها مباركة[2].

ولم تقتصر رحمة الأستاذ وشفقته ومحبته على هذه الحيوانات فحسب بل امتدت إلى الكلاب والسلاحف والأرانب والطيور وكان يوجه النصائح للصيادين ألا يروعوها ولا يؤذوا غيرها من الكائنات بأصوات بنادقهم، وكان بعض الصيادين الهواة يستجيب لنصحه فيترك الصيد[3].

هذه لمحات من حياة الأستاذ النورسي ﵀ تظهر جانبا من الرحمة والمحبة والشفقة والسلام في شخصيته، ووراء ذلك الكثير مما لم أذكره وذكرته سيرته

---

(١) الكلمات هامش ص٣٧٧ .

(٢) المكتوبات ص ٣٣٦-٣٣٧.

(٣) انظر سيرة ذاتية ص٥٣٤.

وشهود حياته، رحمه الله، ونفعنا بأنوار رسائل النور، وجعلنا من طلبة النور، وجمعنا به في مستقر رحمته.

نظرات في "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز"

"إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز" مما أنتجه الإمام بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله في الشطر الأول من عمره، ذلك الذي أطلق عليه لقب: سعيد القديم.

وقد احتفظ به الأستاذ النورسي رحمه الله وجعله ضمن رسائل النور، وقد علل ذلك بقوله في وصف ظروف تأليفه وبيان الحالة النفسية عند التأليف:

"لقد تم تأليف تفسير إشارات الإعجاز في السنة الأولى من الحرب العالمية الأولى على جبهة القتال بدون مصدر أو مرجع. وقد اقتضت ظروف الحرب الشاقة وما يواكبها من حرمان أن يُكْتب هذا التفسير في غاية الإيجاز والاختصار لأسباب عديدة.

وقد بقيت الفاتحة والنصف الأول من التفسير على نحو أشد إجمالا واختصارا:

أولا: لأن ذلك الزمان لم يكن يسمح بالإيضاح، نظراً إلى أن (سعيداً القديم) كان يعبّر بعبارات موجزة وقصيرة عن مرامه.

ثانيا: كان (سعيد) يضع درجة إفهام طلبته الأذكياء جداً موضع الاعتبار. ولم يكن يفكر في فهم الآخرين .

ثالثا: لما كان يبيّن أدق وأرفع ما في نظم القرآن من الإيجاز المعجز، جاءت

العبارات قصيرة ورفيعة.

بيد أنني أجَلت النظر فيه الآن بعين (سعيد الجديد). فوجدت أن هذا التفسير بما يحتويه من تدقيقات، يعدّ بحق تحفة رائعة من تحف (سعيد القديم) بالرغم من أخطائه وذنوبه.

ولما كان (اي سعيد القديم) يتوثب لنيل مرتبة الشهادة أثناء الكتابة، فيكتب ما يعنّ له بنية خالصة، ويطبق قوانين البلاغة ودساتير علوم العربية، لم أستطع أن أقدح في أي موضع منه، إذ ربما يجعل الباري عز وجل هذا المؤلَّف كفارة لذنوبه ويبعث رجالاً يستطيعون فهم هذا التفسير حق الفهم"[١].

كان الأستاذ النورسي رحمه الله يرى أن هذا الزمان زمان الاجتهاد الجماعي في الفقه وكذلك في التفسير، وأن القرآن في عصرنا بحاجة إلى هيئة من العلماء ذوي الاختصاصات المتنوعة تجتمع وتعد تفسيرا يكشف كنوز كتاب الله[٢].

ويبدو أنه لما لم يجد لهذه الفكرة تحقيقا وكان كما ذكر في النص السابق في الجبهة المقاومة للغزو الروسي في الحرب العالمية الأولى سنحت له في القرآن الكريم أذواق وأفهام سجّلها وهو في تلك الجبهة، ولم يشغله الجهاد عن تدبر آيات القرآن الكريم، ولم يذهله القتال عن استحضار المعاني الدقيقة التي يحتاج فهمها إلى قلب حاضر وعقل واع متدبر. فكتب تفسيره لا ليكون بديلا

---

(١) ص ١٧ – ١٨.

(٢) انظر ص ٢٠.

للتفسير الجماعي بل ليكون وجها من أوجه فهم القرآن[١].

ولعل الوقوف على عنوان التفسير: "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز" يشير إلى دقة نظر الأستاذ الذي سعى إلى بيان الإعجاز النظمي للقرآن بالوقوف على مواطن الإيجاز فيه، وذلك ما بينه الأستاذ في حديثه عن التفسير بقوله: " يبيّن أدق وأرفع ما في نظم القرآن من الإيجاز المعجز"[٢].

ولم تفارق الأستاذ النورسي رحمه الله فكرة التفسير الجماعي حتى بعد سنوات طويلة من تأليفه لتفسيره وعودته إليه بعد أن كتب رسائل النور بل إنه لينظر إلى مستقبل تستفيد فيه هيئة من منهج رسائل النور في تفسير القرآن وتتابع ما بدأه الأستاذ في الإشارت لتتم تفسيرا للقرآن يضم أوجه الإعجاز المختلفة وذلك ما جاء في مقدمته:

" كانت النيّة تتجه إلى أن يكون هذا الجزء وقفاً على توضيح الإعجاز النظمي من وجوه إعجاز القرآن، وأن تكون الأجزاء الباقية كل واحد منها وقفاً على سائر أوجه الإعجاز.

ولو ضمت الأجزاء الباقية حقائقَ التفسير المتفرقة في الرسائل لأصبح تفسيراً بديعاً جامعاً للقرآن المعجز البيان.

ولعل الله يبعث هيئة سعيدة من المنورين تجعل من هذا الجزء ومن

(١) انظر ص ٢٠-٢١ وانظر شهادة الشيخ صدر الدين يوكسل البدليسي.

(٢) ص ١٧.

الكلمات والمكتوبات الست والستين، بل المائة والثلاثين من أجزاء رسائل النور مصدراً، وتكتب في ضوئه تفسيراً من هذا القبيل"[1].

ومن أوائل ما يلفت نظر الدارس لهذا التفسير هذا التعريف غير المسبوق للقرآن الكريم، إنه ليس تعريفا تقليديا بل تعريف تذوقي ناتج عن انفتاح كنوز القرآن له، وتنزهه في رياضه، وغوصه في بحاره، وتحليقه في آفاقه، ولننظر في هذا التعريف :

(وقفة مع تعريفه للقرآن)

"فإن قلت: القرآن ما هو؟

قيل لك: هو الترجمةُ الأزلية لهذه الكائنات،

والترجمانُ الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية،

ومفسّرُ كتاب العالَم..

وكذا هو كشافٌ لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض..

وكذا هو مفتاحٌ لحقائق الشؤون المضْمَرة في سطور الحادثات..

وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة..

وكذا هو خزينةٌ للمخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية..

---

(١) ص ١٨.

وكذا هو أساسٌ وهندسةٌ وشمسٌ لهذا العالم المعنوي الإسلامي..

وكذا هو خريطةٌ للعالم الأُخروي..

وكذا هو القولُ الشارح والتفسيرُ الواضح والبرهان القاطع والترجمان الساطع لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه..

وكذا هو مربٍّ للعالم الإنساني، وكالماء وكالضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية..

وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد المهدي إلى ما خُلِقَ البشرُ له..

وكذا هو للإنسان: كما أنه كتابُ شريعةٍ كذلك هو كتاب حكمةٍ، وكما أنه كتابُ دعاء وعبودية كذلك هو كتابُ أمرٍ ودعوة، وكما أنه كتابُ ذكرٍ كذلك هو كتابُ فِكر، وكما أنه كتابٌ واحد لكن فيه كتبٌ كثيرةٌ في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية،

كذلك هو كمنزل مقدسٍ مشحون بالكتب والرسائل . حتى إنه قد أبرز لمشْرَب كلٍّ واحدٍ من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كلٍّ واحدٍ من أهل المسالك المتباينة من الأولياء والصديقين ومن العرفاء والمحققين رسالةً لائقةً لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره حتى كأنه مجموعة الرسائل"[1].

(١) ص ٢٢.

مقاصد التفسير

وقد بين الأستاذ النورسي رحمه الله مقصده من التفسير في أمرين هما :

الأول بيان الإعجاز النظمي "إن مقصدنا من هذه الإشارات تفسير جملة من رموز نظْمِ القرآن؛ لأن الإعجاز يتجلى من نظمه. وما الإعجاز الزاهر إلاّ نقشُ النظم

والآخر ربط آيات القرآن بمقاصده الأربعة: التوحيد والنبوة والحشر والعدالة وجلائها في كل آية منه[1].

منهج التفسير

ومنهج الأستاذ في تفسيره أنه يربط بين الآية ومجمل القرآن الكريم، والآيات المتجاورة، ويقف على العلاقات بين أجزاء الآية الواحدة في جملها ويسميها الهيئات. وهو في هذا المنهج يستحضر القرآن الكريم بسوره كما يستحضر السورة بآياتها، ويستحضر الآية بجملها بل يقف مع كلماتها وحروفها، ويقف موقف المحلل للجمل والآيات والحروف ليصل إلى أن كل حرف وكلمة وجملة جاءت في موضعها ولا يغني عنها سواها بأي وجه. ومن أمثلة ذلك:

---

(١) انظر ص ٢٣-٢٤.

" ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

وجه النظم: أنهما إشارتان إلى أساسَي التربية؛ إذ "الرحمن" لكونه بمعنى الرزاق يلائم جلب المنافع؛ و"الرحيم" لكونه بمعنى الغفار يناسب دفع المضار وهما الأساسان للتربية.

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم الحشر والجزاء.

وجه النظم: أنه كالنتيجة لسابقه؛ إذ الرحمة من أدلة القيامة والسعادة الأبدية؛ لأن الرحمة إنما تكون رحمةً، والنعمة نعمةً إذا جاءت القيامة وحصلت السعادة الأبدية. وإلاّ فالعقلُ الذي هو من أعظم النِعَم يكون مصيبةً على الإنسان، والمحبة والشفقة اللتان هما من ألطف أنواع الرحمة تتحولان ألماً شديداً بملاحظة الفراق الأبدي

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ في "الكاف" نكتتان:

إحداهما: تضمن الخطاب بسر الالتفات للأوصاف الكمالية المذكورة، إذ ذكرها شيئاً شيئاً يحرّك الذهن ويُعدّه ويملأُهُ شوقاً ويهزه للتوجه إلى الموصوف. فـ ﴿إِيَّاكَ﴾ أي: يا من هو موصوف بهذه الصفات.

والأخرى: أن الخطاب يشير إلى وجوب ملاحظة المعاني في مذهب البلاغة ليكون المقروء كالمُنْزَل، فينجر طبعاً وذوقاً إلى الخطاب. فـ﴿إِيَّاكَ﴾

يتضمن الامتثال بـ(اعْبُدْ رَبَّكَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ).

والتكلم مع الغير في ﴿نَعْبُدُ﴾ لوجوه ثلاثة:

أي نعبد نحن معاشر أعضاء وذرّات هذا العالم الصغير - وهو أنا - بالشكر العرفي الذي هو إطاعة كلٍ لما أُمر به.. ونحن معاشر الموحّدين نعبدك بإطاعة شريعتك.. ونحن معاشر الكائنات نعبد شريعتك الكبرى الفطرية ونسجد بالحيرة والمحبة تحت عرش عظمتك وقدرتك.

وجه النظم: أن ﴿نَعْبُدُ﴾ بيان وتفسير لـ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ ونتيجة ولازم لـ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

واعلم! أن تقديم ﴿إِيَّاكَ﴾ للإخلاص الذي هو روح العبادة. وأن في خطاب الكاف رمزاً إلى علة العبادة لأن من اتصف بتلك الأوصاف الداعية إلى الخطاب استحق العبادة[1].

مثال آخر على ربط المعاني من خلال النظم: بربط الآيات ببعضها وربط الجمل داخل الآية الواحدة:

" ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾

اعلم! أن وجه نظم المحصل مع المحصل انصباب مدح القرآن إلى مدح المؤمنين وانسجامه به؛ إذ إنه نتيجة له، وبرهان إنّيّ عليه، وثمرة هدايته،

(١) ٢٨ – ٣٠.

وشاهد عليه. وبسبب تضمن التشويق إشارة إلى جهة حصة هذه الآية من الهداية، وإلى أنها مثال لها.

أما وجه﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ فتشييع التخلية بالتحلية التي هي رفيقتها أبداً؛ إذ التزيين بعد التنزيه، ألا ترى أن التقوى هي التخلي عن السيئات وقد ذكرها القرآن بمراتبها الثلاث، وهي: ترك الشرك، ثم ترك المعاصي، ثم ترك ماسوى الله. والتحلية فعل الحسنات: إما بالقلب أو القالب أو المال. فشمس الأعمال القلبية "الإيمان"، والفهرستة الجامعة للأعمال القالبية "الصلاة" التي هي عماد الدين، وقطب الأعمال المالية "الزكاة" إذ هي قنطرة الإسلام .

اعلم! أن ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ مع أنه إذا نظرت إلى مقتضى الحال إيجاز، إلا أنه إذا وازنت بينه وبين مرادفه وهو "المؤمنون" تظنه إطنابا؛ فأبدل "ال" بـ"الذين" الذي من شأنه الإشارة إلى الذات بالصلة فقط، كأنه لاصفة له إلا هي للتشويق على الإيمان، والتعظيم له؛ والرمز إلى أن الإيمان هو المنار على الذات قد تضاءلت تحته سائر الصفات.. وأبدل "مؤمنون" بـ "يؤمنون" لتصوير وإظهارِ تلك الحالة المستحسنة في نظر الخيال، وللإشارة إلى تجدده بالاستمرار وتجلّيه بترادف الدلائل الآفاقية والأنفسية، فكلما ازدادت ظهوراً ازدادوا إيمانا.

﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾أي بالقلب، أي بالإخلاص بلا نفاق. ومع الغائبية.. وبالغائب .. وبعالم الغيب[1].."

(١) ص ٥٠.

ومما قاله في استخدام القرآن الكريم "يقيمون الصلاة" بدل يصلون:

"وإنما لم يقتصر في مسافة الإيجاز على "يصلّون" بل أتمها بـ (يقيمون الصلاة) للإشارة إلى أهمية مراعاة معاني "الإقامة" في الصلاة من تعديل الأركان، والمداومة، والمحافظة، والجد، وترويجها في سوق العالم. تأمل"[1].

التحليل اللفظي المعنوي الدقيق:

يمتلك الأستاذ النورسي رحمه الله قدرة فائقة على تذوق الكلام وإدراك مراميه وتحليل معانيه، ومن ذلك هذا النوذج المتكرر في التفسير للتحليل اللغوي الدقيق وذلك في وقوفه على قوله تعالى:

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

وجه النظم: أنه كما أن الصلاة عماد الدين وبها قوامه؛ كذلك الزكاة قنطرة الإسلام وبها التعاون بين أهله.

ثم إن من شروطه أن تقع الصدقة موقعها اللائق:

أن لا يسرف المتصدق فيقعد ملوماً.. وأن لايأخذ من هذا ويعطي لذاك؛ بل من مال نفسه.. وأن لايمنّ فيستكثر.. وأن لايخاف من الفقر.. وأن لايقتصر على المال، بل بالعلم والفكر والفعل أيضا.. وأن لايصرف الآخذ في السفاهة، بل في النفقة والحاجة الضرورية.

فلإِحسان هذه النكت، وإحساس هذه الشروط تصدَّق القرآن على

---

(١) ص ٥٢.

الأفهام بإيثار ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ على "يتصدقون" أو "يزكّون" وغيرهما؛ إذ أشار بـ "من" التبعيض إلى رد الإسراف.. وبتقديم (مما) إلى كونه من مال نفسه.. وبـ"رزقنا" إلى قطع المنة. أي: أن الله هو المعطي وأنت واسطة.. وبالإسناد إلى "نا" إلى: «لاَتَخَفْ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلاَلاً» .. وبالإطلاق إلى تعميم التصدق للعلم والفكر"[1].

ظواهر أسلوبية في منهج التفسير

ومن الظواهر الأسلوبية لدى الأستاذ النورسي رحمه الله في تفسيره استخدامه الحوار مع القارئ فيكثر أن تجد عنده أسلوب: "فإن قلت ...قيل لك"

كما أنه يكثر من صيغة الأمر: اعلم. وكأنه في الأسلوب الأول يتوقع ما سيخطر ببال القارئ فيحاور أفكاره المتوقعة، وفي الأسلوب الثاني يقدم للقارئ ما اكتشفه من المعاني والأذواق مما لا يثير لديه أسئلة.

مقدمات لتفسير بعض الآيات

ومما يلفت النظر في هذا التفسير الاستطراد في بحث عدد من الأمور التي تحتاج إلى تفصيل قبل الدخول في التفسير، وقد يعنون لتلك القضية بعنوان: (مقدمة) وقد تأتي من غير هذاالعنوان، ومن ذلك حديثه عن شبهة التكرار والرد عليها:

"إن قلت: إن في القرآن الموجز المعجز أشياء مكررة تكراراً كثيراً في الظاهر

---

(١) ص ٥٣.

كالبسملة و"فبأي آلاء" الخ.. و"ويل يومئذ" الخ.. وقصة موسى وأمثالها، مع أن التكرار يُمِلُّ وينافي البلاغة.

قيل لك: "مَا كُلُّ مَا يَتَلألأُ يُحْرِقُ" فإن التكرار قد يُمِلُّ، لا مطلقاً. بل قد يُستحسن وقد يُسأم. فكمَا أن في غذاء الإنسان ما هو قُوت كلما تكرر حلا وكان آنس، وما هو تفكّه إن تكرر مُلَّ وإن تجدد اُستُلِذّ، كذلك في الكلام ما هو حقيقة وقوت وقوّة للأفكار وغذاء للأرواح كلما استعيد استحسن واستؤنس بمألوفه كضياء الشمس. وفيه ماهو من قبيل الزينة والتفكه، لذتُه في تجدّد صورتِه وتلوّن لباسه.

إذا عرفت هذا فاعلم! أنه كما أن القرآن بمجموعه قوتٌ وقوّة للقلوب لايُمَلُّ على التكرار بل يُستحلى على الإكثار منه، كذلك في القرآن ما هو روح لذلك القوت كلما تكرر تلألأ وفارت أشعة الحق والحقيقة من أطرافه، وفي ذلك البعض ماهو أسّ الأساس والعقدة الحياتية والنور المتجسد بجسدٍ سرمدي كـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. فيا هذا شاور مذاقك إن كنت ذا مذاق!..

هذا بناء على تسليم التكرار، وإلاّ فيجوز أن تكون قصة موسى مثلا مذكورة في كل مقامٍ لوجهٍ مناسب من الوجوه المشتملة هي عليها. فإن قصة موسى أجدى من تفاريق العصا أخذَها القرآن بيده البيضاء فضةً فصاغتها ذهباً، فخرت سحرةُ البيان ساجدين لبلاغته(١).

---

(١) ص٣٩" وانظر عددا من المقدمات في موضوعات متنوعة: ص٤٥، ٧٩، ١١٧، ١٤٧، ١٥٦،

ومن هذه المقدمات ما جاء من الحديث عن معجزة آدم عليه السلام في مقدمة تحدثت حديثا رائعا عن معجزات الأنبياء وأثرها في تاريخ البشرية:

"**مقدمة**

اعلم! أن هذه معجزة آدم تحدِّيت بها الملائكة بل معجزة نوع البشر في دعوى الخلافة. إن في القصَصَ لعبراً. ثم إني نظراً إلى أن ﴿**وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ**﴾ ومستنداً إلى أن التنزيل كما يفيدك بدلالاته ونصوصه؛ كذلك يعلّمك بإشارته ورموزه، لأفهمُ من إشارات أستاذية اعجاز القرآن الكريم في قَصَص الأنبياء ومعجزاتهم التشويقَ والتشجيعَ للبشر على التوسل للوصول إلى أشباهها. كأن القرآن بتلك القصص يضع أصبعه على الخطوط الأساسية ونظائر نتايج نهايات مساعي البشر للترقي في الاستقبال الذي يُبنى على مؤسسات الماضي الذي هو مرآة المستقبل. وكأن القرآن يمسح ظهر البشر بيد التشويق والتشجيع قائلا له: اسع واجتهد في الوسائل التي توصلك الى بعض تلك الخوارق! أفلا ترى أن الساعة والسفينة أول ما أهدتهما للبشر يد المعجزة. وان شئت فانظر إلى ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ وإلى ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ وإلى ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ ﴾ أي

٢٣١.

النحاس" وإلى ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ وإلى ﴿وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ﴾!. ثم تأمل فيما مخّضه تلاحق أفكار البشر واستنبطه من ألوف فنونٍ ناطقٍ. كل منها - بخواص وصفات وأسماء - نوع من أنواع الكائنات حتى صار البشر مظهر ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾ ثم فيما استخرجه فكر البشر من عجائب الصنعة من السكّة الحديدية والآلة البرقية وغيرهما بواسطة تليين الحديد وإذابة النحاس حتى صار مظهر ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴾ الذي هو أمّ صنائعه، وفيما أفرخه أذهان البشر من الطيّارات التي تسير في يوم شهراً حتى كاد أن يصير مظهر ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾، وفيما ترقى إليه سعى البشر من اختراع الآلات والعصي التي تضرب في الأرض الرملة اليابسة فتفور منها عين نضّاخة وتصير الرملة روضة حتى أوشك أن يصير مظهر ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ ﴾، وفيما أنتجه تجارب البشر من خوارق الطب التي طفق أن تبرئ الأكمه والأبرص والمزمن بإذن الله.. تر مناسبة تامة تصح لك أن تقول تلك مقائسها، وذكرها يشير إليها ويشجع عليها..

وكذا انظر إلى قوله تعالى ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا﴾ وإلى ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ ﴾ أي صورة يعقوب عاضا على أصبعه في رواية، وإلى ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾ وإلى ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ وإلى ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾

وإلى ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ وأمثالها، ثم تأمل فيما كشفه البشر من مرتبة النار التي لاتحرق ومن الوسائط التي تمنع الإِحراق، وفيما اخترعه من الوسائل التي تجلب الصور والأصوات من مسافات بعيدة وتحضرها إليك قبل أن يرتد إليك طرفك، وفيما أبدعه فكر البشر من الآلات الناطقة بما تتكلم، وفي استخدامه لأنواع الطيور والحمامات وقس عليها، لترى بين هذين القسمين ملاءمة يحق بها أن يقال في هذه رموز إلى تلك. وكذا تأمل في خاصية المعجزة الكبرى التي هي خاصية الناطقية التي هي خاصية الإنسانية وهي الأدب والبلاغة، ثم تدبر في أن أعلى ما يربِّي روح البشر وألطف ما يصفِّي وجدانه وأحسن ما يزيِّن فكره وأبسط ما يوسِع قلبه إنما هو نوع من الأدبيات. ولأمر مّا ترى هذا النوع أبسط الفنون وأوسعها مجالا وأنفذها وأشدها تأثيراً وألصقها بقلوب البشر حتى كأنه سلطانها. فتأمل[1]!..".

تشقيق المعاني وتقليب الاحتمالات مما يدل على عقلية ضخمة نهمة للتأمل والتدبر:

وتلمس في إشارات الإعجاز قدرة عجيبة لدى الأستاذ على تفتيق المعاني في تدبره للقرآن الكريم وتصفح الأوجه المحتملة في الفهم للآية والكلمة، وانظر في حديثه عن البسملة:

"وكذا في "البسملة" جهات: من الاستعانة والتبرك والموضوعية بل الغايتية والفهرستية للنقط الأساسية في القرآن.

(١) ٢٣٨ - ٢٤٠.

وأيضا فيها مقامات: كمقام التوحيد ومقام التنزيه ومقام الثناء ومقام الجلال والجمال ومقام الإحسان وغيرها.

وأيضا فيها أحكام ضمنية: كالإشارة إلى التوحيد والنبوة والحشر والعدل أعني المقاصد الأربعة المشهورة، مع أن في اكثر السور يكون المقصود بالذات واحداً منها، والباقي استطراديا. فلِمَ لايجوز أن يكون لجهة أو حُكمٍ أو مقام منها مناسبة مخصوصة لروح السورة وتكون موضوعاً للمقام بل فهرستة إجمالية باعتبار تلك الجهات والمقامات[1]؟ ".

وكذلك حديثه عن ﴿الٓمٓ﴾ في مطلع سورة البقرة :

﴿الٓمٓ﴾:

"اعلم أن ﴿الٓمٓ﴾ كقرع العصا يوقظ السامعَ ويهزُّ عِطفه بأنه - بغرابته - طليعةُ غريبٍ وعجيبٍ.

وفي هذا المبحث أيضاً لطائف:

منه: أن التهجي وتقطيع الحروف في الاسم إشارة إلى جنس ما يتولد منه المسمى.

ومنه: أن التقطيع إشارة إلى أن المسمى واحد اعتباريّ لا مركب مزجي.

ومنه: أن التهجي بالتقطيع تلميح إلى إراءة مادة الصنعة؛ كإلقاء القلم

---

(١) ص ٤٠.

والقرطاس لمن يعارضك في الكتابة. كأن القرآن يقول: "أيها المعاندون المدّعون أنكم أمراء الكلام، هذه المادة التي بين أيديكم هي التي أصنع فيها ما أصنع".

ومنه: أن التقطيع المرمز إلى الإهمال عن المعنى يشير إلى قطع حجتهم بـ "إنّا لانعرف الحقائق والقصص والأحكام حتى نقابلك". فكأن القرآن يقول: "لا أطلب منكم إلاّ نظم البلاغة فجيئوا به مفتريات".

ومنه: أن التعبير عن الحروف بأسمائها من رسوم أهل القراءة والكتابة ، ومن يسمعون منه الكلام أمّيّ مع محيطه، فنظراً إلى السجية - مع أن أول ما يتلقاهم خلاف المنتظر - يرمز إلى: "أن هذا الكلام لايتولد منه بل يُلقى إليه".

ومنه: أن التهجي أساس القراءة ومبدؤها فيومئ إلى أن القرآن مؤسس لطريق خاص ومعلم لأمّيين.

ومن لم ير نقشاً عالياً من انتساج هذه الخيوط - وإن دقّ البعض- فهو دخيل في صنعة البلاغة فليقلّد فتاوى أهلها"(١).

ثم يقول وهو يبحر وينقب ويدقق في دلالات ﴿الٓمٓ﴾:

"إن ﴿الٓمٓ﴾ يرمز ويشير ويومئ ويُلَوِّح ويلَمِّح بالقياس التمثيلي المتسلسل إلى: "أن هذا كلام الله الأزلي نزل به جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام". لأنه كما أن الأحكام المفصلة في مجموع القرآن قد ترتسم في سورة طويلة إجمالا؛ وقد تتمثل سورة طويلة في قصيرة إشارة؛ وقد تندرج سورة

(١) ص ٤٢.

قصيرة في آية رمزاً؛ وقد تندمج آية في كلام واحد تلويحاً؛ وقد يتداخل كلام في كلمة تلميحاً، وقد تتراءى تلك الكلمة الجامعة في حروف مقطعة، كـ"سين لام ميم".. كالقرآن في البقرة، والبقرة في الفاتحة، والفاتحة في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ و﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في البسملة المنحوتة كذلك يجوز ذلك في ﴿الٓمٓ﴾ أيضا.

فبالاستناد إلى هذا القياس التمثيلي المتسلسل، وبإشارة (ذلك الكتاب) يتجلى من ﴿الٓمٓ﴾: "هذا كلام الله الأزلي نزل به جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام".

ومنه: أن الحروف المقطعة كالشفرة الإلهية أبرقها إلى رسوله الذي عنده مفتاحها. ولم يتطاول يدُ فكر البشر إليه بعد.

ومنه: أن ﴿الٓمٓ﴾ إشارة إلى شدة ذكاوة المنزَل عليه رمزاً إلى أن الرمز له كالتصريح.

ومنه: أن التقطيع إشارة إلى أن قيمة الحروف ليست في معانيها فقط بل بينها مناسبات فطرية كمناسبة الأعداد، كشَفَها علم أسرار الحروف.

ومنه: أن ﴿الٓمٓ﴾ خاصة، إشارة بالتقطيع إلى المخارج الثلاثة من الحلق والوسط والشفة، وترمز تلك الإشارة إلى إجبار الذهن للدقة، وشق حجاب

الأُلفة؛ ليلجأ إلى مطالعة عجائب ألوان نقش خلقة الحروف[١].

ومما قاله من أسرار ودقائق ﴿الٓمٓ﴾: "إن ﴿الٓمٓ﴾ مع أخواتها لما برزت بتلك الصورة كانت كأنها تنادى: "نحن الائمة؛ لا نقلد أحداً وما اتبعنا إماماً، وأُسلوبنا بديع، وطرزنا غريب.

وفيه لطائف:

منه: أن من ديدن الخطباء والفصحاء التأسي بمثال والنسج على منوال والتمشي في طريق مسلوكة، مع أنها لم يطمثهن قبله إنس ولا جان"[٢].

حكم الأحكام والعلاقات الاجتماعية:

ونجد الأستاذ يقف مع بعض الآيات يتلمس ما فيها من المنافع الاجتماعية في المجتمع الإسلامي، فتفسيره لم يقتصر على النظم والربط بين الآيات والتحليل اللغوي فحسب بل تعدى ذلك إلى منافع وفوائد متنوعة ومن ذلك حديثه عن الزكاة:

"نعم! في وجوب الزكاة وحرمة الربا" حكمة عظيمة، ومصلحة عالية، ورحمة واسعة؛ إذ لو أمعنت النظر في صحيفة العالم نظراً تاريخياً وتأملت في مساوي جمعية البشر لرأيت أسّ أساس جميع اختلالاتها وفسادها، ومنبع كل الأخلاق الرذيلة في الهيئة الاجتماعية كلمتين فقط:

---

(١) ص ٤٣.

(٢) ص ٤٤.

إحداهما: "إنْ شَبِعْتُ فلا عليَّ أن يموتَ غيرِي من الجُوعِ".

والثانية: "اِكْتَسِبْ أنْتَ لآكُلَ أنا. واتْعَبْ أنتَ لأَستريحَ أَنا".

فالكلمة الأولى الغدارة النَهِمَة الشنعاء هي التي زلزلت العالم الإنسانيَّ فأشرف على الخراب. والقاطعُ لعرق تلك الكلمة ليس إلاّ "الزكاة".

والكلمة الثانية الظالمة الحريصة الشوهاء هي التي هارت بترقّيات البشر فأوشك أن تنهار بها في نار الهَرْج والمَرْج. والمستأصِلُ والدواء لتلك الكلمة ليس إلاّ "حرمة الربا". فتأمل!..

اعلم! أن شرط انتظام الهيئة الاجتماعية أن لا تتجافى طبقات الإنسان، وأن لاتتباعد طبقةُ الخواص عن طبقة العوام، والأغنياء عن الفقراء بدرجة ينقطع خيط الصلة بينهم. مع ان بإهمال وجوب الزكاة وحرمة الربا انفرجت المسافة بين الطبقات، وتباعدت طبقات الخواص عن العوام بدرجة لا صلة بينهما، ولا يفور من الطبقة السفلى إلى العليا إلاّ صدى الاختلال، وصياح الحسد، وأنين الحقد والنفرة بدلا عن الاحترام والإطاعة والتحبب، ولا يفيض من العليا على السفلى بدل المرحمة والإحسان والتلطيف إلاّ نار الظلم والتحكم، ورعد التحقير. فأسفاً!.. لأجل هذا قد صارت "مزيةُ الخواص" التي هي سبب التواضع والترحم سبباً للتكبّر والغرور. وصار "عجزُ الفقراء" و"فقرُ العوام" اللذان هما سببا المرحمة عليهم والإحسان اليهم سبباً لأسارتهم وسفالتهم.. وإن شئت شاهداً فعليك بفسادِ ورذالةِ حالة العالم المدنيّ، فلك فيه شواهد كثيرة. ولا ملجأ للمصالحة بين الطبقات والتقريب بينها إلاّ جعل

الزكاة - التي هي ركن من اركان الإسلامية - دستوراً عالياً واسعاً في تدوير الهيئة الاجتماعية"[١].

(١) ٥٤ – ٥٥.

التماس العذر لاختلاف المفسرين

نجد الأستاذ النورسي رحمه الله يلتمس العذر للمفسرين في اختلاف أفهامهم واستنطاقهم لآيات للقرآن الكريم ويبين أسباب ذلك الاختلاف:

"إن قلت: من شأن الهداية والبلاغة البيان والوضوح وحفظ الاذهان عن التشتت، فما بال المفسرين في أمثال هذه الآية (الثانية من البقرة) اختلفوا اختلافاً مشتتاً، واظهروا احتمالات مختلفة، وبينوا وجوه تراكيب متباينة، وكيف يعرف الحق من بينها؟

قيل لك: قد يكون الكل حقاً بالنسبة إلى سامعٍ فسامعٍ؛ إذ القرآن ما نزل لأهل عصرٍ فقط بل لأهل جميع الأعصار، ولا لطبقة فقط بل لجميع طبقات الإنسان، ولا لصنف فقط بل لجميع أصناف البشر. ولكلٍ فيه حصة ونصيب من الفهم. والحال أن فهم نوع البشر يختلف درجة درجة.. وذوقَه يتفاوت جهة جهة.. وميلَه يتشتت جانباً جانباً.. واستحسانه يتفرق وجهاً وجهاً.. ولذته تتنوع نوعاً نوعاً.. وطبيعته تتباين قسما قسما. فكم من أشياء يستحسنها نظرُ طائفة دون طائفة، وتستلذها طبقة ولا تتنزل إليها طبقة. وقس!..

فلأجل هذا السر والحكمة أكْثَرَ القرآنُ من حذف الخاص للتعميم ليقدِّر كلٌ مقتضى ذوقه واستحسانه. ولقد نظم القرآن جُمَله ووضعها في مكان ينفتح من جهاته وجوه محتملة لمراعاة الأفهام المختلفة ليأخذ كلُ فهمٍ حصته. وقس!.. فإذاً يجوز أن يكون الوجوه بتمامها مرادة بشرط أن لا تردها علوم العربية، وبشرط أن تستحسنها البلاغة، وبشرط أن يقبلها علم أصول مقاصد

الشريعة.

فظهر من هذه النكتة أن من وجوه إعجاز القرآن نظمه وسبكه في أسلوب ينطبق على أفهام عصر فعصر.. وطبقة فطبقة[١].

تتبع مواضع الإعجاز و الإيجاز:

وإذا وقفنا على عنوان التفسير وجدنا أن مقصده الواضح فيه هو الإشارة إلى الإعجاز في مواطن الإيجاز، وهذا ما نجده واضحا في مواضع التفسير، ومن ذلك قوله في تفسير: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾

"قال: ولن تفعلوا، فرمز إلى الإعجاز بثلاثة أوجه.

أحدها: الإخبار بالغيب وكان كما أخبر. ألا ترى أن الملايين من الكتب العربية مع التمايل إلى تقليد أسلوب التنزيل وكثرة المعاندين لو فتشتها؛ لم يوافقه شيء منها. كأن نوعه منحصر في شخصه. فإما هو تحت الكل وهو باطل بالاتفاق. فما هو إلا فوق الكل.

والوجه الثاني: أن القطع والجزم بعدم فعلهم مع التقريع عليهم وتحريك أعصابهم في هذا المقام المشكل وفي هذه الدعوى العظيمة علامة صادقة على أنه واثق أمين مطمئن بماله ومقاله.

---

(١) (ص ٤٩).

والوجه الثالث: أن القرآن كأنه يقول: إذا كنتم أمراء الفصاحة وأشد الناس احتياجاً إليها ولم تقتدروا لم يقتدر عليه البشر. وكذا فيه إشارة إلى أن نتيجة القرآن التي هي الإسلامية كما لم يقتدر على نظيرها الزمان الماضي؛ كذا يعجز عن مثلها الزمان المستقبل[1]."

شهادتان في إشارات الإعجاز:

لم يلق تفسير إشارات الإعجاز الاهتمام الذي يستحقه من الباحثين والدارسين، وربما منشأ ذلك أمور منها: شيوع قيامه على فكرة النظم واقتصاره على الجانب البلاغي، مما يزهد غير المهتمين بالبلاغة فيه، والنظم بعض ما فيه ، ففيه كنوز تفتحت في رسائل النور، وفيه بعض ما رأيناه في هذا البحث المتواضع من جوانب مختلفة تتعلق بالقرآن الكريم مضمونا وأسلوبا، وربما كان من عوامل الزهد في هذا التفسير لغته العالية، وبحثه دقائق من العلم لا يصبر على سبر أغوارها العامة بل الخاصة. وبين يدي شهادتان من أهل العلم نشرتا مع التفسير، والإطلالة على ما قسيهما تلقي أضواء على جوانب منه.

(١) ص ١٨٣.

شهادة الشيخ صدر الدين يوكسل البدليسي، مما قاله:

"**خلاصة القول:** إن في عباراته عذوبة وحلاوة وطلاوة بديعة وتدقيقاً خارقاً جداً في تحليل آي الوحي المنزّل. إنه بين جهة مناسبة الآيات بعضها ببعض، وتناسب الجمل وتناسقها، وكيفية تجاوب هيآت الجمل وحروفها حول المعنى لمراد معتمداً في ذلك على أدق قواعد علم البلاغة وعلى أصول النحو والصرف وقوانين المنطق ودساتير علم أصول الدين وسائر ما له علاقة بذلك من مختلف العلوم. حتى إنه ليبحث عن أخفى مناسبات البلاغة الذي لا يكشف عادة بالمجهر المعنوي المركز في الدماغ البشري".

وقد ذكر الشيخ من مميزات هذا التفسير أن منهج الأستاذ لم يسبقه إليه أحد:

"وهو رغم أنه وليد فكرٍ واحد إلا أنه فريد في بابه لم ينسج للآن على منواله أي تفسير لأنه يستجلي ويكشف الإعجاز المكنون في نظم الكتاب المجيد بطريقة عجيبة مخترعة لم نرها ولم نصادفها فيما عثرنا عليه من مشهور التفاسير المتداولة كتفسير "أبي السعود" و"الفخر الرازي" و"البيضاوي" وتفسير الأستاذ المرحوم "الشيخ طنطاوي جوهري" الذي أفاض وأسهب فيه وبين كثيرا من العلوم المختلفة التي تشير إليها الآيات الكونية"[1].

(١) ص ٣٤٥ من إشارات الإعجاز.

شهادة الدكتور محسن عبد الحميد:

ومن أبدى رأيا في إشارات الإعجاز الدكتور محسن عبد الحميد الذي كتب مقدمة للتفسير، ومما جاء فيها:

"وكأني بالأستاذ النورسي رحمه الله درس نظرية النظم هذه دراسة متقنة ثم ظهر له ان المفسرين الذين سبقوه كالزمخشري والرازي وأبي السعود لم يحاولوا تطبيقها من حيث هي منظومة متكاملة تشمل ترتيب السور والآيات والألفاظ سورة بعد سورة وآية بعد آية ولفظا بعد لفظ، بتفاصيلها الكاملة فأراد أن يقتدي بهؤلاء المفسرين العظام فيؤلف تفسيراً يطبق فيه نظرية النظم تطبيقاً تفصيلياً شاملاً من حيث المباني والمعاني ومن حيث المعارف اللغوية والعقلية والذوقية، الكلية منها والجزئية، والتي اعتمد عليها في الكشف عن تفاصيل المنظومة القرآنية التي بها يظهر الإعجاز، وتتكشف دقائق خصائص الأسلوب القرآني التي خالفت خصائص التعبير العربي البليغ قبله، والتي حيرت البلغاء وأخرست الفصحاء، ليحق عليهم التحدي المعجز إلى يوم القيامة ولم تتوجه جهود النورسى الى بيان نظرية النظم، مقدمة لاثبات إعجاز القرآن البلاغي فحسب، بل اتجهت كذلك إلى التغلغل في معاني الآيات، حيث أراد بناءها تفصيلاً على المرتكزات العقلية للوصول إلى إظهار العقائد الإسلامية وارتباطها بحقائق الوجود"[١].

ويرى الدكتور محسن أن تحول الأستاذ النورسي رحمه الله عن إتمام تفسير

---

(١) إشارات الإعجاز ص٧.

القرآن على نهج (الإشارات) إلى نهج رسائل النور كان أكثر فائدة، لأن إشارات الإعجاز تضمن التحقيق في جزئيات دقيقة لا يقوى على فهمها إلا الخواص جداً. وكان من المؤكد حينئذ ان يبقى الجمهور الأعظم من المسلمين في عصره بمعزل عن الاستفادة من مواهبه الفذة وحماسه الإيماني المنقطع النظير، وكذلك بمعزل عن الصراع الفكري الحضاري الرهيب غير المتكافئ مع الغزو الفكري المادي الجاحد، الذي بدأ يتسلل رويداً رويداً إلى الحياة الإسلامية حتى تصدر السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة والفن والإعلام في كثير من بلاد الإسلام. من أجل ذلك، وقف النورسى عند هذا المجلد من التفسير، ودفعته ظروف عصره وبلده إلى أتون الصراع، ولكن في قالب جديد ممثلا بـسعيد الجديد سمتُه الهدوء، والتدرج، والبناء، والنفوذ المحكم إلى عقول المسلمين وقلوبهم دون صراخ عاطفي أو تهريج مدمر، أو صدامات فوقية، لم يكن الوضع الإسلامي يومئذ مهيئا لها ويقوى فيها على مجابهة الأعداء الأقوياء في الداخل والخارج. لقد كان أسلوب رسائل النور في وضوحه الحاسم، وهدوئه العلمي الباهر، وبيانه الذوقي الرفيع، وحججه العقلية الدامغة هو البديل العصري الذكي لأسلوب إثبات إعجاز القرآن اللغوي والبياني والعقلي من خلال نظرية النظم، لأن ما أثاره الأعداء لم يكن يتصل بالطعن في بلاغة القرآن أو مناقشة ما يتعلق بإعجازه أو بتناسب سوره وآيه وكلماته. وإنما كان يركز على شن هجوم عام شامل على أصول الإيمان، وحكمة التشريعات، ومحاولة تفكيك النظام الأخلاقي الذي جاء به القرآن

الكريم[(١)].

التصوف في مرآة رسائل النور

إن مما يلفت النظر في الناس ميلهم إلى تصنيف العلماء والدعاة وفق ما هو متداول في عصرهم من العناوين والاتجاهات والمذاهب والفرق، فإذا ذكر عالم أو داعية سارعوا إلى السؤال عنه، من أي الاتجاهات هو؟ أصوفي أم سلفي؟ أأشعري أم ماتريدي أم من أهل الفقه أوالحديث؟!

وهذا التصنيف في بعض الأحيان قد يتحول إلى حجاب بين الناس والانتفاع من علم عالم أو فكره لأنهم إن صنفوه في اتجاه مغاير لما هم عليه أغلقوا عقولهم وقلوبهم دون علمه وما منّ الله تعالى عليه من أنوار المعرفة.

وهذه الظاهرة التي أتحدث عنها لمستها في السنوات القليلة الماضية التي عرفت فيها رسائل النور والأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي ﵀، فعدد لا بأس به ممن اطلعوا على رسائل النور اطلاعا سطحيا، مع ما عند بعضهم من معلومات غير وافية عن الأستاذ النورسي ﵀ ورسائل النور سارعوا فقالوا عن الرسائل: إنها كتاب صوفي! وصنفوا الأستاذ النورسي ﵀ في باب المتصوفة.

ولم يقتصر الأمر على النظرة العجلى والحكم المتسرع بل وجدت،

---

(١) ص٧-٨.

ومازال الأمر مستمرا، من يسعى إلى ربط رسائل النور والأستاذ النورسي رحمه الله بالتصوف، وقد عقدت في مصر عام ٢٠٠٦ ندوتان حول هذا الموضوع إحداهما بالتعاون بين كلية أصول الدين والدعوة في الزقازيق ومركز دراسات رسائل النور في إستانبول، عنوانها: التصوف ورسائل النور للنورسي (صدرت بحوث الندوة في كتاب عن دار سوزلر للنشر بعنوان: التصوف ورسائل النور للنورسي ط١ عام ٢٠٠٦).

والأخرى بالتعاون مع رابطة الأدب الإسلامي العالمية من خلال مكتبها الإقليمي في القاهرة وعنوانها: ضوابط السلوك الصوفي في فكر النورسي، (وصدرت البحوث المقدمة للندوة عن دار سوزلر للنشر في كتاب بعنوان ضوابط السلوك الصوفي في فكر النورسي ط ١ عام ٢٠٠٦) وقد وجدنا في بعض البحوث التي قدمت في اللقاءين إصرارا على تصنيف الأستاذ النورسي رحمه الله في باب المتصوفة.

ومن أغرب ما قرأت في بيان علاقة الأستاذ النورسي رحمه الله بالتصوف ما قاله الباحث محمد عبد الشافي القوصي:

"إن الشيخ سعيد النورسي كان متصوفًا بالفعل، ومتدلهًا في التصوف... بل إننا إن أردنا أن ننصفه فإننا نقول: "لقد كان سعيد النورسى واحدًا من أبرز أعلام التصوف في القرن العشرين!!!"[١].

---

(١) ضوابط السلوك الصوفي ص٧٨.

بل بلغ به الأمر أن يقول:

"كان الشيخ سعيد النورسي رحمه الله، صوفيا رغم أنفه، حتى إذا نفى هو ذلك عن نفسه، أو حتى لو اعترض البعض على تصنيفه في سلك المتصوفة[١]،"!!!

ومما قالته الأخت الباحثة المتعمقة في رسائل النور خديجة النبراوي عن الإمام النورسي والتصوف:

" تصوف الإمام النورسى يتميز بالاعتدال الذي يوحد الأفكار" [٢].

"تصوف النورسي يجمع بين الشريعة والحقيقة " [٣].

وهذا غيض من فيض مما قيل في شأن علاقة الأستاذ النورسي رحمه الله والتصوف.

والغريب أن بعض الباحثين يغفلون ما قاله الأستاذ النورسي رحمه الله حول هذه المسألة في الرسائل ويسعون إلى التأويل والتعليل، واللف والدوران حول تلك الأقوال، ويتمسكون بظاهر من القول أو المصطلح الذي يرد في الرسائل، وينسون النبع الأول: القرآن الكريم الذي نهل منه الأستاذ وقدم رؤية جديدة مستمدة منه للسير والسلوك إلى الله تعالى.

هل كان الأستاذ النورسي رحمه الله صوفيا؟

(١) المصدر السابق ص ٨٧.

(٢) المصدر السابق ص ٦٧.

(٣) المصدر نفسه ص ٦٨.

وردت في السيرة الذاتية للأستاذ النورسي ﵀ إشارة سريعة غامضة تمسك بها من جعلوه منتميا إلى الصوفية، فقد ذكر الأستاذ تعليلا مفصلا لإطلاق اسم رسائل النور على مؤلفاته ومما ذكره: "وأستاذي في الطريقة النقشبندية: سيد نور محمد، وأستاذي في الطريقة القادرية: نور الدين" (١).

وقارئ سيرة الأستاذ لا يجد صدى واضحا للطريقة الصوفية في حياته، وهاهو يصرح بأن انشغاله بالعلم شغله عن التصوف: "وفي حوالي التاسعة من عمري وجميع الأهلين وأقاربي ينتسبون إلى الطريقة النقشبندية ويستمدون من شيخ مشهور هناك هو الغوث الخيزاني كنت على خلافهم أقول: أيها الشيخ الجيلاني أقرأ لك سورة الفاتحة جد لي ما ضيعته من جوز مثلاً أو أي شيء تافه آخر. وإنه لأمر عجيب، فوالله لقد أمدني الشيخ بدعائه وهمته ألف مرة. ولهذا ما قرأت من أوراد وأذكار طوال حياتي إلاّ وأهديتها أولاً إلى حضرة الرسول الأعظم ﷺ ثم إلى الشيخ الجيلاني. وعلى الرغم من أنني منتسب إلى الطريقة النقشبندية بثلاث جهات فإن محبة الطريقة القادرية ومشربها يجري فيّ حكمه دون اختيار مني. إلاّ أن الانشغال بالعلم كان يعيق الاشتغال بالطريقة الصوفية" (٢).

ويظهر أثر العلم في تلك المحاورة التي جرت بين الأستاذ وأخيه الملا عبد الله حول منزلة شيخ أخيه الصوفي في نفسه، ومما ورد في تلك المحاورة قوله:

---

(١) سيرة ذاتية ٢٣٦ .

(٢) سيرة ذاتية ص ٤١.

"وأهل الطرق الصوفية لا يرون بأساً في الإفراط في حب مرشدهم والمبالغة في حسن الظن بهم، بل يرضون بهذا الإفراط والمبالغة"(١)، وهذا كلام لا يقوله مريد صوفي منخرط في التصوف بل عالم واع ينظر إلى الصوفية من خارجها . والشخصية الأبرز للأستاذ النورسي في صباه وشبابه كما تبدو من السيرة الذاتية هي شخصية المتعطش للعلم المبرز فيه، وشخصية الساعي إلى إقامة العدل على قدر طاقته في مجتمعه، أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر.

حس سابق بظهور الرسائل

إن مما يلفت النظر أن الأستاذ النورسي رحمه الله أشار في النص السابق إلى انتسابه إلى طريقتين صوفيتين: القادرية والنقشبندية، ويبدو لي أن هذا الانتساب كان شكليا ظاهريا من خلال بعض من تلقى عنهم العلم وكان لهم انتساب لتلكما الطريقتين ومن خلال أسرته. ولكن الأستاذ رحمه الله كان وهو في سن مبكرة أكبر من سنه مدركا واقع عصره متطلعا إلى هدف عال لم يكن يدرك ملامحه أول الأمر وكان أبعد من طموح مريد سالك في طريقة صوفية، يبدو ذلك في وصفه لنفسه في سن مبكرة، واكتشافه لسر تلك الحالة بعد ظهور رسائل النور:

"كنت أحمل حالة روحية تتسم بالفخر والاعتزاز، يوم كنت في العاشرة من عمري، بل حتى أحياناً بصورة حب للمدح والثناء. فكنت أتقلد طور بطل عظيم ورائد كبير وصاحب عمل عظيم خلاف رغبتي، فكنت أقول

---

(١) سيرة ذاتية ٤٨ – ٤٩.

لنفسي:

ما هذا الظهور والاختيال ولاسيما في الشجاعة، وأنت لا تساوي شروى نقير؟ فكنت حائراً وجاهلاً بالجواب. ولكن منذ شهرين، أجيبت تلك الحيرة، بأن رسائل النور كانت تُشعر بنفسها بحس مسبَق. أما أنت فلست إلاّ بذرة صغيرة لا تساوي شيئاً ولكن لإحساسك قبل الوقوع تعدّ تلك العناقيد الفردوسية رسائل النور كأنها ملكك، فتزهو وتتباهى.أما قريتنا نورس فإن أهلها و طلابي القدامى يعرفون: أن أهالينا كانوا يحبون المدح والثناء عليهم كثيراً لإظهارهم أنهم السابقون في الشجاعة والإقدام فيرغبون تقلّد طور البطولة وكأنهم قد فتحوا مملكة كبيرة.

فكنت أعجب من نفسي ومن طورها هذا. والآن عرفت السر بإخطار حقيقي: إن أولئك النورسيين، يتباهون لأن قريتهم نورس ستكسب فخراً عظيماً بنور رسائل النور. حتى إن الذين لم يسمعوا باسم الولاية والناحية سيعرفون تلك القرية باهتمام بالغ. فهؤلاء النورسيون يظهرون شكرانهم – بحس مسبق – لتلك النعمة الإلهية على صورة زهو وتباهٍ"[1].

وليس معنى ما أقوله أن الأستاذ النورسي رحمه الله كان عدوا للتصوف أو معارضا له، بل إنه كان محبا لأئمة التصوف الكبار وتتلمذ على كتب عدد منهم، وكان مقدرا للدور الذي قام به التصوف الصحيح في تاريخ الإسلام.

(١) سيرة ذاتية ٤١ –٤٢.

وفي مرحلة تحول الأستاذ النورسي رحمه الله من سعيد القديم إلى سعيد الجديد لم نجد لديه ما يدل على الانتماء إلى طريقة صوفية، وقد وجدناه بين يدي إمامين من أئمة الطرق الصوفية هما: الشيخ عبد القادر الكيلاني والإمام الرباني أحمد الفاروقي السرهندي، والملاحظ في تحول الأستاذ النورسي رحمه الله أنه لم يتخذ في مرحلة سعيد الجديد الانتساب إلى طريقة صوفية بل فتح الله عليه طريق رسائل النور .

وماذا نريد أكثر من أن يصرح الأستاذ نفسه مرة بعد أخرى أنه لم يكن صوفيا، قال ذلك عن نفسه وهو يبين منهجه بعدم قبول الهدية على مدى حياته كلها: "كنت أرفض قبول أموال الناس وهداياهم منذ نعومة أظفاري. فما كنت أتنازل لإظهار حاجتي للآخرين رغم انني كنت فقير الحال وفي حاجة إلى المال، وما كنت زاهداً ولا صوفياً ولا صاحب رياضة روحية"[(١)].

وقال ذلك وهو يتحدث إلى طلابه مبينا خصوصية نهج رسائل النور: "فيامَن يملّ تكاسلاً عن الكتابة ويا أيها الإخوة الذين ينحون منحى التصوف! إن حصيلة مفهومي الحديثين الشريفين هي أن درهماً مما يقطر من نور أسود وماء باعث للحياة من الأقلام المباركة الزكية لأولئك الذين يخدمون حقائق الإيمان وأسرار الشريعة والسنة النبوية الشريفة في مثل هذه الظروف يمكن أن يفيد كمائة درهم من دم الشهداء يوم الحشر الأكبر.

(١) سيرة ذاتية – ص: ٤٩١.

فاسعوا يا إخوتي لتظفروا بهذا الثواب العظيم"(١).

وقال في دفاعه عن نفسه رداً للشبهات وبياناً لحقيقة حاله موضحاً ذلك لأصدقائه وأهل الدنيا وأهل الحكم:

"إنني لست شيخاً صوفياً، وإنما أنا عالم ديني. والدليل على هذا، أنني لو كنت قد علّمت أحداً من الناس الطريقة الصوفية، طوال هذه السنوات الأربع التي قضيتها هنا، لكان لكم الحق في الارتياب والوقوع في الشكوك. ولكني لم أقل لمن أتاني إلاّ أن الزمان ليس زمان الطريقة. الإيمان ضروري، والإسلام ضروري(٢).

إن سيرة حياة الأستاذ وتتبع ملامح شخصيته يبينان أننا أمام شخصية كبيرة لا يقل ارتفاع قامتها عن قامات كبار أئمة التصوف بل إن حديثه عن التصوف وأئمته هو حديث الخبير الذي أحاط بما أحاطوا به، وامتلك مع ذلك بصيرة مكنته بنور القرآن الكريم وهدي السنة الشريفة أن يدرك جوانب من الإشكالات التي حيرت بعض العقول في حال بعض أئمة التصوف.

التصوف في ميزان الأستاذ النورسي رحمه الله:

تحدث الأستاذ النورسي رحمه الله عن التصوف حديث الخبير المنصف، فأنت تقرأ له فتجد نفسك أمام من يتحدث عن ذوق ومعرفة لا حديث عقل عن أمر افتراضي . ونجده في القسم التاسع من المكتوب التاسع والعشرين يلخص

(١) اللمعات ص: ٢٥٢.

(٢) المكتوبات ص: ٧٩.

موقفه من التصوف: طريقة وولاية، ويورد المواقف المتعددة من التصوف ويقف موقف المنصف، ويتحدث عن منزلقات في التصوف، ومؤاخذات على بعض من سلكوا طريق التصوف أو ادعوا السلوك فينقد نقد المحب لا المتحامل .

يعرف الأستاذ الطريقة والولاية ويبين مقامهما في الإسلام:

" **سؤال:** ما الطريقة؟

الجواب: إن غاية "الطريقة" وهدفها هو معرفة الحقائق الإيمانية والقرآنية، ونيلها عبر السير والسلوك الروحاني في ظل المعراج الأحمدي وتحت رايته، بخطوات القلب وصولا إلى حالة وجدانية وذوقية بما يشبه الشهود. فالطريقة والتصوف سر إنساني رفيع وكمال بشري سام.

أجل! لّما كان الإنسان خلاصة جامعة لهذا الكون، فإن قلبه بمثابة خريطة معنوية لآلاف العوالم، إذ كما أن دماغ الإنسان - الشبيه بمجمع مركزي للبث والاستقبال السلكي واللاسلكي - وهو بمثابة مركز معنوي لهذا الكون، يستقبل ما في الكون من علوم وفنون ويكشف عنها و يبثها أيضاً، فإن قلب الإنسان كذلك هو محور لما في الكون من حقائق لا تحد، ومظهر لها، بل هو نواتها. كما بيّن ذلك من لا يحصرهم العد من أهل الولاية فيما سطروه من ملايين الكتب الباهرة. فما دام قلب الإنسان ودماغه لهما هذه المنزلة والموقع، وقد أدرجت في القلب آلاف من مكائن أخروية ضخمة وأجهزتها الأبدية، كاندراج أجهزة الشجرة الضخمة في بذرتها، فإن فاطر ذلك القلب الذي

خلقه على هذه الصورة قد أراد تشغيل هذا القلب وتحريكه والكشف عن قدراته والانتقال به من طور "القوة" إلى طور "الفعل".

فما دام سبحانه وتعالى قد أراد هكذا، فعلى القلب إذن أن يقوم بعمله الذي خلق من أجله، كما يقوم العقل بعمله، ولا شك أن أعظم وسيلة لعمل القلب وتشغيله هو التوجه إلى الحقائق الإيمانية بالإقبال على ذكر الله ضمن مراتب الولاية عبر سبيل الطريقة "(١).

الذكر والتفكر

وللسير في الطريق إلى الله تعالى مفاتيح للقلب على الإنسان أن يتعامل معها بينها الأستاذ رحمه الله في التلويح الثاني بقوله:

"إن مفاتيح هذا السير والسلوك القلبي ووسائل التحرك الروحاني إن هي إلا "ذكر الله" و"التفكر" فمحاسن الذكر وفضائل التفكر لا تحصى. فلو صرفنا النظر عن فوائدهما الأخروية التي لا حد لها ونتائجهما في رقي الإنسانية إلى الكمالات، وأخذنا بنظر الاعتبار فائدة واحدة من فوائدهما الجزئية التي يعود نفعها على الإنسان "هذه الفائدة هي الأنس بالله أيا كان وفي أي مكان فهو: "يذوق معنى الأنس في هذه الحياة الإيمانية، ويلمس سعادة الحياة فيزداد شكره لربه"(٢).

ويبين الأستاذ منزلة الولاية والطريقة في الإسلام فيقول كلاما نفيسا

---

(١) المكتوبات ٥٧١-٥٧٢.

(٢) المكتوبات ٥٧٣.

يحتاج إلى تدبر عميق وفهم دقيق:

"إن الولاية حجة الرسالة، وإن الطريقة برهان الشريعة، ذلك لأن ما بلغته الرسالة من الحقائق الإيمانية تراها " الولاية " بدرجة " عين اليقين " بشهود قلبي وتذوق روحاني فتصدّقها، وتصديقها هذا حجة قاطعة لأحقية الرسالة.

وإن ما جاءت به "الشريعة" من حقائق الأحكام، فإن "الطريقة" برهان على أحقية تلك الأحكام، وعلى صدورها من الحق تبارك وتعالى بما استفاضت منها واستفادت بكشفياتها وأذواقها.

نعم، فكما أن "الولاية والطريقة "هما حجتان على أحقية "الرسالة والشريعة" ودليلان عليهما، فإنهما كذلك سر كمال الإسلام، ومحور أنواره، وهما معدن سمو الإنسانية ورقيها ومنبع فيوضاتها بأنوار الإسلام وتجليات أضوائه"[(١)].

وينظر الأستاذ فيجد من المسلمين من أهل السنة والجماعة من ينظر إلى سيئات بعض من سلكوا الطريقة أو ادعوا الولاية فيحكمون على سالكي طريق التصوف جميعا حكما جائرا يحرمون به أنفسهم وغيرهم ممن يتبعهم في الموقف من الخير، ويأتي موقف الأستاذ المنصف المبني على الوعي والعلم والخبرة، والمدرك لسبب ذلك الخلل الذي يبدو لدى بعض المتصوفة:

"إنه يندر أن يوجد في الأشياء أو في المناهج أو المسالك ما هو مبرأ من النقص والقصور، وأن تكون جوانبه كلها حسنة صالحة، فلا بد إذاً من

---

(١) المرجع السابق.

حدوث نقص وأخطاء وسوء تصرف، إذ ما دخل أمراً من ليسوا من أهله إلا أساؤوا إليه. ولكن الله تعالى يظهر عدالته الربانية في الآخرة على وفق موازنة الأعمال وتقويمها، برجحان الحسنات أو السيئات، فمن رجحت حسناته وثقلت، فله الثواب الحسن وتقبل أعماله، ومن رجحت سيئاته وخفت حسناته فله العقاب وتُردّ أعماله، علما أنه لا تؤخذ "كمية" الأعمال بنظر الاعتبار في هذه الموازنة مثلما ينظر إلى "النوعية". فربّ حسنة واحدة ترجح ألف سيئة بل قد تذهبها وتمحوها وتكون سبباً في إنقاذ صاحبها. فما دامت العدالة الإلهية تحكم على وفق هذا الميزان، وأن الحقيقة تراها عين الحق، فلا ريب أن حسنات الطريقة التي هي ضمن دائرة السنة المطهرة لهي أرجح من سيئاتها"(١).

ويمضي الأستاذ النورسي ﵀ في منهج الإنصاف للطريقة السوية القائمة على الكتاب والسنة مبرئا إياها من الأدعياء:

"لا يمكن أن تدان "الطريقة" ولا يحكم عليها بسيئات مذاهب ومشارب أطلقت على نفسها ظلماً اسم "الطريقة" وربما اتخذت لها صورة خارج دائرة التقوى بل خارج نطاق الإسلام"(٢).

ويكشف الأستاذ عن دور التصوف في حماية إيمان من سلكوا الطريقة لأن الإيمان في الطريقة ليس فكرة عقلية بل هو ذوق وعرفان يستعصي على كل

---

(١) المكتوبات ٥٧٣ – ٥٧٤.

(٢) المكتوبات ٥٧٤.

محاولات التشكيك التي يمكن أن تنجح مع صاحب الإيمان العقلي الذي لا رصيد لإيمانه في الذوق والشهود، ويبين الأستاذ دور الطريقة في المحافظة على الإيمان عبر قرون من الصراع بين الإسلام وأعدائه في الدولة العثمانية وفي العاصمة إستانبول خاصة:

"إن منتسباً اعتيادياً مخلصاً من أهل الطريقة يحافظ على نفسه أكثر من أي مدّع كان للعلم. إذ ينقذ إيمانه بما حصل عليه من الذوق الروحي في الطريقة وبما يحمله من حب تجاه الأولياء، فحتى بارتكابه الكبائر لا يكون كافراً وإنما يكون فاسقاً، إذ لا يلج صفوف الزندقة بيسر، وليست هناك قوة تستطيع أن تجرح ما ارتضاه من ولاء تجاه سلسلة أقطاب المشايخ الذين ارتبط بهم بمحبة شديدة واعتقاد جازم، وحيث إن الضلالة لا تستطيع أن تفند أو تفسد ما لديه من الثقة والاطمئنان بهم، فلن تحل ما لديه من الثقة والرضا بهم، ولن يدخل الكفر والإلحاد ما لم يفقد تلك الثقة بهم. فالذي ليس له حظ من الطريقة، ولم يشرع قلبه بالحركة، من الصعوبة بمكان - في هذا الوقت - أن يحافظ على نفسه محافظة تامة أمام دسائس الزنادقة الحاليين، ولوكان عالماً مدققاً.(...) فلو صرفنا النظر عن النتائج السامية التي تُوصل إليها الطريقة سواء منها الدينية أو الأخروية أو الروحية، ونظرنا فقط إلى نتيجة واحدة منها ضمن نطاق العالم الإسلامي نرى أن " الطريقة " هي في مقدمة الوسائل الإيمانية التي توسع من دائرة الأخوة الإسلامية بين المسلمين وتبسط لواء رابطتها المقدسة في أرجاء العالم الإسلامي. وقد كانت الطرق الصوفية وما زالت كذلك إحدى

القلاع الثلاث التي تتحطم على جدرانها الصلدة هجمات النصارى بسياساتهم ومكايد الذين يسعون لإطفاء نورالإسلام.. فيجب ألاّ ننسى فضل أهل الطرق في المحافظة على مركز الخلافة الإسلامية "إستانبول" طوال خمسمائة وخمسين سنة رغم هجمات عالم الكفر وصليبية أوروبا. فالقوة الإيمانية، والمحبة الروحانية، والأشواق المتفجرة من المعرفة الإلهية لأولئك الذين يرددون "الله.. الله.." في الزوايا والتكايا المتممة لرسالة الجوامع والمساجد، والرافدة لهما بجداول الإيمان حيث كانت تنبعث أنوار التوحيد في خمسمائة مكان، لتشكّل بمجموعها أعظم نقطة ارتكاز للمؤمنين في ذلك المركز الإسلامي"(١).

ومن إنصاف الأستاذ النورسي رحمه الله أنه بعد أن كشف كثيرا من الخلل الذي أصاب بعض المتصوفة، وبيّن المزالق التي وقعوا فيها، بعد ذلك كله أجمل ما للطريقة الصوفية من الفوائد التي قدمتها للمسلمين عبر العصور:

"نذكر هنا مجملاً تسع ثمرات من الثمار الوفيرة للطريقة وفوائدها:

الأولى: هي ظهور الحقائق الإيمانية وانكشافها ووضوحها إلى درجة عين اليقين بوساطة الطريقة الصحيحة المستقيمة. هذه الحقائق التي هي منابع خزائن أبدية وسعادة دائمة وكنوزها ومفاتيحها.

الثانية: هي تحقيق الوجود الحقيقي للإنسان بانسياق لطائفه جميعاً إلى ما خُلقت لأجله. وذلك بأن تكون الطريقة واسطة لتحريك قلب الإنسان الذي

---

(١) المكتوبات ٥٧٤ – ٥٧٥.

يعتبر مركزاً لجسمه ولولباً لحركته وتوجيهه إلى الله. فيندفع بهذا كثير من اللطائف الإنسانية إلى الحركة والظهور فتتحقق حقيقة الإنسان.

الثالثة: التخلص من وحشة الانفراد والوحدة في السير والسلوك، والشعور بالأنس المعنوي في الحياة الدنيا والبرزخ بالالتحاق بإحدى سلاسل الطريقة عند سيرها وتوجهها وسفرها نحو الحياة البرزخية ونحو الحياة الأخروية، وعقد أواصر الصداقة والمحبة بتلك القافلة النورانية في طريق أبد الآباد، فتندفع الأوهام والشبه عن النفس باستناد المريد إلى إجماعهم واتفاقهم باعتبار كل أستاذ مرشد حجة قوية وسنداً لا يضعف في دفع الأضاليل والأوهام التي ترد إلى الذهن.

الرابعة: وهي خلاص الإنسان من الوحشة الهائلة التي تكتنفه في حياته الدنيا، والانسلال من الغربة الأليمة التي يحسها إزاء الكون، وذلك بما تقوم به الطريقة الصائبة الصافية من تفجير ينابيع محبة الله ومعرفته في الإيمان. وقد سبق أن أثبتنا في كلمات عدة بأن سعادة الدارين، واللذة التي لايشوبها ألم، والأنس الذي لا تخالطه وحشة، والسعادة الحقيقية لا توجد إلا في حقائق الإيمان والإسلام التي تسعى الطريقة للوصول إليها كما أننا بينا في " الكلمة الثانية " بأن الإيمان يحمل بذرة شجرة طوبى في الجنة.نعم فبالتربية الموجودة في الطريقة تنمو تلك البذرة وتكبر.

الخامسة: الشعور بالحقائق اللطيفة في التكاليف الشرعية وتقديرها بوساطة القلب المنتبه بدوام ذكر الله، كما يعينه على ذلك المنهج التربوي

للطريقة، وبذلك تكون الطاعة والعبادة مثار اشتياق وحب، لا مثار تعب وتكليف.

السادسة: نيل مقام التوكل، ودرجة الرضى، ومرتبة التسليم. هذه المقامات هي السبيل إلى تذوق السعادة الحقيقية والتسلية الخالصة واللذة التي لا يشوبها حزن، والأنس الذي لا تقربه وحشة.

السابعة: وهي نجاة الإنسان من الشرك الخفي والرياء والتصنع وأمثالها من الرذائل وذلك بالإخلاص الذي هو أهم شرط لدى سالك الطريقة وأهم نتيجة لها. وكذا التخلص من أخطار النفس الأمارة بالسوء ومن أدران الأنانية بتزكية النفس التي هي السلوك العملي في الطريقة.

الثامنة: هي جعل الإنسان عاداته اليومية بحكم العبادات وأعماله الدنيوية بمثابة أعمال أخروية، والإحسان في استغلال رأس مال عمره من الحياة بدقائقها وجعلها بذوراً تتفتح عن زهرات الحياة الأخروية وسنابلها.

وذلك بدوام الذكر القلبي، والتأمل العقلي، مع الحضور القلبي الدائم والاطمئنان، ودوام شحذ الإرادة، والنية الصافية، والعزيمة الصادقة التي تلقنها الطريقة.

التاسعة: وهي العمل للوصول إلى مرتبة الإنسان الكامل، وذلك بالتوجه القلبي إلى الله طوال سيره وسلوكه، وأثناء معاناته الروحية التي تسمو بحياته المعنوية، أي الوصول إلى مرتبة المؤمن الحق والمسلم الصادق، أي نيل حقيقة

الإيمان والإسلام لا صورتيهما، ثم أن يكون الإنسان عبداً خالصاً لرب العالمين، وموضع خطابه الجليل، وممثلاً عن الكائنات من جهة، ووليّاً للّه وخليلاً له، حتى كأنه مرآة لتجلياته سبحانه، وفي أحسن تقويم حقاً فيقيم الحجة على أفضلية بني آدم على الملائكة.

وهكذا يطير بجناحي الإيمان والعمل بالشريعة إلى المقامات العليا والتطلع من هذه الدنيا إلى السعادة الابدية بل الدخول فيها[١].

لقد تحدث الأستاذ النورسي رحمه الله عن الطريقة حديث الخبير المنصف، ومما يدل على ذلك حديثه عن منزلقات الطريقة مما يدل على أنه سار الطريق، وعرف ما عرفه أئمتها وكشف مخاطرها، وخرج من بعد بطريق بديل آمن وأرحب وأوسع، يقول الأستاذ في اختصار للمنزلقات في الطريقة:

"إن سلوك طريق الولاية مع سهولته هو ذو مصاعب، ومع قصره فهو طويل جداً، ومع نفاسته وعلوه فهو محفوف بالمخاطر، ومع سعته فهو ضيق جداً فلأجل هذه الأسرار الدقيقة، قد يغرق السالكون في هذه السبيل، وقد يتعثرون ويتأذون، بل قد ينكصون على أعقابهم ويضلون الآخرين"[٢].

السير الأنفسي والسير الآفاقي:

ومما يشير إليه الأستاذ رحمه الله وجود مشربين أو نهجين في الطريقة: السير الأنفسي والسير الآفاقي، ويتحدث عن المشرب الأول (السير الأنفسي) فيبين

---

(١) المكتوبات ٥٩١- ٥٩٣.

(٢) المكتوبات ٥٧٥.

أن أهم أسسه " هو كسر شوكة الأنانية وتحطيمها، وترك الهوى وإماتة النفس." فإن " عجز السالك عن قتل النفس الأمارة، ولم يتمكن من تحطيم الأنانية بترك الهوى، فإنه يسقط من مقام الشكر إلى موقع الفخر، ومنه يتردى إلى الغرور، وإذا ما اقترن هذا بما يشبه السكر الناشئ من انجذاب آت من المحبة، فسوف يصدر عنه دعاوى أكبر من حده، وأعظم من طوقه، تلك التي يطلق عليها (الشطحات) فيضر نفسه ويكون سبباً في الإضرار بالآخرين".

ومن ثمرات تلك الشطحات: "أن كثيرا من أهل الولاية من يرى نفسه أكبر وأعظم بكثير ممن هم أرقى وأسمى منه، بل ممن نسبته إليهم كنسبة الذباب إلى الطاووس"[١].

---

(١) المكتوبات ٥٧٦.

ومن نتائج هذا الحال: "هذه الدعاوى عند الشخص الذي ما زالت الأنانية فيه متوفزة، متطلعة لحب الجاه، فستغلبه هذه الأنانية وتأخذ بيده إلى منازل الفخر مخلفاً وراءه مقام الشكر، ومن هناك يتردى تدريجياً إلى هاوية الغرور الماحق للحسنات. فإما أن يتردى إلى الجنون، أو يضل ضلالاً بعيداً، وذلك لأنه جعل نفسه في عداد أولئك الأولياء العظام، وهذا بحد ذاته سوء ظن بهم، لأنه يخلع ما في نفسه من قصور، تدركه النفس مهما اغترت على أولئك الأولياء الأفذاذ الذين يراهم بمنظار نفسه القاصرة، فيتوهم أن أولئك العظام مقصرون مثله، فيقل احترامه لهم، وبالتالي قد يقل احترامه حتى للأنبياء عليهم السلام"(١).

ومن منزلقات الشطحات في السلوك الأنفسي مع بقاء أنانية النفس: "هو: أن المعاني الجزئية التي ترد على قلب السالك بشكل إلهام، يتخيله – هذا السالك – كلام الله، ويعبر عن كل إلهام وارد ب " آية " فيمتزج بهذا الوهم عدم احترام لتلك المرتبة السامية العليا للوحي"(٢).

ويمضي الأستاذ رحمه الله في بيان بعض ما يعرض لسالك الطريقة من متزلقات ومنها وحدة الوجود ووحدة الشهود ويكشف حال أصحابه ويبين في ضوء الفهم القرآني رأيه فيه، ويلخص الموقف منه بقوله:

---

(١) المكتوبات ٥٧٧.

(٢) المكتوبات ٦٧٨ .

"إن هذا المشرب يصلح لأخص الخواص عند حالات الاستغراق المطلق، وللمتجردين من الأسباب المادية، ومن الذين قد قطعوا علائقهم بما سوى الله من الممكنات والأشياء.

ولكن إذا نزل هذا المشرب من علياء الأذواق والمواجيد، والأشواق القلبية إلى دائرة المذاهب الفكرية والعلمية وعرض بشكله العلمي والعقلاني على أنظار الذين استهوتهم الحياة الدنيا، وغرقوا في الفلسفات المادية والطبيعية، فإنه سيكون إغراقاً في الطبيعة والمادة، وإبعاداً عن حقيقة الإسلام.

فالشخص المادي المتعلق بالأسباب، والمغرم بالدنيا، يتشوق إلى إضفاء صفة الخلود على هذه الدنيا الفانية، لأنه يعز عليه أن يرى محبوبته وهي تتبخر بين يديه وتذوب، فيسبغ صفة البقاء والوجود الدائم على دنياه، انطلاقاً من فكرة (وحدة الوجود) فلا يتورع - عندئذٍ - من رفع محبوبته – الدنيا- إلى درجة المعبود بعد أن أسبغ عليها صفات الدوام والخلود والبقاء الأبدي، فينفتح المجال أمامه إلى إنكار الله سبحانه والعياذ بالله" (١).

ضوابط تمنع الانزلاق

ويضع الأستاذ رحمه الله ضوابط للطريقة تمنع من الانزلاق في الشطحات وتقي من شر النفس الأمارة ومن هذه الضوابط:

(١) المكتوبات ٥٨٠.

اتباع السنة النبوية المطهرة:

"إن اتباع السنة النبوية المطهرة هو أجمل وألمع طريق موصلة إلى مرتبة الولاية من بين جميع الطرق، بل أقومها وأغناها. والاتباع يعني: تحري المسلم السنة السنية وتقليدها في جميع تصرفاته وأعماله، والاستهداء بالأحكام الشرعية في جميع معاملاته وأفعاله. فإن أعماله اليومية ومعاملاته العرفية وتصرفاته الفطرية الاعتيادية تأخذ بهذا الاتباع شكل العبادة، فضلا عن أن اتباع السنة وتحري شرع الله في شؤون المؤمن جميعها يجعله في صحوة دائمة، وتذكر للشرع مستمر، وتذكّر الشرع هذا يؤدي إلى ذكر صاحب الشرع الذي يؤدي إلى تذكر الله سبحانه، وذكر الله سبب لسكينة القلب واطمئنانه. أي أن ساعات العمر ودقائقه يمكن أن تنقضي كلها في عبادة دائمة مطمئنة.

لذلك فإن اتباع السنة المطهرة هو طريق الولاية الكبرى، وهو طريق ورثة النبوة من الصحابة الكرام والسلف الصالح"[1].

ومن هذه الضوابط:

الإخلاص ومحبة الله تعالى:

"الإخلاص هو أهم أساس لجميع طرق الولاية وسبل الطريقة، ذلك لأن الإخلاص هو الطريق الوحيد للخلاص من الشرك الخفي. فمن لم يحمل إخلاصاً في ثنايا قلبه فلا يستطيع أن يتجول في تلك الطرق، كما أن (المحبة)

---

(١) المكتوبات ٥٨١.

تشكل أمضى قوة في تلك الطرق.."[١].

ولكن الأستاذ النورسي رحمه الله ينبه إلى ورطة يقع فيها بعض سالكي طريق المحبة وهي: "إنه يُخشى أن ينقلب المحب من التضرع والتذلل لله - اللذين هما سر العبودية - إلى الإدلال والطلب والدعاوى. فيطيش صوابه ويتحرك مختالاً بمحبته دون ضوابط أو موازين.. ويخشى كذلك أن تتحول المحبة لديه من (المعنى الحرفي) إلى (المعنى الاسمي) أثناء توجهه بالمحبة إلى ما سوى الله، فتنقلب عندئذٍ من (دواء) شاف إلى سم زعاف، (...) إن مثل هذا الحب بالمعنى الاسمي لا يكون وسيلة لحب الله، بل ستاراً من دونه. بينما الحب بالمعنى الحرفي أي بسبب من حب الله، فإنه يكون وسيلة إلى زيادة حب الله، بل يصح القول إنه تجل من تجلياته سبحانه"[٢].

وينبه الأستاذ إلى ضابط مهم من ضوابط السلوك فيضع الطريقة والحقيقة في موضعهما الأصلي لتكونا جسرا إلى الحق لا حجابا دونه فيقول رحمه الله:

"ينبغي ألا تتحول الطريقة والحقيقة من كونهما وسيلتين إلى غايتين بحد ذاتهما (تستحوذان على قلب السالك وفكره ووجدانه). فإذا أصبحت - الطريقة والحقيقة - مقصودتين بالذات، فإن الأعمال الشرعية المحكمة، وآداب السنة السنية، تنحسر حتى تأخذ الدرجة الثانية من الاهتمام لدى السالك، وتصبح صورية شكلية بانشغال القلب بالتوجه إلى آداب الطريقة ورسومها.

---

(١) المكتوبات ٥٨١.

(٢) المكتوبات ٥٨٢.

أي أن المرء – عندئذٍ – يفكر بحلقة الذكر أكثر من تفكيره بالصلاة، وينجذب إلى أوراده أكثر من انجذابه إلى الفرائض، ويلزم نفسه بتجنب مخالفة آداب الطريقة أكثر من التزامه بتجنب الكبائر، والحال أن أداء فريضة واحدة التزاماً بالاوامر الشرعية لا يمكن أن توازيها أوراد الطريقة أو تحل محلها. فآداب الطريقة، وأوراد التصوف، وما يحصل للسالك منهما من أذواق ينبغي أن تكون مدخلاً لأذواق أحلى وأعلى وأسمى، يحصل عليها هذا السالك من أداء الفرائض والسنن.

أي أن ما يأخذه المرء من التكية من أذواق، لا بد أن تكون استهلالاً لأذواق الصلاة التي يؤديها في الجامع، بقيامه بأركانها وأدائها على الوجه المطلوب، وإلا فالذي تشغله أذواقه عن صلاته في الجامع، فيؤديها بخفة وسرعة صورية وشكلية لا حرارة فيها ولا روح، إنما يبتعد عن الحقيقة" (١).

وينبه الأستاذ رحمه الله إلى بعض ما يصدر عن بعض أئمة التصوف مما يخالف الشرع حتى إن بعضهم قتل بسيف الشرع فيبين أنه: "ما دام الرسول ﷺ هو خاتم الانبياء والمرسلين وقد خاطبه الله سبحانه باسم البشرية وممثلا عنها، فلا بد ألاّ تسير البشرية خارج الصراط الذي بينه، فالانضواء تحت لوائه ضروري" (٢).

ويتحدث الأستاذ رحمه الله عن قسمين من هؤلاء الأولياء الأول "إما أن

---

(١) المكتوبات ٥٨٤- ٥٨٥.

(٢) المكتوبات ٥٨٥.

يكون قد غلب عليه الحال والاستغراق والجذب والسكر. أو يكون مغلوباً لسيطرة لطائف لا تنقاد للتكاليف ولا تعير بالاً للإرادة، فيخرج من دائرة الشرع.

ولكن هذا الخروج لا ينشأ من عدم الرضى بالشرع، أو من رفض الأحكام الشرعية، بل يترك تلك الأحكام اضطراراً دون إرادة منه، فهناك أولياء من هذا القسم، فضلاً عن أن أولياء كباراً قد قضوا فترة بينهم متلبسين بهذه الحال. بل من هذا النوع مَن حكم عليهم أولياء محققون، أنهم ليسوا خارجين عن دائرة الشرع وحدها، بل منهم مَن هو خارج عن دائرة الإسلام إلا بشرط ألاّ يكذبوا بجميع ما جاء به الرسول ﷺ مِن أحكام، مع أنهم لا يؤدون حقها، إما لعدم تفكرهم بها، أو لعدم استطاعتهم التوجه إليها، أو لعدم تمكنهم من معرفتها، أو عدم فهمها. ولكن إذا عرفها أحد منهم ورفضها فقد هلك.

أما القسم الثاني: فهم المنجذبون لنشوة الأذواق البراقة للطريقة والحقيقة فلا يبالون بالحقائق الشرعية التي هي أرقى من مستوى مذاقهم. ويعتبرها أحدهم غير ذات مذاق لعجزه عن بلوغها. فيؤديها صورية شكلية، وهكذا يبلغ به الأمر تدريجياً إلى أن يظن أن الشريعة مجرد قشر ظاهري، وأن ما وجده من الحقيقة هو الأساس والغاية والقصد، فيقول: حسبي ماوجدته. فيقوم بأفعال مخالفة لما يأمر به الشرع! فالذين لم يفقدوا شعورهم وعقولهم من هذا القسم مسؤولون عن أعمالهم، ويدانون، بل يهلكون، حتى يكون قسم منهم

موضع هزء وسخرية للشيطان"[١]".

الولاية والنبوة

ومن مزالق التصوف التي نبه إليها الأستاذ رحمه الله وهي ناشئة عن ترك اتباع السنة النبوية على الوجه الصحيح:

"اعتقاد بعضهم بأرجحية الولاية على النبوة"[٢].

ومنها "تفضيل قسم من المفرطين: الأولياء على الصحابة الكرام رضوان الله عليهم[٣].

الأذكار النبوية والأوراد:

ومن هذه المزالق "ترجيح بعض المتطرفين والمتعصبين جداً للطريقة لأوراد طريقتهم وآدابها على أذكار السنة النبوية الشريفة، فيسقطون بذلك الى منزلق مخالفة السنة النبوية وتركها، في الوقت الذي يظلون متشبثين بأوراد طريقتهم، أي أنهم يسلكون سلوك غير المبالي بآداب السنة النبوية الشريفة فيهوون في الورطة"[٤].

ويأتي الموقف الحاسم والبيان الشافي في هذه المسألة من الأستاذ رحمه الله بقوله:

---

(١) ٥٨٦ – ٥٨٧.

(٢) انظر المكتوبات ٥٨٨.

(٣) المكتوبات ٥٨٨.

(٤) المكتوبات ٥٨٨.

"إن اتباع سنة واحدة من السنن النبوية يكون مقبولاً عند الله أعظم من مائة من الآداب والنوافل الخاصة. إذ كما أن فرضاً واحداً يرجح ألفاً من السنن، فإن سنة واحدة من السنن النبوية ترجح ألفاً من آداب التصوف"[(١)].

وهذه حقيقة لا يجوز أن تغيب عن السالك إلى الله تعالى بأن أحب ما يتقرب به إلى الله تعالى هو ما افترضه على عباده، وأن التقرب إليه بعد ذلك يكون باتباع الرسول ﷺ في السنن والنوافل .

الواردات القلبية:

إن من أخطر مزالق التصوف أن يظن سالكه أنه يستطيع أن يستقل بأمر دون اتباع الرسول عليه وآله الصلاة والسلام في أي أمر مستندا إلى وارداته القلبية التي يظنها وحيا، وهل يمكن لوارد قلبي إيماني أن يخالف وحي الله سبحانه في القرآن الكريم أو السنة الشريفة ؟

يقول الأستاذ رحمه الله في ذلك:

"إن بعض المتطرفين من اهل التصوف يظنون خطأً أن (الإلهام) بمرتبة (الوحي)، كما يعتبرون الإلهام نوعاً من أنواع الوحي فيسقطون في هذا المزلق الخطير، (...) إن بعض المتصوفين ممن لم يدركوا تماما سر الطريقة - في كونها وسيلة وليست غاية بحد ذاتها - قد ينجذبون ويتوجهون إلى ما يفاض عليهم من الكرامات والأذواق والأنوار، تلك التي توهب ولا تسأل إذ يمنحها الله

---

(١) المكتوبات ٥٨٨.

سبحانه تقوية للضعفاء، وتشجيعاً للمتكاسلين، وتخفيفاً من المشقة والسأم - الذي يعتريهم من شدة الإجهاد في العبادة - فينجرون إلى تفضيل تلك الكرامات والأذواق والأنوار على فروض الدين والخدمة تحت لوائه وقراءة الأذكار والأوراد، فيسقطون في هذا المزلق"(١).

بين الفخر والشكر:

ومن منزلقات التصوف التي بينها الأستاذ رحمه الله الغرور الذي يصيب بعض السالكين فيتجهون إلى الفخر بدل الشكر، والتوجه إلى نيل المنزلة لدى الناس:

"عندما ينصرفون إلى الفخر والادعاء وإشاعة الشطحات وطلب توجه الناس ونيل المرجعيات الدينية، ويفضلون هذه العجالات على الشكر والتضرع والحمد والاستغناء عن الناس، بينما عبودية محمد ﷺ هي أسمى مرتبة في العبودية، تلك العبودية التي نستطيع وصفها بالمحبوبية، أو عبودية المحبة"(٢).

سبيل النجاة:

ويبين الأستاذ رحمه الله أن سبيل النجاة من المزالق التي تعرض لسالكي طريق الولاية: "أن يضعوا أصول الإيمان وأسس الشرع نصب أعينهم ويتخذوها مرشداً دائماً لهم، وأن يخالفوا أذواقهم ومشهوداتهم ويتهموها عند

(١) المكتوبات ٥٨٩.

(٢) المكتوبات ٥٩٠.

تعارضها مع تلك الأسس"[١].

(١) المكتوبات ٥٩١ .

طريق رسائل النور ليس تصوفا

تبين لنا مما سبق أن الأستاذ النورسي رحمه الله كان يحمل التقدير الكبير لدور الطريقة في مسيرة الإسلام، وكان يكن بل يظهر الاحترام البالغ لأئمة الطريقة من أمثال الإمام عبد القادر الكيلاني والإمام الفاروقي السرهندي والشاه النقشبند وجلال الدين الرومي، مع ذلك كله حين تحول الأستاذ النورسي رحمه الله من سعيد القديم إلى سعيد الجديد لم يكن التصوف ملجأه ولا الطريقة منهجه.

لقد مر الأستاذ النورسي رحمه الله بصحوة روحية حين كان في الأسر لكنها خفتت حينا من الدهر، ولما عاد من الأسر واستقر في إسطنبول عضوا في دار الحكمة الإسلامية كان يحس أنه أسعد إنسان في العالم، ولكن جاءه ما ينغص تلك السعادة ويوقظ قلبه من جديد:

"وبينما كنت أحس بأني أسعد إنسان في العالم، نظرت إلى المرآة، ورأيت شعيرات بيضاء في رأسي وفي لحيتي، وإذا بتلك الصحوة الروحية التي أحسست بها في الأسر في جامع قوصتورما تبدأ بالظهور. فأخذتُ أنعم النظر وأفكر مدققاً في تلك الحالات التي كنت أرتبط بها قلبياً، وكنت أظنها أنها هي مدار السعادة الدنيوية. فما من حالة أو سبب دققت النظر فيه، إلا رأيت أنه سبب تافه وخادع، لا يستحق التعلق به، ولا الارتباط معه. فضلاً عن ذلك وجدت في تلك الأثناء عدم الوفاء وفقدان الصداقة من صديق حميم، يُعدّ من أوفى الأصدقاء لي، وبشكل غير متوقع وبصورة لا تخطر لي على بال.. كل

ذلك أدى إلى النفرة والامتعاض من الحياة الدنيا، فقلت لقلبي: ياتُرى هل أنا منخدع كلياً؛ فأرى الكثيرين ينظرون إلى حياتنا التي يُرثى لها من زاوية الحقيقة نظر الغبطة؟ فهل جُنَّ جنون جميع هؤلاء الناس؟ أم أنا في طريقي إلى الجنون لرؤيتي هؤلاء المفتونين بالدنيا مجانين بلهاء؟! وعلى كل حال.. فالصحوة الشديدة التي صحوتها برؤية الشيب جعلتني أرى اولاً: فناء ما أرتبط به من الأشياء المعرّضة للفناء والزوال!!

ثم التفتّ إلى نفسي، فوجدتها في منتهى العجز!.. عندها صرختْ روحي وهي التي تنشد البقاء دون الفناء وتشبثت بالأشياء الفانية متوهمة فيها البقاء، صرخَتْ من أعماقها: مادمتُ فانية جسماً فأي فائدة أرجوها من هذه الفانيات؟ وما دمتُ عاجزة فماذا أنتظر من العاجزين؟.. فليس لدائي دواء إلاّ عند الباقي السرمدي، عند القدير الأزلي، فبدأت أبحث وأستقصي"[(١)].

كانت أزمة روحية حقيقية ومعاناة شديدة جعلت الأستاذ رحمه الله يراجع موقفه من كل ما حوله، يراجع ماضيه ويفكر في مستقبله، ويعيد النظر في علومه وعلاقاته، وبدأ رحلة تأمل وتفكر عميقة حادة في كل شيء. وكان مما أدركه ضرر الفلسفة النظرية على القلب، وأخذ يرفض ما كان يفعله بعض العلماء من الاستعانة بها لنصرة الدين، وما قام هو به من قبل، ودفعه الموقف الجديد إلى أن يتطهر من الفلسفة بنور القرآن، ولنستمع إلى حديث الأستاذ رحمه الله عن رحلته الفكرية والقلبية:

---

(١) سيرة ذاتية ١٥٠.

"وبينما كنت في هذه الحالة، إذا بحكمة القرآن المقدسة تسعفني، رحمةً من العلي القدير، وفضلاً وكرماً من عنده سبحانه. فغسلتْ أدران تلك المسائل الفلسفية، وطهرت روحي منها - كما هو مبين في كثير من الرسائل - إذ كان الظلام الروحي المنبثق من العلوم الفلسفية، يغرق روحي ويطمسها في الكائنات، فأينما كنت أتوجه بنظري في تلك المسائل فلا أرى نوراً ولا أجد قبساً، ولم أتمكن من التنفس والانشراح، حتى جاء نور التوحيد الساطع النابع من القرآن الكريم الذي يلقن لا إله إلا هو فمزّق ذلك الظلام وبدده. فانشرح صدري وتنفس بكل راحة واطمئنان.. ولكن النفس والشيطان، شنّا هجوماً عنيفاً على العقل والقلب وذلك بما أخذاه من تعليمات وتلقياه من دروس من أهل الضلالة والفلسفة. فبدأت المناظرة النفسية في هذا الهجوم حتى اختتمت ولله الحمد والمنّة بانتصار القلب وفوزه"(١).

بدأ الأستاذ النورسي رحمه الله يرى الأشياء بمنظار جديد ويستمع بقلب جديد وها هو يحدثنا عن حاله وقد استمع إلى القراء في جامع بايزيد يرتلون آيات من كتاب الله منها قوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ فهزته هذه الآية هزا شديدا، وها هو يصف حاله بعد الخروج من الجامع: "خرجت من الجامع، رأيت نفسي لبضعة أيام، كأن إعصاراً هائلاً يضطرم في رأسي بما بقي من آثار ذلك النوم العميق المستقر فيّ منذ أمد طويل، ورأيتني كالسفينة التائهة بين أمواج البحر المضطربة البوصلة. كانت نفسي تتأجج بنار ذات دخان كثيف..

---

(١) سيرة ذاتية ١٥٢.

وكلما كنت أنظر إلى المرآة، كانت تلك الشعرات البيضاء تخاطبني قائلة: انتبه!!!" [(١)].

كان سلوان الأستاذ في أزمته القرآن الكريم الذي أنار له الدرب:

"ولكي استيقظ من غفلتي مرة أخرى وأنتبه منها نهائياً، بدأت بالاستماع كذلك لأولئك الحفاظ الكرام في جامع بايزيد لأتلقى الدرس السماوي للقرآن الكريم.. وعندها سمعت بشارات ذلك الإرشاد السماوي من خلال الأوامر الربانية المقدسة في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ....﴾ **[البقرة: ٢٥]**.

وبالفيض الذي أخذته من القرآن الكريم تحريت عن السلوة والرجاء والنور في تلك الأمور التي أدهشتني وحيّرتني وأوقعتني في يأس ووحشة، دون البحث عنها في غيرها من الأمور. فألف شكر وشكر للخالق الكريم على ما وفقني لأن أجد الدواء في الداء نفسه، وأن أرى النور في الظلمة نفسها، وأن أشعر بالسلوان في الألم والرعب ذاتهما" [(٢)].

رفيقان في استكشاف الطريق:

مع تلك الصحوة الإيمانية التي أعقبت الأزمة القلبية اتخذ الأستاذ رفيقين له في حاله الجديد طلبا للطريق الذي يخلصه من الماضي وغفلته، كان يحس أنه مريض، وأنه بحاجة إلى من يعالجه، مع ميل شديد إلى العزلة التي تتيح التفكر

---

(١) سيرة ذاتية ١٥٤.

(٢) سيرة ذاتية ١٥٥ – ١٥٦.

العميق وخصوصا في المقبرة التي تكشف الزيف وتعري الوهم:

"وبعد ان تلقيت هذا التنبيه القرآني، باتت تلك المقبرة عندي مؤنسة أكثر من إستانبول نفسها، (يعني الأستاذ مقبرة أبي أيوب الأنصاري ﷺ) وأصبحت الخلوة والعزلة عندي اكثر لطافة من المعاشرة والمؤانسة، مما حدا بي أن أجد مكاناً للعزلة في (صارى ير) على البسفور. وأصبح الشيخ الكيلاني ﷺ أستاذاً لي وطبيباً ومرشداً بكتابه فتوح الغيب، وصار الإمام الرباني ﷺ كذلك بمثابة أستاذ أنيس ورؤوف شفيق بكتابه مكتوبات فأصبحت راضياً كلياً وممتّناً من دخولي المشيب، ومن عزوفي عن مظاهر الحضارة البراقة ومتعها الزائفة، ومن انسلالي من الحياة الاجتماعية وانسحابي منها، فشكرت الله على ذلك كثيراً"[١].

مع الشيخ الكيلاني:

كانت البداية مع الإمام عبد القادرالكيلاني بقراءة كتابه فتوح الغيب وها هو الأستاذ يسترجع بعد سنين ما كان من حاله في تلك الصحوة:

" هوت صفعات عنيفة قبل ثلاثين سنة على رأس سعيد القديم الغافل، ففكّر في قضية أن الموت حق. ووجد نفسه غارقاً في الأوحال.. استنجد، وبحث عن طريق، وتحرى عن منقذ يأخذ بيده.. رأى السبل أمامه مختلفة.. حار في الأمر وأخذ كتاب فتوح الغيب للشيخ عبد القادر الكيلاني ﷺ وفتحه متفائلاً، فوجد أمامه العبارة الآتية:

---

(١) سيرة ذاتية ١٦٠.

"أنت في دار الحكمة فاطلب طبيباً يداوي قلبك.. يا للعجب!. لقد كنت يومئذ عضواً في دار الحكمة الإسلامية وكأنما جئت إليها لأداوي جروح الأمة الإسلامية، والحال أنني كنت أشد مرضاً وأحوج إلى العلاج من أي شخص آخر.. فالأولى للمريض أن يداوي نفسه قبل أن يداوي الآخرين.

نعم، هكذا خاطبني الشيخ: أنت مريض.. ابحث عن طبيب يداويك!..

قلت: كن أنت طبيبي أيها الشيخ!

وبدأت أقرأ ذلك الكتاب كأنه يخاطبني أنا بالذات.. كان شديد اللهجة يحطم غروري، فأجرى عمليات جراحية عميقة في نفسي.. فلم أتحمل.. لأني كنت أعتبر كلامه موجهاً إليّ.

نعم، هكذا قرأته إلى ما يقارب نصفه.. لم استطع إتمامه.. وضعت الكتاب في مكانه، ثم أحسست بعد ذلك بفترة بأن آلام الجراح قد ولّت وخلفت مكانها لذائذ روحية عجيبة.. عدت إليه، وأتممت قراءة كتاب أستاذي الأول. واستفدت منه فوائد جليلة، وأمضيت معه ساعات طويلة أصغى إلى أوراده الطيبة ومناجاته الرقيقة" (١).

مع الإمام الفاروقي السرهندي:

ثم كانت الخطوة الثانية مع الإمام الفاروقي السرهندي:

" ثم وجدت كتاب مكتوبات للإمام الفاروقي السرهندي، مجدد الألف

---

(١) سيرة ذاتية ١٦١.

الثاني فتفاءلت بالخير تفاؤلاً خالصاً، وفتحته، فوجدت فيه عجباً.. حيث ورد في رسالتين منه لفظة ميرزا بديع الزمان فأحسست كأنه يخاطبني باسمي، إذ كان اسم أبي ميرزا وكلتا الرسالتين كانتا موجهتين إلى ميرزا بديع الزمان فقلت: يا سبحان الله، إن هذا ليخاطبني أنا بالذات، لأن لقب سعيد القديم كان بديع الزمان، ومع أنني ما كنت أعلم أحداً قد اشتهر بهذا اللقب غير الهمداني الذي عاش في القرن الرابع الهجري. فلابد أن يكون هناك أحد غيره قد عاصر الإمام الرباني السرهندي وخوطب بهذا اللقب، ولابد أن حالته شبيهة بحالتي حتى وجدت دوائي بتلك الرسالتين.. والإمام الرباني يوصي مؤكداً في هاتين الرسالتين وفي رسائل أخرى أن: وحّد القبلة أي: اتبع إماماً ومرشداً واحداً ولا تنشغل بغيره!"[1].

توحيد القبلة:

كان الأستاذ يبحث عن مخرج، ويبحث عنى دليل مرشد يقوده إلى بر الأمان ويخرجه من أزمته القلبية ووقع بين إمامين مرشدين:

"وأخذت أفكر ملياً: أيهما اتبع!. أأسير وراء هذا، أم أسير وراء ذاك؟ احترت كثيراً وكانت حيرتي شديدة جداً، إذ في كل منهما خواص وجاذبية، لذا لم استطع ان اكتفي بواحد منهما"[2].

وفي غمرة هذا التردد انكشف له الطريق الذي كان البديل للطريقة وذلك

---

(١) سيرة ذاتية ١٦١ -١٦٢.

(٢) سيرة ذاتية ١٦٢.

بنور القرآن وهدايته:

" وحينما كنت أتقلب في هذه الحيرة الشديدة.. إذا بخاطر رحماني من الله سبحانه وتعالى يخطر على قلبي ويهتف بي:

– إن بداية هذه الطرق جميعها.. ومنبع هذه الجداول كلها.. وشمس هذه الكواكب السيارة.. إنما هو القرآن الكريم فتوحيد القبلة الحقيقي إذن لا يكون إلا في القرآن الكريم.. فالقرآن هو أسمى مرشد.. وأقدس أستاذ على الإطلاق.. ومنذ ذلك اليوم أقبلت على القرآن واعتصمت به واستمددت منه.. فاستعدادي الناقص قاصر من أن يرتشف حق الارتشاف فيض ذلك المرشد الحقيقي الذي هو كالنبع السلسبيل الباعث على الحياة، ولكن بفضل ذلك الفيض نفسه يمكننا أن نبين ذلك الفيض، وذلك السلسبيل لأهل القلوب وأصحاب الأحوال، كلٌ حسب درجته. فالكلمات والأنوار المستقاة من القرآن الكريم (أي رسائل النور) إذن ليست مسائل علمية عقلية وحدها بل أيضاً مسائل قلبية، وروحية، وأحوال إيمانية.. فهي بمثابة علوم إلهية نفيسة ومعارف ربانية سامية" [١].

رحلة غير عادية:

كانت للأستاذ النورسي رحمه الله رحلة عاين فيها طرق الهداية والضلال، وانكشفت له بأنوار القرآن حقائق الوجود، وعانى معاناة حقيفقية، وكان منقذه وهاديه نور القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وانظر ما يقوله عن

---

(١) سيرة ذاتية ١٦٣.

السنة في رحلته القلبية العقلية:

"إنّي شاهدت في سيري في الظلمات، السُّنن السَّنية نجوماً ومصابيح، كلُّ سنَّةٍ، وكلُّ حَدٍ شرعي يتلمع بين ما لا يُحصر من الطرق المظلمة المضلّة. وبالانحراف عن السنة يصير المرء لعبة الشياطين، ومركَب الأوهام، ومعرض الأهوال، ومطية الأثقال - أمثال الجبال - التي تحملها السنةُ عنه لو اتّبعها.

وشاهدتُ السننَ كالحبالِ المتدلّية من السماء، من استمسك ولو بجزئي استَصعد واستسعد. ورأيتُ مَن خالَفَها واعتمدَ على العقل الدائر بين الناس، كمَن يريد أن يبلُغَ أسباب السماوات بالوسائل الأرضية فيتحمّق كما تَحمّقَ فرعونُ بـ ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحًا﴾.. [غافر: ٣٦] .

فعندما كان يسعى هذا السعيد الفقير إلى الله، للخروج من حالة (سعيد القديم) "ارتج عقلي وقلبي وتدحرجا ضمن الحقائق إزاء إعصار معنوي رهيب، فقد شعرت كأنهما يتدحرجان هبوطا تارة من الثريا إلى الثرى وتارة صعدا من الثرى إلى الثريا، وذلك لانعدام المرشد، ولغرور النفس الأمارة، فشاهدت حينئذ أن مسائل السنة النبوية الشريفة بل حتى أبسط آدابها، كل منها في حكم مؤشر البوصلة الذي يبين اتجاه الحركة في السفن. وكل منها في حكم مفتاح مصباح يضيء ما لا يحصر من الطرق المظلمة المضرة. وبينما كنت أرى نفسي في تلك السياحة الروحية أرزح تحت ضغط مضايقات كثيرة وتحت أعباء أثقال هائلة، إذا بي أشعر بخفة كلما تتبعت مسائل السنة الشريفة المتعلقة بتلك الحالات، وكأنها كانت تحمل عني جميع الأثقال وترفع عن

كاهلي تلك الأعباء. فكنت أنجو باستسلام تام للسنة من هموم التردد والوساوس مثل: هل في هذا العمل مصلحة؟ ترى هل هو حق؟. وكنت أرى متى ما كففت يدي عن السنة تشتد موجات المضايقات وتكثر، والطرق المجهولة تتوعر وتغمض، والأحمال تثقل.. وأنا عاجز في غاية العجز ونظري قصير، والطريق مظلمة. بينما كنت أشعر متى ما اعتصمت بالسنة، وتمسكت بها، تتنور الطريق من أمامي، وتظهر كأنها طريق آمنة سالمة والأثقال تخف والعقبات تزول [١].

ومن المهم أن نتصور الحال التي مر بها الأستاذ في رحلته العقلية القلبية فليست حالا عادية بل هي رحلة في الكون انكشفت له فيها الحقائق وبلغ مرحلة الشهود في إيمانه، تلك الرحلة التي تجلت من بعد في الطريق المختصر إلى الله تعالى. ومن معاناة الأستاذ في رحلته ما كتبه في مقدمة مؤلفاته في فترة التحول إلى سعيد الجديد:

"هذه الرسالة مكالمات فجائية مع نفسي في وقتٍ مدهش. والكلمات إنما تولدتْ في أثناء مجادلة هائلة كإعصار يتصارع فيها الأنوارُ مع النيران، يتدحرج رأسي في آن واحد من الأوج إلى الحضيض، ومن الحضيض إلى الأوج، من الثرى إلى الثريا؛ إذ سلكتُ طريقاً غير مسلوك، في برزخٍ بين العقل والقلب، ودار عقلي من دهشة السقوط والصعود. فكلما صادفتُ نوراً نصبتُ عليه علامة لأتذكّره بها. وكثيراً ما أضع كلمةً على ما لا يمكن لي التعبير عنه،

---

(١) سيرة ذاتية ١٦٥ -١٦٦.

للإخطار والتذكير، لا للدلالة.. فكثيراً ما نصبتُ كلمة واحدة على نور عظيم..ثم شاهدت أن أولئك الأنوار الذين يمدونني في بطون أرض الظلمات ما هم إلاّ شعاعات شمس القرآن تمثلوا لي مصابيح.. اللهم اجعل القرآن نوراً لعقولنا، وقلوبنا، وأرواحنا ومرشداً لأنفسنا.. آمين.

.. أرى مسائل تلك الرسائل وسائلَ وسلالم.. للصعود إلى الزنابيل النورانية المتدلّية من عرش الرحمن التي هي الآيات الفرقانية. فما من مسألةٍ منها إلاّ ويماسّ رأسُها قدمَ آيةٍ من الفرقان. فمسائلها وإن حصلت لي أول ما حصلت شهودية وحدسية وذوقية، لكن لدخولي في صحراء الجنون مع رفاقة عقلي مفتوح الجفون - فيما يغمض فيه ذوي (!) الأبصار - لفّ عقلي على عادته مارآه قلبي في مقاييسه ووزنه بموازينه واستمسكه ببراهينه.. صارت مسائل هذه الرسائل من هذه الجهة كأنها مبرهنة استدلالية. فيمكن لمن ضلّ من جهة الفكر والعلم أن يستفيد منها ما يُنجيه من مزالق الأفكار الفلسفية. بل يمكن أن يستخرج منها بالتهذيب والتنظيم والإيضاح عقائد إيمانية وعلم كلام جديد في غاية القوة والرصانة لردّ ضلالات أفكار هذا الزمان. بل يمكن لمن اختلط عقلهُ بقلبه، أو التحق قلبهُ بعقله المتشتت في آفاق الكثرة أن يستنبط منها طريقة كسكة الحديد متينةً أمينة يسلك فيها تحت إرشاد القرآن الكريم..كيف لا، وكل ما في رسائلي من المحاسن ما هو إلاّ من فيض القرآن..

ولله الحمد كان القرآن هو مرشدي وأستاذي في هذا الطريق.

نعم! مَن استمسكَ به استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

.. لا تحسبن أن ما أكتبه شيء مضغته الأفكار والعقول. كلا! بل فيض أفيض على روحٍ مجروح وقلب مقروح، بالاستمداد من القرآن الكريم، ولا تظنه أيضاً شيئاً سيالاً تذوقه القلوب وهو يزول. كلا! بل أنوارٌ من حقائق ثابتة انعكست على عقلٍ عليلٍ وقلبٍ مريضٍ ونفسٍ عمي. إني ما أدري كيف صار عقلي ممزوجاً بقلبي، فصرت خارجاً عن طريق أهل العقل من علماء السلف وعن سبيل أهل القلب من الصالحين، فإن وافقتهما فبها ونعمت وإن خالفتُ في كلامي أي السبيلين منهما فهو مردود عليّ.

إن ما يصادفك في المسائل من صورة البرهان والاستدلال ليس برهاناً حتى يقال: فيه نظر! بل مبادئ حدسية قيدت وعقدت واستحفظت بأنوار اليقين المفاضة من القرآن الكريم.

إنه يمكن أن يذهب الموفَّق من الظاهر إلى الحقيقة بلا مرور على برزخ الطريقة؛ وقد رأيتُ من القرآن طريقا إلى الحقيقة بدون الطريقة، أي المشهورة. وكذا رأيت طريقاً موصلاً إلى العلوم المقصودة بدون المرور على برزخ العلوم الآلية" (١).

ويبين الأستاذ ﵀ كيف سلك طريق كبار أئمة الطريقة بالعقل والقلب ولكن كان له تميز عنهم فعرف ما عرفوا لكن وفق ما وضحه في ما يأتي:

"وخلال سلوكه ذلك المسلك ومعاناته في دفع الشكوك، قطع المقامات،

---

(١) سيرة ذاتية ١٦٦ – ١٦٨.

وطالع مافيها، لا كما يفعله أهل الاستغراق مع غض الأبصار، بل كما فعله الإمام الغزالي والإمام الرباني وجلال الدين الرومي، مع فتح أبصار القلب والروح والعقل، فسار فيها - أي في المقامات - ورأى ما فيها بتلك الأبصار كلها، منفتحةً من غير غضٍ ولا غمض. فحمداً لله على أن وُفِّق على جمع الطريقة مع الحقيقة بفيض القرآن وإرشاده، حتى بيّن برسائل النور التي ألفها سعيد الجديد حقيقة:

وفي كــل شــيء لــه آيــة   تــدل علــى أنــه واحــد

لقد كان في سياحته وسلوكه ذلك السلوك في تلك المقامات، ساعياً بالقلب تحت نظارة العقل، وبالعقل في حماية القلب كالإمام الغزالي والإمام الرباني وجلال الدين الرومي. فبادر إلى ضماد جراحات قلبه وروحه، وخلّص نفسه من الوساوس والأوهام. وبخلاصه منها انقلب سعيد القديم إلى سعيد الجديد، فألّف بالعربية ما هو بحكم المثنوي الشريف - الذي هو أصلاً بالفارسية - رسائل عدة في أوجز العبارات. وكلما سنحت له الفرصة أقدم على طبعها، وهي: قطرة، حباب، حبة، زهرة، ذرة، شمة، شعلة ودروس أخرى مع رسالتين بالتركية وهما: لمعات ونقطة. وبيّن ذلك المسلك في غضون نصف قرن من الزمان في رسائل النور التي لم تقتصر على جهاد النفس والشيطان، بل أصبحت شبيهة بمجموعة كلية واسعة من المثنوي تنقذ الحيارى

المحتاجين وتنتشل المنساقين إلى الضلالة من أهل الفلسفة"[١].

كانت رحلة الأستاذ وسياحته ميدان حرب مع النفس الأمارة والشيطان بلغ فيها الأستاذ مرحلة عين اليقين أو علم اليقين، فهو لم يكتب من وراء حجاب بل عن شهود محقق، ولنستمع إليه يحدثنا ولنقف عند كل كلمة يقولها في وصف تلك الرحلة التي لم تكن نزهة بل كانت نوعا من الحرب، والخوض في المهالك، ولكن الله تعالى نجاه منها مظفرا قال ﷺ:

"ما كتبتُ إلاّ ما شاهدت: إنى قد ساقني القدر الإلهي إلى طريق عجيب، صادفتُ في سيري فيه مهالك ومصائب وأعداء هائلةً. فاضطربتُ، فالتجأت بعجزي إلى ربي.. فأخذت العنايةُ الأزلية بيدي، وعلّمني القرآنُ رشدي، وأغاثتني الرحمة فخلصتني من تلك المهالك. فبحمد الله صرتُ مظفراً في تلك المحاربات مع النفس والشيطان اللذين صارا وكيلين فضوليين لأنواع أهل الضلالات..

فأولاً ابتدأت المشاجرةُ بيننا في هذه الكلمات المباركة وهي:

سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله اكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.. فوقع تحت كلٍ من هذه الحصون الحصينة ثلاثون حرباً. فكلُّ جملة، بل كل قيد في هذه الرسالة نتيجة مظفرية لحرب لم يبق للعدوّ في شيء منها مطمَع وأدنى ممسك.. فما كتبتُ إلاّ ما شاهدتُ.. بحيث لم يبق لنقيضه عندي

(١) سيرة ذاتية ١٦٨ – ١٦٩.

إمكانٌ وهمي..

وإنني أعترف وأنادي بأعلى صوتي: بأني عاجز، قاصر في الإفهام. لكن أقول تحديثاً بالنعمة وأداء للأمانة بأني لا أخدعكم، إنما أكتب ما أشاهد أو أتيقن عين اليقين أو علم اليقين"[١]."

---

(١) سيرة ذاتية ١٧٠.

رسائل النور والتصوف

كانت ثمرة الرحلة العقلية القلبية والسياحة الكونية التي اتخذت التفكر مركبا أن فتح الله تعالى على الأستاذ النورسي رحمه الله طريقا يوصل إلى الحقيقة من غير الطريقة الصوفية، وقد وصل الأستاذ النورسي رحمه الله إلى موقف مستمد من العصر ومتطلباته، ومن القرآن وأنواره، ومن السنة وهديها، ومن الصحابة ومسلكهم في الولاية هو مسلك طريق النور بخطواته الأربعة: العجز والفقر والشفقة والتفكر وقد وصف الأستاذ النورسي رحمه الله هذا المسلك بقوله:

"إن مسلك رسائل النور ليس مسلك الطريقة الصوفية بل هو مسلك الحقيقة، فهو مسلك مقتبس من نور مسلك الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

إن هذا الزمان ليس زمان الطريقة الصوفية بل زمان إنقاذ الإيمان. ولله الحمد فإن رسائل النور قد أنجزت وما تزال تنجز هذه المهمة وفي أصعب الظروف"[(١)].

بل يقول الأستاذ أكثر من ذلك في هذا المجال مبينا أن طريق رسائل النور ليس تصوفا بل طريق إحياء الإيمان لا بالقلب وحده بل بالعقل والقلب معا:

"نعم، لا يمكن دخول الجنة من دون إيمان، بينما يدخلها الكثيرون جداً

---

(١) سيرة ذاتية ٣٦٩.

دون تصوف. فالإنسان لا يمكن أن يعيش دون خبز، بينما يمكنه العيش دون فاكهة. فالتصوف فاكهة والحقائق الإسلامية خبز"[(١)].

ويشير الأستاذ النورسي رحمه الله إلى موقف الإمام الرباني من الهدف الحقيقي للتصوف وتوافقه مع ما وصل إليه الأستاذ من منهج جديد من خلال رسائل النور:

"لقد قال رائد السلسلة النقشبندية وشمسها الإمام الرباني رضي الله عنه في مؤلفه "مكتوبات": إنني أرجّح وضوح مسألة من الحقائق الإيمانية وانكشافها على آلاف من الأذواق والمواجيد والكرامات".

وقال أيضاً: "إن منتهى الطرق الصوفية كافة هو وضوح الحقائق الإيمانية وانجلاؤه".

وقال كذلك: "إن الولاية ثلاثة أقسام:

الولاية الصغرى: وهي الولاية المشهورة.

وقسم ثان: هو الولاية الوسطى.

وقسم ثالث: هو الولاية الكبرى.

هذه الولاية الكبرى هو فتح الطريق إلى الحقيقة مباشرة دون الدخول في برزخ التصوف وذلك بوساطة وراثة النبوة"[(٢)].

---

(١) المكتوبات ٢٧.

(٢) المكتوبات ٢٦.

الولاية الكبرى

ويوضح الأستاذ النورسي رحمه الله هذه الولاية الكبرى التي ظهرت في الصحابة G وأن مشربها مفتوح من بعدهم:

" إن الصحابة الكرام والتابعين وتابعي التابعين - رضوان الله عليهم - ممن لهم أرفع المراتب، وحظوا بالولاية الكبرى، قد تلقت جميع لطائفهم حظها من القرآن مباشرة، فأصبح القرآن لهم مرشداً حقيقياً وكافياً، وهذا يعني ويدل على أن القرآن مثلما يعبر عن الحقائق في كل زمان فإنه يفيض بفيوضات الولاية الكبرى إلى من هو أهل لها في كل وقت. نعم! إن العبور من الظاهر إلى الحقيقة إنما يكون بصورتين:

الأولى: بالدخول إلى برزخ الطريقة وقطع المراتب فيها بالسير والسلوك حتى بلوغ الحقيقة.

الصورة الثانية: العبور إلى الحقيقة مباشرة برحمة إلهية محضة، دون الدخول في برزخ الطريقة، هذا الطريق خاص ورفيع وسام وقصير جداً، وهو طريق الصحابة الكرام والتابعين رضوان الله عليهم.

فإذن الأنوار المترشحة من حقائق القرآن و"الكلمات " التي تترجم تلك الأنوار يمكن أن تكون مالكة لتلك الخاصية، بل هي مالكة لها فعلاً" [١].

والقارئ لرسائل النور لا يزال يجد المرة بعد الأخرى بيان استقلالها في

(١) المكتوبات ٤٥٩ – ٤٦٠.

المنهج عن التصوف، واتخاذها سبيلا مناسبا للعصر، متسعا للجميع، من غير حاجة إلى دخول الزاوية أو الإيواء إلى التكية، بل من خلال المدرسة والمسجد، ومن خلال التفكر الذي يفتح نوافذ النور من خلال كل شيء.

خصائص رسائل النور:

وها هو الأستاذ يتحدث عن (الكلمات) التي هي المجلد الأول من رسائل النور ويبين خصائصها وأوصافها:

"الكلمات:

تصديق وليست تصورا.

وإيمانٌ وليست تسليماً.

وتحقيق وليست تقليداً.

وشهادة وشهود وليست معرفة.

وإذعان وليست التزاماً.

وحقيقة وليست تصوفاً.

وبرهان ضمن الدعوى وليست ادعاء.

وحكمة هذا السر هي:

أن الأسس الإيمانية كانت رصينة متينة في العصور السابقة، وكان الانقياد تاماً كاملاً، إذ كانت توضيحات العارفين في الأمور الفرعية مقبولة، وبياناتهم كافية حتى لو لم يكن لديهم دليل.

أما في الوقت الحاضر فقد مدّت الضلالة باسم العلم يدها إلى أسس الإيمان وأركانه، فوهب لي الحكيم الرحيم - الذي يهب لكل صاحب داء دواءه المناسب - وأنعم عليّ سبحانه شعلةً من ضرب الأمثال التي هي من أسطع معجزات وأوضحها، رحمةً منه جلّ وعلا بعجزي وضعفي وفقري واضطراري، لأُنير بها كتاباتي التي تخص خدمة القرآن الكريم. فله الحمد"(١).

وفي دفاع الأستاذ أمام محكمة إسكي شهر نجده يرد دعوى تدريسه للطريقة الصوفية ويبين طبيعة زماننا وحاجته التي لا يراها في الطريقة:

"المادة الرابعة لبيان سبب اتهامي وتوقيفي هو: وقوع إخبار عني بتدريس درس الطريقة التي منعتها الدولة.

الجواب:

اولاً: كتبي التي في أيديكم كلها تشهد أني منشغل بالحقائق الإيمانية. ولقد كتبت مرات عديدة في رسائلي أن هذا الزمان ليس زمان الطريقة، بل زمان إنقاذ الإيمان. وكثيرون جداً يدخلون الجنة بغير طريقة، ولكن لا أحد يدخلها بغير إيمان. لذلك ينبغي العمل للإيمان.

ثانياً: أنا موجود في ولاية إسبارطة منذ عشر سنين. فليدّع إنسان واحد أني علّمته درس الطريقة. نعم.. قد درّست بعض الخواص من إخوة الآخرة دروساً في العلوم الإيمانية والحقائق العالية باعتباري عالماً. إن هذا ليس تعليم طريقة، بل تدريس حقيقة. ثمّ شيء أُنبه إليه: أنا شافعي المذهب، وتسبيحاتي

(١) سيرة ذاتية ٢٤٢ -٢٤٣.

بعد الصلاة تختلف قليلاً عن تسبيحات الأحناف. وأيضاً، أنشغل في خلوة مع نفسي للاستغفار عن ذنوبي وتلاوة آيات كريمة وما شابه ذلك، ولا أستقبل في أثنائها أحداً من بعد صلاة المغرب إلى صلاة العشاء وقبل الفجر. ولا أظن أن أي قانون في الدنيا يمنع هذه الحال"(١).

رسائل النور لا تقبل الشركة:

ويبين الأستاذ أن عدم اكتفاء بعض طلبة النور بالرسائل وتطلعهم إلى الطرق الصوفية قد ألحق الضرر بالخدمة الإيمانية وكان سببا في لطمة من لطمات الرحمة ويورد شاهدا من سعدي الشيرازي حول الزاوية والمدرسة ذا دلالة على ما يريد الأستاذ بيانه لطلاب النور:

"لطمة رحمة:

إخوتي!

لقد أدركت أن التي نزلت بنا - مع الأسف - هي لطمة رحمة. أدركتها منذ حوالي ثلاثة أيام وبقناعة تامة. حتى أنني فهمت إشارة من الإشارات الكثيرة للآية الكريمة الواردة بحق العاصين لله، فهمتها كأنها متوجهة إلينا وتلك الآية الكريمة هي: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ....أَخَذْنَاهُم﴾.

أي: لما نسي الذين ذُكّروا بالنصائح، ولم يعملوا بمقتضاها.. أخذناهم بالمصيبة والبلاء.

---

(١) سيرة ذاتية ص ٢٥٩.

نعم، لقد كُتّبنا مؤخراً رسالة تخص سر (الإخلاص) وكانت حقاً رسالة رفيعة سامية، ودستوراً أخوياً نورانياً، بحيث إن الحوادث والمصائب التي لا يمكن الصمود تجاهها إلاّ بعشرة آلآف شخص، يمكن مقاومتها - بسر ذلك الإخلاص - بعشرة أشخاص فقط. ولكن أقولها آسفاً: إننا لم نستطع وفي المقدمة أنا، أن نعمل بموجب ذلك التنبيه المعنوي، فأخذتنا هذه الآية الكريمة - بمعناها الإشاري - فابتلي قسم منا بلطمة تأديب ورحمة، بينما لم تكن لطمة تأديب لقسم آخر بل مدار سلوان لهم، وليكسبوا بها لأنفسهم الثواب.

نعم، إنني لكوني ممنوعاً عن الاختلاط منذ ثلاثة شهور لم أستطع أن أطلع على أحوال إخواني إلاّ منذ ثلاثة أيام، فلقد صدر – ما لا يخطر ببالي قط - ممن كنت أحسبهم من أخلص إخواني أعمالٌ منافية لسر الإخلاص. ففهمت من ذلك أن معنىً إشارياً للآية الكريمة ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ....أَخَذْنَٰهُم﴾ يتوجه إلينا من بعيد.

إن هذه الآية الكريمة التي نزلت بحق أهل الضلال مبعث عذاب لهم، هي لطمة رحمة وتأديب لنا؛ لتربية النفوس وتكفير الذنوب وتزييد الدرجات. والدليل على أننا لم نقدر قيمة ما نملك من نعمة إلهية حق قدرها هو: أننا لم نقنع بخدمتنا القدسية برسائل النور المتضمنة لأقدس جهاد معنوي، ونالت الولاية الكبرى بفيض الوراثة النبوية، وهي مدار سر المشرب الذي تحلى به الصحابة الكرام. وأن الشغف بالطرق الصوفية التي نفعها قليل لنا في الوقت الحاضر، واحتمال إلحاقها الضرر بوضعنا الحالي ممكن، قد سُدّ أمامه بتنبيهي

الشديد عليه.. وإلاّ لأفسد ذلك الهوى وحدتنا، وأدّى إلى تشتت الأفكار الذي ينـزل قيمة الترابط والتساند من ألف ومائة وأحد عشر الناشئة من اتحاد أربعة آحاد، ينـزلها إلى قيمة أربعة فحسب، ويؤدّي إلى تنافر القلوب الذي يبدّد قوتنا إزاء هذه الحادثة الثقيلة ويجعلها أثراً بعد عين.

أورد الشيخ سعدي الشيرازي صاحب كتاب كلستان ما مضمونه:

لقد رأيت أحد المتقين من أهل القلب في زاوية –

– يزاول السير والسلوك، ولكن بعد مضي بضعة أيام شاهدته في المدرسة بين طلاب العلوم الشرعية، فسألته: لِمَ تركت الزاوية التي تفيض بالأنوار وأتيت إلى هذه المدرسة؟ قال: هؤلاء النجباء ذوو الهمم العالية يسعون لإنقاذ الآخرين مع إنقاذهم لأنفسهم، بينما أولئك يسعون لإنقاذ أنفسهم وحدها إن وفّقوا إليها. فالنجابة وعلو الهمة لدى هؤلاء، والفضيلة والهمة عندهم، ولأجل هذا جئت إلى هنا. هكذا سجّل الشيخ سعدي خلاصة هذه الحادثة في كتابه كلستان.

فلئن رُجّحت المسائل البسيطة للنحو والصرف التي يقرأها الطلاب مثل: نصر نصرا، نصروا.. على الأوراد التي تُذكر في الزوايا، فكيف برسائل النور الحاوية على الحقائق الإيمانية المقدسة في آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر. ففي الوقت الذي ترشد رسائل النور إلى تلك الحقائق بأوضح صورة وأكثرها قطعية وثبوتاً حتى لأعتى المعاندين المكابرين من الزنادقة وأشد الفلاسفة تمرداً، وتلزمهم الحجة، كم يكون على خطأ من يترك هذه السبيل أو

يعطّلها أو لا يقنع بها ويدخل الزوايا المغلقة دون استئذان من الرسائل تبعاً لهواه! ويبين في الوقت نفسه مدى كوننا مستحقين لهذه الصفعة، صفعة الرحمة والتأديب[١].

وكان الأستاذ النورسي رحمه الله حريصا على أن يبين لطلاب النور حقيقة رسائل النور وأنها كافية مناسبة لهذا العصر ، تغني عن التصوف، ولذلك كان يعالج ما يجد من ميل نحو التصوف لدى بعض طلاب النور، ومن ذلك هذه الرسالة إلى تلميذه فيضي الذي رأى لديه ميلا نحو الطريقة النقشبندية يبين له فيها ما تمتاز به رسائل النور في خدمة الإيمان:

"أخي فيضي!

إن كنت ترغب أن تكون مثيل أبطال ولاية إسبارطة، عليك أن تشبههم وتكون مثلهم تماماً. فلقد كان معنا في السجن شيخ عظيم ومرشد مرموق ذو جاذبية من أولياء الطريقة النقشبندية - رحمه الله - جالَسَ ما يقرب من ستين من طلاب النور طوال أربعة اشهر وحاورهم محاورات مغرية لجلبهم إلى الطريقة، إلاّ أنه لم يتمكن إلاّ على ضم واحدٍ منهم إلى صفه، وبصورة مؤقتة. أما الباقون فقد ظلوا مستغنين عنه وهو الولي الصالح، إذ كفتهم الخدمة الإيمانية الرفيعة التي تقدمها رسائل النور، واطمأنوا بها. ولقد فقه أولئك الأبطال بقلوبهم الواعية ورأوا ببصيرتهم النافذة الحقيقة الآتية:

---

(١) سيرة ذاتية ٢٩٥ – ٢٩٧.

إن خدمة رسائل النور هي إنقاذ الإيمان، أما الطريقة والمشيخة فهي تكسب المرء مراتب الولاية. وإن إنقاذ إيمان شخص من الضلال أهم بكثير وأجزل ثواباً من رفع عشرة من المؤمنين إلى مرتبة الولاية؛ حيث إن الإيمان بمنحه للإنسان السعادة الأبدية يضمن له ملكاً أوسع من الأرض كلها. أما الولاية فإنها توسّع من جنة المؤمن وتجعلها أسطع وأبهر. وكما أن رفع مرتبة إنسان اعتيادي إلى سلطان، أعظم من رفع عشرة من الجنود إلى مرتبة القائد، كذلك الثواب أعظم وأجزل في إنقاذ إيمان إنسان من الضلالة، من رفع عشرة من الناس إلى مرتبة أولياء صالحين. فهذا السر الدقيق هو الذي أبصرته القلوب النفاذّة لإخوانك في إسبارطة، وإن لم تره عقول قسم منهم. ولهذا فضّلوا صداقة شخص ضعيف مذنب مثلي، على صداقة أولياء عظام بل على مجتهدين إن وجدوا.

فبناء على هذه الحقيقة: لو أن قطباً من أقطاب الأولياء أو شيخاً جليلاً كالكيلاني، أتى إلى هذه المدينة وقال لك سأرفع مرتبتك إلى مرتبة الولاية في عشرة أيام، وذهبت إليه تاركاً رسائل النور، فلا تستطيع أن تصادق أبطال إسبارطة.ـ

شهادتان في علاقة الرسائل بالتصوف:

إن مما يجلو قضية رسائل النور وعلاقتها بالتصوف وبيان حقيقتها، شهادات عدد من الطلاب الذين لقوا الأستاذ النورسي رحمه الله، وكانت لديهم تصورات عن الأستاذ والرسائل ثم انكشف لهم وجه الحقيقة من خلال علاقتهم بالأستاذ نفسه. ولنطلع على شهادتين تضيئان هذا الأمر:

شهادة خلوصي:

"ها هو أحد تلاميذ الأستاذ النورسي رحمه الله يروي بعض ذكرياته معه وكيف كان اعتقاده في الأستاذ أول الأمر أنه شيخ صوفي وما كان من البيان الشافي من الأستاذ لحقيقة دوره ومنزلته في هذا العصر بأنه: "حفظ الإيمان لا حفظ الطريقة، يقول خلوصي رحمه الله:

في أول زيارتي للاستاذ وأنا احسبه شيخاً من شيوخ الصوفية بادرني بالقول وقبل أن أتكلم بشيء: أخي أنا لست شيخاً، أنا إمام كالغزالي والإمام الرباني، فأنا مثلهم إمام فعصرنا عصر حفظ الإيمان لا حفظ الطريقة[١].

شهادة أحمد كومش:

"في عام ١٩٥٣ ذهبت لزيارة بديع الزمان في قونيا، وجلست عنده فسرّته زيارتي إليه وانشرح كثيراً لاستمراري في المدرسة الدينية وقال:

- إني أعتبر هذه المدارس كالمدارس المباركة في العصور السابقة. ثم قال:

- لو كان مولانا (جلال الدين الرومي) في هذا العصر لكتب رسائل النور ولو كنت أنا في ذلك العصر لكتبت المثنوي، ذلك لأن خدمة الإيمان والقرآن في عصره كانت على ذلك النمط أي بـ(المثنوي) وأما الآن فإن الخدمة على منهج رسائل النور[٢].

ثمرات الرسائل وثمرات التصوف:

---

(١) سيرة ذاتية ٥٢٤.

(٢) سيرة ذاتية ص ٥٣٨.

يوازن الأستاذ النورسي رحمه الله بين ما أنتجته رسائل النور من ثمرات في ولاية إسبارطة في خدمة الإيمان ونشر حقائق القرآن وما يمكن أن يكون من ثمرات للتصوف فيقول:

"إن ما نراه من حصيلة خدمتنا وجهودنا في ترسيخ الإيمان وتحقيقه في قلوب ألوف المؤمنين - حوالي ولاية إسبارطة - لكافٍ لخدمتنا هذه، بحيث لو ظهر من هو بمرتبة عشرة أقطاب من الأولياء الصوفية، واستطاع سوق ألفٍ من الناس إلى مراتب الولاية، فإن عمله هذا لا ينقص من أهمية عملنا وقيمته ولا من ثمراته شيئاً. لذا فإن طلاب رسائل النور الحقيقيين واثقون كل الثقة ومطمئنون كل الاطمئنان بمثل هذه النتائج وحصيلة الأعمال هذه إذ إن القناعة القلبية لدى مريدي ذلك القطب العظيم يحققها ويضمنها المقام الرفيع لأستاذهم ومرشدهم، ويضمنها أحكامه في المسائل، إلاّ أن رسائل النور تنشئ لدى طلابها درجة من القناعة أكثر بكثير مما عندمريدي ذلك القطب العظيم، بما فيها من حجج قاطعة تسري إلى الآخرين فتنفعهم أيضاً، بينما تبقى قناعة أولئك المريدين خاصة بهم وحدهم. إذ إن قبول أقوال الأشخاص العظام بغير دليل لا يفيد اليقين والقطعية - في علم المنطق - بل ربما تكون قضية مقبولة يقتنع بها الإنسان بالظن الغالب. أما البرهان الحقيقي - كما هو في المنطق - فلا ينظر إلى مكانة الشخص القائل وإنما إلى الدليل الذي لا يُجرح.

فجميع حجج رسائل النور هي من هذا القسم، أي من "البرهان اليقيني" لأن ما يراه أهل الولاية من الحقائق بالعمل وبالعبادة وبالسلوك وبالرياضة

الروحية، وما يشاهدونه من حقائق الإيمان وراء الحجب، فإن رسائل النور تشاهدها مثلهم أيضاً، إذ شقت طريقاً إلى الحقيقة في موضع العبادة ضمن العلم، وفتحت سبيلاً إلى حقيقة الحقائق في موضع السلوك والأوراد ضمن براهين منطقية وحجج علمية، وكشفت طريقاً مباشراً إلى الولاية الكبرى في موضع علم التصوف والطريقة ضمن علم الكلام وعلم العقيدة وأصول الدين؛ بحيث انتصرت على الضلالات الفلسفية التي تغلبت على تيار الحقيقة والطريقة في هذا العصر. والشاهد هو الواقع"[1].

ويستشهد الأستاذ النورسي رحمه الله على منهج رسائل النور وثمراتها بقول لإمام من أئمة التصوف هو الإمام الفاروقي السرهندي:

"لقد قال الإمام الرباني مجدد الألف الثاني أحمد الفاروقي السرهندي: "إن انكشاف حقيقة من حقائق الإيمان ووضوحها لهو أرجح عندي من ألف من الأذواق والكرامات. ثم إن غاية جميع الطرق الصوفية ومنتهاها إنما هي انكشاف الحقائق الإيمانية وانجلاؤها".

فما دام رائدا (!) عظيم للطريقة يحكم بهذا الحكم، فلابد أن "الكلمات" التي تبين بوضوح تام الحقائق الإيمانية والتي هي مترشحة من بحر الأسرار القرآنية تستطيع أن تعطي النتائج المطلوبة من الولاية"[2]".

الولاية الكبرى والاستمداد من القرآن الكريم:

---

(١) الملاحق ٢٧٥ – ٢٧٦.

(٢) المكتوبات ٤٥٧ .

يبين الأستاذ النورسي رحمه الله أن طريق رسائل النور يرجع بالوصول إلى الحقيقة إلى طريقة خير القرون، طريقة الولاية الكبرى التي تستمد من القرآن مباشرة:

"إن الصحابة الكرام والتابعين وتابعي التابعين - رضوان الله عليهم - ممن لهم أرفع المراتب، وحظوا بالولاية الكبرى، قد تلقت جميع لطائفهم حظها من القرآن مباشرة، فأصبح القرآن لهم مرشداً حقيقياً وكافياً، وهذا يعني ويدل على أن القرآن مثلما يعبر عن الحقائق في كل زمان فإنه يفيض بفيوضات الولاية الكبرى إلى من هو أهل لها في كل وقت"(١).

أهل العلم بين التصوف ورسائل النور

لقد تنبه الأستاذ النورسي رحمه الله إلى أمر مهم يتصل بالعلاقة بين أهل العلم والزوايا، وهي ظاهرة واضحة في تاريخنا، ومن خلال منهج رسائل النور القائم على حقائق الإيمان يرى الأستاذ النورسي رحمه الله أن الرسائل تعيد الأمر إلى نصابه وتنصف أهل العلم وتضعهم في المكان المناسب، ولنستمع إليه:

"لقد انقادت طائفة المدارس الشرعية لطائفة التكايا والزاوايا الصوفية منذ سالف العصور، أي سلّموا لهم القياد وراجعوهم للحصول على ثمار الولاية. وتحرّوا عندهم أذواق الإيمان وأنوار الحقيقة. حتى كان عالم كبير من

---

(١) المكتوبات ٤٥٩.

علماء المدرسة الشرعية يقبّل يد شيخ ولي صغير من أولياء الزاوية الصوفية ويتبعه، فطلبوا ذلك النبع الفياض بالماء الباعث على الحياة في التكايا والزوايا.

بينما أظهرت رسائل النور بالمعجزة المعنوية للقرآن الكريم - كما هو ماثل أمامكم - أن في المدارس الشرعية أيضاً طريقاً قصيرة توصل إلى أنوار الحقيقة، وفي العلوم الإيمانية ينبوع ثر هي أصفى وأنقى من غيرها. وأنه في العلم الشرعي، وفي الحقائق الإيمانية وعلم كلام أهل السنة، طريقاً للولاية هي أسمى وأحلى وأقوى من العمل والعبودية والطريقة الصوفية.

بينما يلزم - بل الألزم - سعي علماء المدرسة الشرعية لموالاة رسائل النور باعتزاز وشوق، فإن أكثرهم لا يعرفون - يا للأسف - أن هذا الكنز العظيم الباقي، وهذا النبع الفياض الباعث على الحياة، مُلك مدرستهم نفسها، ولا يبحثون عنه، ولا يحاولون الحفاظ عليه.

ولكن الآن ولله الحمد بدأت تباشير ذلك حيث جذبت مجموعة "الكلمات" العلماء والمعلمين معاً إلى الأنوار"[١].

موقع الكرامات في الرسائل:

إن مما يرتبط بالتصوف الكرامات وخوارق العادات التي تحصل لسالكي الطريقة، وربما تتطلع كثير من النفوس إليها وتنتسب للطريقة من أجلها، وها هو الأستاذ النورسي رحمه الله يبين موقف طلاب رسائل النور من تلك الكرامات، وهو بيان مبني على وضع الإخلاص نبراسا هاديا في الطريق،

---

(١) الملاحق ٢٠٨.

وإدراك للطبيعة البشرية وتطلعاتها، ومبني على وعي بحقيقة رسائل النور وأثرها في نفوس طلابها، وإدراك أولئك الطلاب حقيقتها ومعرفتهم ما يريدونه من نعيم باق في الآخرة لا عارض زائل في الدنيا:

"يقال: مادامت رسائل النور ذات كرامة، وتورث قارئيها رقياً في انكشاف حقائق الإيمان أكثر مما تورثه الطرق الصوفية، بل إن قسما من طلابها الصادقين هم أولياء صالحون من جهة، فلماذا لا تشاهد فيهم مظاهر وأذواق روحية وكشفيات معنوية وكرامات مادية ملموسة كالأولياء، فضلا عن أنهم لا يهتمون بمثل هذه الأمور ولا يتعقبونها. فما الحكمة في هذا؟ **الجواب:**

أولا: سببه سر الإخلاص إذ إن الأذواق والكرامات المؤقتة في الدنيا تصبح مقصودة بالذات لدى أولئك الذين لم يتمكنوا من قهر نفوسهم الأمارة بالسوء وتغدو لديهم هذه الأذواق داعيةً للقيام بأعمالهم الأخروية. وهذا مما يفسد الإخلاص، لأن الأعمال الأخروية لا يُتحرى فيها مقاصد دنيوية ولا يُسأل فيها عن أذواق. بل لو طُلبتْ فيها تلك الأذواق لفسد الإخلاص.

ثانياً: إن الكرامات والكشفيات إنما هي لبث الثقة في نفوس السالكين في الطريقة من الناس العوام الذين يملكون إيماناً تقليديا ولم يبلغوا مرتبة الإيمان التحقيقي، وهي أحيانا لتقوية الضعفاء ممن تساورهم الشكوك والشبهات. بينما الحجج التي تسوقها رسائل النور فيما يخص حقائق الإيمان لا تدع مجالا في أية جهة كانت لدخول الشبهات والأوهام، كما لا تدع داعياً للكرامات والكشفيات لتطمين القلب والإقتناع. فالإيمان التحقيقي الذي

تمنحه الرسائل هو أرفع بكثير من الكرامات والكشفيات والأذواق، لذا لا يتحرى طلاب رسائل النور الحقيقيون أمثال هذه الكرامات.

ثالثاً: إن أساسا من أسس رسائل النور هو: معرفة الشخص بقصوره في قرارة نفسه. والاندفاع إلى خدمة الإيمان بتفان ابتغاء لمرضاة الله وحده دون الالتفات إلى الآخرين. بينما الاختلاف الموجود فيما بين أهل الطريقة من أصحاب الكرامات والمتلذذين من الكشفيات ووجود شيء من الحسد والمنافسة فيما بينهم، ولاسيما في هذا العصر الذي عمت فيه الأنانية والغرور -كل ذلك- ساق أهل الغفلة إلى إساءة الظن بأولئك الطيبين المباركين واتهامهم بأنهم أنانيون.

ومن هنا نرى لماذا لا يسأل طلاب النور الكرامات والكشفيات لشخصهم ولماذا لا يلهثون وراء تلك الأمور، وكيف أن هذا الطور هو الألزم لهم والأوجب عليهم.

ثم إن في مسلك رسائل النور لا تعطى الأهمية للشخص حيث يكتفي الجميع بما نالت رسائل النور - من حيث المشاركة المعنوية والفناء في الإخوان - من آلاف الكرامات العلمية ومن يسر في نشر الحقائق الإيمانية، وبما يجد أولئك الطلاب من بركة في معايشهم.. وأمثالها من الإكرامات الإلهية.. لذا لا يفتشون عن كمالات وكرامات أخرى شخصية

رابعاً: من المعلوم أن مئات من رياض الدنيا لا توازي شجرة من أشجار الجنة، وذلك لأن الأولى فانية والثانية خالدة. وأن أحاسيس الإنسان المادية

وهي أحاسيس مطموسة تعجبها اللذة العاجلة، فتفضّل ثمرة حاضرة على روضة آجلة من رياض الجنة الباقية، لهذا لايسأل طلاب النور الأذواق الروحانية والكشفيات المعنوية في الدنيا. فلا تستغل النفس الأمارة هذه الحالة الفطرية في الإنسان"(١).

بين رسائل النور وكتب الأولياء السابقين:

كان الأستاذ النورسي رحمه الله يتابع طلاب النور الأوائل في كل شؤونهم ليضمن أنهم فقهوا حقيقة الرسائل وأدركوا قيمتها، وكان يبعث إليهم بملاحظاته ويتلقى منهم الأسئلة ويجيب عنها، ومن ذلك سؤال ورد إليه يقارن السائل فيه بين رسائل النور وكتب الأولياء السابقين ودواوين العلماء، وهذا السؤال يتلوه جواب الأستاذ الذي يجلو السبب الحقيقي الذي يولد في قلب قارئ رسائل النور شوقا دائما ولذة متجددة:

"سأل مطالعون بكثرة لكتب الأولياء ودواوين العلماء هذا السؤال:

لماذا يجد قارئ رسائل النور إيماناً وإذعاناً في قلبه ويشعر بشوق دائم ولذة جديدة أكثر بكثير مما يجده في تلك الكتب؟

الجواب:

إن قسمًا من مصنفات العلماء السابقين وأغلب الكتب القديمة للأولياء الصالحين تبحث في ثمار الإيمان و نتائجه و فيوضات معرفة الله سبحانه، ذلك

---

(١) الملاحق/ ٢٧١ – ٢٧٣.

لأنه لم يكن في عصرهم تحدّ واضح ولا هجوم سافر يقتلع جذور الإيمان وأسسه، إذ كانت تلك الأسس متينة ورصينة.

أما الآن فإن هناك هجوماً عنيفاً جماعياً منظماً على أركان الإيمان وأسسه، لا تستطيع أغلب تلك الكتب والرسائل التي كانت تخاطب الأفراد وخواص المؤمنين فقط أن تصد التيار الرهيب القوي لهذا الزمان، ولا أن تقاومه.

أما رسائل النور، فلكونها معجزة معنوية للقرآن الكريم فهي تنقذ أسس الإيمان وأركانه، لا بالاستفادة من الإيمان الراسخ الموجود، وإنما بإثبات الإيمان و تحقيقه وحفظه في القلوب وإنقاذه من الشبهات والأوهام بدلائل كثيرة وبراهين ساطعة. حتى حكم كل من ينعم النظر فيها: بأنها أصبحت ضرورية في هذا العصر كضرورة الخبز والدواء.

إن الدواوين والمؤلفات السابقة تقول:

كن ولياً وشاهد وارق في المقامات والدرجات، وأبصر وتناول الأنوار والفيوضات!.

بينما رسائل النور تقول: كن من شئت وأبصر! وافتح عينيك فحسب وشاهد الحقيقة وأنقذ إيمانك الذي هو مفتاح السعادة الأبدية"(١).

أقرب طريق إلى الله:

تحدث الأستاذ النورسي رحمه الله عما وصل إليه بفيض القرآن الكريم من

(١) الملاحق/ ١٠٤ – ١٠٥.

طريق إلى الله تعالى وصفه بأنه أقرب طريق إلى الله في أكثر من موضع من رسائل النور، وبين أن هذا الطريق مختلف عما هو مألوف في الطرق الصوفية بل هو كما قال أسرع وأوسع وأقصر وأسلم، فهو بديل عن تلك الطرق. ونجده يوازن بين خطوات هذا الطريق وما هو مألوف في الطرق الصوفية، وأورد في ما يأتي حديثه عن هذا الطريق كاملا من غير اختصار أو تدخل لأهمية كل كلمة قالها ليكون القارئ على بينة من هذا الطريق:

"للوصول إلى الله سبحانه وتعالى طرائق كثيرة، وسبل عديدة ومورد جميع الطرق الحقة ومنهل السبل الصائبة هو القرآن الكريم. إلا أن بعض هذه الطرق أقرب من بعض وأسلم وأعم.

وقد استفدت من فيض القرآن الكريم - بالرغم من فهمي القاصر - طريقاً قصيراً وسبيلاً سوياً هو:

طريق العجز، الفقر، الشفقة، التفكر.

نعم! إن العجز كالعشق طريق موصل إلى الله، بل أقرب وأسلم، إذ هو يوصل إلى المحبوبية بطريق العبودية.

والفقر مثله يوصل إلى اسم الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

وكذلك الشفقة كالعشق موصل إلى الله إلا أنه أنفذ منه في السير وأوسع منه مدى، إذ هو يوصل إلى اسم الله ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾.

والتفكر أيضاً كالعشق إلا أنه أغنى منه وأسطع نوراً وأرحب سبيلاً، إذ

هو يوصل السالك إلى اسم الله الحكيم" .

وهذا الطريق يختلف عما سلكه أهل السلوك في طرق الخفاء - ذات الخطوات العشر كاللطائف العشر - وفي طرق الجهر - ذات الخطوات السبع حسب النفوس السبعة - فهذا الطريق عبارة عن أربع خطوات فحسب، وهو حقيقة شرعية أكثر مما هو طريقة صوفية.

ولا يذهبن بكم سوء الفهم إلى الخطأ. فالمقصود بالعجز والفقر والتقصير إنما هو إظهار ذلك كله أمام الله سبحانه وليس إظهاره أمام الناس.

أما أوراد هذا الطريق القصير وأذكاره فتنحصر في اتباع السنة النبوية.. والعمل بالفرائض، ولا سيما إقامة الصلاة باعتدال الأركان والعمل بالأذكار عقبها.. وترك الكبائر. أما منابع هذه الخطوات من القرآن الكريم فهي:

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ **[النجم: ٣٢]** تشير إلى الخطوة الأولى.

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ ﴾ **[الحشر: ١٩]** تشير إلى الخطوة الثانية.

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ ﴾ **[النساء: ٧٩]** تشير إلى الخطوة الثالثة.

﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ **[القصص: ٨٨]**، تشير إلى الخطوة الرابعة.

وإيضاح هذه الخطوات الأربع بإيجاز شديد هو:

الخطوة الأولى:

كما تشير إليها الآية الكريمة ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ وهي: عدم تزكية النفس. ذلك لأن الإنسان حسب جبلّته، وبمقتضى فطرته، محبٌ لنفسه بالذات، بل لا يحب إلا ذاته في المقدمة. ويضحي بكل شيء من أجل نفسه، ويمدح نفسه مدحاً لا يليق إلا بالمعبود وحده، وينزّه شخصه ويبرئ ساحة نفسه، بل لا يقبل التقصير لنفسه أصلاً ويدافع عنها دفاعاً قوياً بما يشبه العبادة، حتى كأنه يصرف ما أودعه الله فيه من أجهزة لحمده سبحانه وتقديسه إلى نفسه، فيصيبه وصف الآية الكريمة: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ **[الفرقان: ٤٣]** فيعجب بنفسه ويعتد بها.. فلابد إذن من تزكيتها فتزكيتُها في هذه الخطوة وتطهيرها هي بعدم تزكيتها.

الخطوة الثانية:

كما تلقّنه الآية الكريمة من درس: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ ﴾. وذلك: أن الإنسان ينسى نفسه ويغفل عنها، فإذا ما فكر في الموت صرفه إلى غيره، وإذا ما رأى الفناء والزوال دفعه إلى الآخرين، وكأنه لا يعنيه بشيء، إذ مقتضى النفس الأمارة أنها تذكر ذاتها في مقام أخذ الأجرة والحظوظ وتلتزم بها بشدة، بينما تتناسى ذاتها في مقام الخدمة والعمل والتكليف. فتزكيتها وتطهيرها وتربيتها في هذه الخطوة هي: العمل بعكس هذه الحالة، أي عدم النسيان في عين النسيان، أي نسيان النفس في الحظوظ

والأجرة، والتفكر فيها عند الخدمات والموت.

والخطوة الثالثة:

هي ما ترشد إليه الآية الكريمة: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ وذلك: أن ما تقتضيه النفس دائماً أنها تنسب الخير إلى ذاتها، مما يسوقها هذا إلى الفخر والعجب. فعلى المرء في هذه الخطوة أن لا يرى من نفسه إلا القصور والنقص والعجز والفقر، وأن يرى كل محاسنه وكمالاته إحساناً من فاطره الجليل، ويتقبلها نعماً منه سبحانه، فيشكر عندئذ بدل الفخر ويحمد بدل المدح والمباهاة. فتزكية النفس في هذه المرتبة هي في سر هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ **[الشمس: ٩]**.

وهي أن تعلم بأن كمالها في عدم كمالها، وقدرتها في عجزها، وغناها في فقرها، (أي كمال النفس في معرفة عدم كمالها، وقدرتها في عجزها أمام الله، وغناها في فقرها إليه).

الخطوة الرابعة:

هي ما تعلمه الآية الكريمة: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ﴾ . ذلك لأن النفس تتوهم نفسها حرة مستقلة بذاتها، لذا تدّعي نوعاً من الربوبية، وتضمر عصيانا حيال معبودها الحق. فبإدراك الحقيقة الآتية ينجو الإنسان من ذلك وهي: كل شيء بحد ذاته، وبمعناه الاسمي: زائلٌ، مفقود، حادث، معدوم، إلا أنه في معناه الحرفي، وبجهة قيامه بدور المرآة العاكسة لأسماء الصانع الجليل،

وباعتبار مهامه ووظائفه: شاهد، مشهود، واجد، موجود.

فتزكيتها في هذه الخطوة هي معرفة: أن عدمها في وجودها ووجودها في عدمها، أي إذا رأت ذاتها وأعطت لوجودها وجوداً، فإنها تغرق في ظلمات عدم يسع الكائنات كلها. يعني إذا غفلت عن موجدها الحقيقي وهو الله، مغترة بوجودها الشخصي فإنها تجد نفسها وحيدة غريقة في ظلمات الفراق والعدم غير المتناهية، كأنها اليراعة في ضيائها الفردي الباهت في ظلمات الليل البهيم. ولكن عندما تترك الأنانية والغرور ترى نفسها حقاً أنها لا شيء بالذات، وإنما هي مرآة تعكس تجليات موجدها الحقيقي. فتظفر بوجود غير متناه وتربح وجود جميع المخلوقات.

نعم، من يجد الله فقد وجد كل شيء فما الموجودات جميعها إلا تجليات أسمائه الحسنى جل جلاله.

خاتمة

إن هذا الطريق الذي يتكون من أربع خطوات وهي العجز والفقر والشفقة والتفكر، قد سبقت إيضاحاته في "الكلمات الست والعشرين" السابقة من كتاب "الكلمات" الذي يبحث عن علم الحقيقة، حقيقة الشريعة، حكمة القرآن الكريم. إلا أننا نشير هنا إشارة قصيرة إلى بضع نقاط وهي: أن هذا الطريق هو أقصر وأقرب من غيره، لأنه عبارة عن أربع خطوات. فالعجز إذا ما تمكن من النفس يسلّمها مباشرة إلى "القدير" ذي الجلال.بينما إذا تمكن العشق من النفس – في طريق العشق الذي هو أنفذ الطرق الموصلة إلى الله –

فإنها تتشبث بالمعشوق المجازي، وعندما ترى زواله تبلغ المحبوب الحقيقي.

ثم إن هذا الطريق أسلم من غيره، لأن ليس للنفس فيه شطحات أو ادعاءات فوق طاقتها، إذ المرء لا يجد في نفسه غير العجز والفقر والتقصير كي يتجاوز حده.

ثم إن هذا الطريق طريق عام وجادة كبرى، لأنه لا يضطر إلى إعدام الكائنات ولا إلى سجنها، حيث إن أهل "وحدة الوجود" توهموا الكائنات عدماً، فقالوا: "لا موجود إلا هو" لأجل الوصول إلى الاطمئنان والحضور القلبي. وكذا أهل "وحدة الشهود" حيث سجنوا الكائنات في سجن النسيان فقالوا: "لا مشهود إلا هو" للوصول إلى الاطمئنان القلبي.

بينما القرآن الكريم يعفو الكائنات بكل وضوح عن الإعدام ويطلق سراحها من السجن، فهذا الطريق على نهج القرآن ينظر إلى الكائنات أنها مسخرة لفاطرها الجليل وخادمة في سبيله، وأنها مظاهر لتجليات الأسماء الحسنى كأنها مرايا تعكس تلك التجليات. أي أنه يستخدمها بالمعنى الحرفي ويعزلها عن المعنى الاسمي من أن تكون خادمة ومسخرة بنفسها. وعندها ينجو المرء من الغفلة، ويبلغ الحضور الدائمي على نهج القرآن الكريم. فيجد إلى الحق سبحانه طريقاً من كل شيء.

وزبدة الكلام: إن هذا الطريق لا ينظر إلى الموجودات بالمعنى الاسمي، أي لا ينظر إليها أنها مسخرة لنفسها ولذاتها، بل يعزلها من هذا ويقلدها وظيفة،

إنها مسخرة لله سبحانه" [١].

خلاصة القول: إن رسائل النور لا تلغي ما سواها من القوافل السائرة إلى الله تعالى، وعلى رأس كل قافلة إمام مجدد، أو داعية، ويستطيع أصحاب المشارب المختلفة أن يستفيدوا من رسائل النور، ولكن إن أصبحت طالب نور ففي رسائل النور كفاية أو غنية عما سواها، فلا تمدن عينيك إلى خارجها وإلا فإنك لست طالب نور.

صورة الموت في رسائل النور

مقدمة:

للموت صورة مخيفة لدى كثير من الناس، يستوي في تلك الصورة المخيفة بعض المؤمنين بالآخرة والكافرون بها، مع اختلاف بين الفريقين.

فأما المؤمنون فيحزن بعضهم للفراق الذي يتصورونه طويلا، والمصير الذي لا يعلمونه لأنفسهم ولمن فقدوه بالموت، ويلح عليهم سؤال: هل يكون لقاء في الجنة إن تجلى كرم الله أم يكون فريق في الجنة وفريق في السعير ؟

ويغذي هذا الشعور وهذا الموقف من بعض المؤمنين اتجاه كثير من الوعاظ إلى عدم التفريق بين المؤمنين والكافرين في حديثهم عن الموت الذي يغلب عليه

---

(١) الكلمات ٥٥٨-٥٦١.

الترهيب حتى يظن المؤمنون أن ما ورد من الوعيد الشديد للكافرين يشملهم، ويخطئ الذين يتحدثون بهذا المنطق لأنهم يغفلون ما بينه القرآن الكريم في آيات كثيرة من تفاوت المصير بين المؤمنين والكافرين، ومنها على سبيل المثال:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ **[الجاثية: ٢١]** .

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ **[السجدة: ١٨]**.

﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ **[الحشر: ٢٠]**.

ذلك شأن بعض المؤمنين مع الموت، وأما غير المؤمنين بالله فالموت لهم حقيقة الحقائق لكنهم يقفون معه أمام سد لا باب له، وأنى لهم أن يعلموا ما وراءه وقد أطفؤوا نور الإيمان الذي يكشف الوجود كله غيبا وشهادة، دنيا وآخرة ؟

قضية الموت تشغل في رسائل النور حيزا كبيرا، ونجد الأستاذ النورسي رحمه الله يعرض أدق التفاصيل الخاصة به وأعمقها، ويبحثه من جوانب متعددة، مما يجعل من الممكن استخلاص كتاب في الموت من الرسائل أو كتابة رسالة جامعية فيه .

وأقول قول المطمئن: إن الذي يقرأ بتدبر ما ورد في رسائل النور حول الموت، ويقبل على نور الإيمان يضيء به حياته، وعلى صالح العمل يتخذه زادا، الذي يفعل ذلك سيحب الموت بل سيحب ملك الموت وتزول من نفسه الرهبة

من الموت وملكه، إلا أن تكون له رغبة في الحياة الدنيا طلبا للمزيد من صالح العمل، ومن معرفة تجليات أسماء الله تعالى في الوجود .

التفكر في الموت وولادة سعيد الجديد:

الأستاذ النورسي رحمه الله امتلك قلب شاعر، وعيني فنان، وريشة رسام، وعقل عالم مفكر عبقري، ونظرة فيلسوف مدقق. كل ذلك جعل من نظراته في الوجود وسياحته في الكون منارة لقراء رسائل النور يعيشون تجربته لكن من غير متاعبها، ويجنون ثمراتها، لكن من غير خوض للغمرات التي خاضها. وها نحن معه في رحلة تفكر وتدبر مع الموت، رحلة كان أكبر ثمراتها تحوله من سعيد القديم إلى سعيد الجديد، ذلك التحول الذي كان من نعم الله علينا في هذا العصر حيث ولد منه وفيه رسائل النور، وأظن أننا لن نمل من السير إلى جنب أستاذنا وهو يقص علينا رحلته بل ونحن ننظر إليها من خلال عينيه الوقادتين، ونسمع دقات قلبه المتفاعل مع تسبيح الكون من حولنا، وهو ينوب عنا في استكشاف ألغاز الكون، والبحث عن إجابات مقنعة له أولا ثم لنا ثانيا .

مر الأستاذ النورسي رحمه الله، بحالة من الصحو الروحي يوم كان أسيرا في روسيا، تجلت له فيها حقيقة الحياة والموت، لكن تلك الحالة تراجعت عند عودته من الأسر وتكريمه في إستانبول، ثم رجعت من جديد في صورة أقوى جعلته يمر في أزمة حقيقية بحث فيها عن مخرج، وتمسك بما تجلى له فيها من أنوار في رحلة عقلية قلبية هزت كيانه وغيرت مسار حياته . وقد سجل لنا تفاصيل ذلك الحوار الداخلي بينه وبين الوجود وما يتجلى فيه من تبدل بالموت، وبينه وبين عقله

وقلبه وهما يتلقيان رسائل الموجودات القادمة إلى الحياة والمغادرة إلى الموت، كان ذلك الحوار كما يصوره الأستاذ مرهقا محرقا، لكنه انبلج عن صبح الحقيقة. وها نحن نصغي إلى حوار الأستاذ مع الشيب نذير الهرم، الذي يؤذن بقرب النهاية المحتومة!:

"حينما أفقت على صبح المشيب، من نوم ليل الشباب، نظرت إلى نفسي متأملاً فيها، فوجدتها كأنها تنحدر سعياً من علٍ إلى سواء القبر، مثلما وصفها نيازي المصري:

بناء العمر يـذوي حجـراً إثـر حجـر غافلاً يغط الروح وبناؤه قـد انـدثر

فجسمي الذي هو مأوى روحي، بدأ يتداعى ويتساقط حجراً إثر حجر على مرّ الأيام.. وآمالي التي كانت تشدّني بقوة إلى الدنيا، بدأت أوثاقها تنفصم وتنقطع. فدب فيّ شعور بدنو وقت مفارقة من لا يحصى من الأحبة والأصدقاء، فأخذت أبحث عن ضماد لهذا الجرح المعنوي الغائر، الذي لا يرجى له دواء ناجع كما يبدو!. لم أستطع أن أعثر له على علاج، فقلت أيضاً كما قال نيازي المصري:

حكمة الإله تقضي فناء الجسـد والقلـب تـوّاق إلى الأبـد

لهـف نفسـي مـن بـلاء وكمـد حار لقمـان في إيجـاد الضـمد

وبينما كنت في هذه الحالة إذا بنور الرسول الكريم (ﷺ) الذي هو رحمة الله على العالمين، ومثالها الذي يعبّر عنها، والداعي إليها، والناطق بها، وإذا بشفاعته،

وبما أتاه من هدية الهداية إلى البشرية، يصبح بلسماً شافياً، ودواءً ناجعاً لذلك الداء الوخيم الذي ظننته بلا دواء، ويبدل ذلك اليأس القاتم الذي أحاطني إلى نور الرجاء الساطع.

وحينما وطأت قدماي عتبة الشيخوخة، كانت صحتي الجسدية التي ترخي عنان الغفلة وتمدّها قد اعتلّت أيضاً فاتفقت الشيخوخة والمرض معاً على شن الهجوم عليّ، وما زالا يكيلان على رأسي الضربات تلو الضربات حتى أذهبا نوم الغفلة عنّي . ولم يكن لي ثمة ما يربطني بالدنيا من مال وبنين وما شابههما، فوجدت أن عصارة عمري الذي أضعته بغفلة الشباب، إنما هي آثام وذنوب، فاستغثتُ صائحاً مثلما صاح نيازي المصري:

ذهب العُمر هباءً، لم أفز فيه بشيء
ولقد جئتُ أسير الدرب، لكنْ
رحل الرّكبُ بعيداً
وبقيتْ
ذلك النائي الغريب
وبكيتْ
همتُ وحدي تائهاً أطوي الطريق
وبعينيّ ينابيع الدموع
وبصدري حرقة الشوق

حار عقلي ..!

كنت حينها في غربة مضنية، فشعرت بحزن يائس، وأسف نادم، وحسرة ملتاعة على ما فات من العمر . صرخت من أعماقي أطلب إمداد العون، وضياء الرجاء .. وإذا بالقرآن الحكيم المعجز البيان يمدّني، ويسعفني، ويفتح أمامي باب رجاء عظيم، ويمنحني نوراً ساطعاً من الأمل والرجاء يستطيع أن يزيل أضعاف أضعاف يأسي، ويمكنه أن يبدد تلك الظلمات القاتمة من حولي .

نعم ! إنني مصداق لما قيل :

وعيني قد نامت بليلِ شبيبتي   ولم تنتبه إلاّ بصبح مَشيب

إذ أشد أوقات انتباهي في شبيبتي رأيته الآن أعمقَ طبقات نومي ...

فحينما خالط بعض شعرات رأسي البياض الذي هو علامة الشيخوخة، وكانت أهوال الحرب العالمية الأولى وما خلفه الأسر لدى الروس من آثار عميقة في حياتي عمّقت فيّ نوم غفلة الشباب. وتلا ذلك استقبال رائع عند عودتي من الأسر إلى إستانبول، سواء من قبل الخليفة أو شيخ الإسلام، أو القائد العام، أو من قبل طلبة العلوم الشرعية، وما قوبلت به من تكريم وحفاوة أكثر مما استحق بكثير .. كل ذلك ولّد عندي حالة روحية فضلاً عن سكرة الشباب وغفلته، وعمّقتْ فيّ ذلك النوم أكثر، حتى تصورت معها أن الدنيا دائمة باقية، ورأيت نفسي في حالة عجيبة من الالتصاق بالدنيا كأنني لا أموت .

ففي هذا الوقت، ذهبت إلى جامع بايزيد في إستانبول، وذلك في شهر

رمضان المبارك لأستمع للقرآن الكريم من الحفاظ المخلصين فاستمعت من لسان أولئك الحفاظ ما أعلنه القرآن المعجز بقوة وشدة، خطابه السماوي الرفيع في موت الإنسان وزواله، ووفاة ذوي الحياة وموتهم، وذلك بنص الآية الكريمة:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ **[آل عمران: ١٨٥]**.

نفذ هذا الإعلان الداوي إلى صماخ أذني مخترقاً وممزقاً طبقات النوم والغفلة والسكرة الكثيفة الغليظة حتى استقر في أعماق أعماق قلبي .

خرجت من الجامع، رأيت نفسي لبضعة أيام، كأن إعصاراً هائلاً يضطرم في رأسي بما بقي من آثار ذلك النوم العميق المستقر فيّ منذ أمد طويل، ورأيتني كالسفينة التائهة بين أمواج البحر المضطربة البوصلة. كانت نفسي تتأجج بنار ذات دخان كثيف .. وكلما كنت أنظر إلى المرآة، كانت تلك الشعرات البيضاء تخاطبني قائلة: انتبه !!!

نعم إن الأمور توضحت عندي بظهور تلك الشعرات البيضاء وتذكيرها إياي، حيث شاهدت أن الشباب الذي كنت أغتر به كثيراً، بل كنت مفتوناً بأذواقه يقول لي: **الوداع!** وأن الحياة الدنيا التي كنت أرتبط بحبها بدأت بالانطفاء رويداً رويداً، وبدت لي الدنيا التي كنت أتشبث بها، بل كنت مشتاقاً إليها وعاشقاً لها، رأيتها تقول لي: الوداع!! الوداع!! مشعرة إياي، بأنني سأرحل من دار الضيافة هذه، وسأغادرها عما قريب. ورأيتها – أي الدنيا – هي الأخرى تقول: الوداع، وتتهيأ للرحيل. وانفتح إلى القلب من كلية هذه الآية الكريمة

﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ ومن شموليتها، ذلك المعنى الذي يتضمنها وهو:

إن البشرية قاطبة إنما هي كالنفس الواحدة، فلا بد أنها ستموت كي تبعث من جديد، وإن الكرة الأرضية كذلك نفسٌ فلا بد أنها سوف تموت ويصيبها البوار كي تتخذ هيأة البقاء وصورة الخلود، وإن الدنيا هي الأخرى نفسٌ وسوف تموت وتنقضي كي تتشكل بصورة (آخرة).

فكرت فيما أنا فيه؛ فرأيت: أن الشباب الذي هو مدار الأذواق واللذائذ، ذاهب نحو الزوال، تارك مكانه للشيخوخة التي هي منشأ الأحزان. وأن الحياة الساطعة الباهرة لفي ارتحال، ويتهيأ الموت المظلم المخيف- ظاهراً - ليحل محلها.

ورأيت الدنيا التي هي محبوبة وحلوة ومعشوقة الغفاة ويُظن أنها دائمة، رأيتها تجري مسرعة إلى الفناء . ولكي أنغمس في الغفلة وأخادع نفسي ولّيت نظري شطر أذواق المنزلة الاجتماعية ومقامها الرفيع الذي حظيت به في إستانبول والذي خُدعت به نفسي وهو فوق حدي وطوقي من حفاوة وإكرام وسلوان وإقبال وإعجاب.. فرأيت أن جميعها لا تصاحبني إلاّ إلى حد باب القبر القريب مني، وعنده تنطفئ .

ورأيت أن رياءً ثقيلاً، وأثرة باردة وغفلة مؤقتة، تكمن تحت الستار المزركش للسمعة والصيت، التي هي المثل الأعلى لأرباب الشهرة وعشاقها، ففهمت أن هذه الأمور التي خدعتني حتى الآن لن تمنحني أي سلوان، ولا يمكن أن أتلمس فيها أي قبس من نور .

ولكي أستيقظ من غفلتي مرة أخرى وأنتبه منها نهائياً، بدأت بالاستماع كذلك لأولئك الحفاظ الكرام في جامع بايزيد لأتلقى الدرس السماوي للقرآن الكريم.. وعندها سمعت بشارات ذلك الإرشاد السماوي من خلال الأوامر الربانية المقدسة في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ....﴾ **[البقرة: ٢٥]**.

وبالفيض الذي أخذته من القرآن الكريم تحريت عن السلوة والرجاء والنور في تلك الأمور التي أدهشتني وحيّرتني وأوقعتني في يأس ووحشة، دون البحث عنها في غيرها من الأمور . فألف شكر وشكر للخالق الكريم على ما وفقني لان أجد الدواء في الداء نفسه، وأن أرى النور في الظلمة نفسها، وأن اشعر بالسلوان في الألم والرعب ذاتهما، فنظرت أول ما نظرت إلى ذلك الوجه الذي يُرعب الجميع ويُتوهم أنه مخيف جداً.. وهو وجه الموت فوجدت بنور القرآن الكريم، أن الوجه الحقيقي للموت بالنسبة للمؤمن صبوح منور، على الرغم من أن حجابه مظلم والستر الذي يخفيه يكتنفه السواد القبيح المرعب وقد أثبتنا وأوضحنا هذه الحقيقة بصورة قاطعة في كثير من الرسائل وبخاصة في الكلمة الثامنة والمكتوب العشرين من أن الموت ليس إعداماً نهائياً، ولا فراقاً أبدياً، وإنما مقدمة وتمهيد للحياة الأبدية وبداية لها. وهو إنهاء لأعباء مهمة الحياة ووظائفها ورخصة منها وراحة وإعفاء، وهو تبديل مكان بمكان، وهو وصال ولقاء مع قافلة الأحباب الذين ارتحلوا إلى عالم البرزخ.. وهكذا، بمثل هذه الحقائق شاهدت وجه الموت المليح الصبوح. فلا غرو لم أنظر إليه خائفاً وجلاً، وإنما نظرت إليه بشيء من الاشتياق – من جهة – وعرفت في حينها سراً من أسرار

رابطة الموت التي يزاولها أهل الطرق الصوفية"[١].

وها هو الأستاذ النورسي رحمه الله يعطينا المزيد من التفاصيل من حواره الداخلي حول الموت ومعه، وما كان من آثار مرهقة لذلك الحوار وما كان له من ثمرات أزالت المخاوف من الموت، ونتج عنها سعيد الجديد ورسائل النور التي حلت كثيرا من الألغاز التي أعيت كثيرا من العلماء،يقول الأستاذ رحمه الله:

"بعدما رجعت من الأسر، سيطرت الغفلة عليّ مرة أخرى طوال سنتين من حياتي في إستانبول، حيث الأجواء السياسية وتياراتها صرفت نظري عن التأمل في نفسي، وأحدثت تشتتاً في ذهني وفكري. فحينما كنت جالساً ذات يوم في مقبرة أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه وعلى مرتفع مطلّ على وادٍ سحيق، مستغرقاً في تأمل الآفاق المحيطة بإستانبول، إذا بي أرى كأن دنياي الخاصة أوشكت على الوفاة، حتى شعرت – خيالاً – كأن الروح تنسل منها انسلالاً من بعض نواحيّ. فقلت:"ترى هل الكتابات الموجودة على شواهد هذه القبور هي التي دعتني إلى هذا الخيال ؟.

أشحتُ نظري عن الخارج وأمعنت النظر في المقبرة دون الآفاق البعيدة فألقي في روعي: أن هذه المقبرة المحيطة بك تضم مائة إستانبول! حيث إن إستانبول قد أفرغت فيها مائة مرة، فلن تُستثنى أنت وحدك من حكم الحاكم القدير الذي أفرغ جميع أهالي إستانبول هنا، فأنت راحل مثلهم لا محالة..!

---

(١) سيرة ذاتية ١٥٢ – ١٥٦.

غادرت المقبرة وأنا أحمل هذا الخيال المخيف، ودخلت الغرفة الصغيرة في محفل جامع أبي أيوب الأنصاري ﷺ والتي كنت أدخلها مراراً في السابق فاستغرقت في التفكير في نفسي: إنما أنا ضيف! وضيف من ثلاثة أوجه؛ إذ كما أنني ضيف في هذه الغرفة الصغيرة، فأنا ضيفٌ كذلك في إستانبول، بل أنا ضيف في الدنيا وراحل عنها كذلك، وعلى المسافر أن يفكر في سبيله ودربه .

نعم، كما أنني سوف أخرج من هذه الغرفة وأغادرها، فسوف أترك إستانبول ذات يوم وأغادرها، وسوف أخرج من الدنيا كذلك .

وهكذا جثمت على قلبي وفكري وأنا في هذه الحالة، حالة أليمة محزنة مكدّرة. فلا غرو أنني لا أترك أحباباً قليلين وحدهم، بل سأفارق أيضاً آلاف الأحبة في إستانبول، بل سأغادر إستانبول الحبيبة نفسها وسأفترق عن مئات الآلاف من الأحبة كما أفترق عن الدنيا الجميلة التي ابتلينا بها .

ذهبتُ إلى المكان المرتفع نفسه في المقبرة مرة أخرى، فبدا لي أهالي إستانبول، جنائز يمشون قائمين مثلما يظهر الذين ماتوا شخوصاً متحركة في الأفلام السينمائية، فقد كنت أتردد إليها أحياناً للعبرة! فقال لي خيالي: ما دام قسم من الراقدين في هذه المقبرة يمكن أن يظهروا متحركين كالشخوص السينمائية، ففكّر في هؤلاء الناس كذلك أنهم سيدخلون هذه المقبرة حتماً، واعتبرهم داخلين فيها من الآن.

وبينما كنت أتقلب في تلك الحالة المحزنة المؤلمة إذا بنور من القرآن الحكيم وبإرشاد من الشيخ الكيلاني (قدس سرّه) يقلب تلك الحالة المحزنة ويحولها إلى

حالة مفرحة مبهجة، ذات نشوة ولذة، حيث ذكّرني النور القادم من القرآن الكريم ونبهني إلى ما يأتي: كان لك صديق أو صديقان من الضباط الأسرى عند أسرك في قوصترما في شمال شرقي روسيا، وكنتَ تعلم حتماً أنهما سيرجعان إلى إستانبول. ولو خَيّرك أحدهما قائلاً: أتذهب إلى إستانبول أم تريد أن تبقى هنا؟. فلا جرم أنك كنت تختار الذهاب إلى إستانبول لو كان لك مسكة من عقل، بفرح وسرور حيث إن تسعمائة وتسعة وتسعين من ألف حبيب وحبيب لك هم الآن في إستانبول، وليس لك هنا إلا واحد أو اثنان، وهم بدورهم سيرحلون إلى هناك. فالذهاب إلى إستانبول بالنسبة لك إذن ليس بفراق حزين، ولا بافتراق أليم .. وها أنتذا قد أتيت إليها، ألم تصبح راضياً شاكراً؟ فلقد نجوتَ من بلد الأعداء، من لياليها الطوال السوداء، ومن شتائها القارس العاصف، وقدمت إستانبول الزاهية الجميلة، كأنها جنة الدنيا!. وهكذا الأمر حيث إن تسعاً وتسعين من مائة شخص ممن تحبهم منذ صغرك حتى الآن، قد ارتحلوا إلى المقبرة. تلك التي تبدو لك موحشة مدهشة، ولم يظل منهم في هذه الدنيا إلاّ واحد أو اثنان، وهم في طريقهم إليها كذلك. فوفاتك في الدنيا إذن ليست بفراق، ولا بافتراق، وإنما هي وصال ولقاء مع أولئك الأحبة الأعزاء.

نعم إن أولئك - أي الأرواح الباقية - قد تركوا مأواهم وعشهم المندرس تحت الأرض، فيسرح قسم منهم بين النجوم، وقسم آخر بين طبقات عالم البرزخ.

وهكذا ذكّرني ذلك النور القرآني.. ولقد أثبت هذه الحقيقة إثباتاً قاطعاً كلٌّ

من القرآن الكريم، والإيمان، بحيث مَن لم يفقد قلبه وروحه، أو لم تغرقه الضلالة لا بد أن يصدق بها كأنه يراها؛ ذلك لأن الذي زيّن هذه الدنيا بأنواع ألطافه التي لا تحد وبأشكال آلائه التي لا تُعد مُظهراً بها ربوبيته الكريمة الرؤوف، حفيظاً حتى على الأشياء الصغيرة الجزئية جداً - كالبذور مثلاً - ذلك الصانع الكريم الرحيم، لا بد - بل بالبداهة - لا يُفني هذا الإنسان الذي هو أكمل مخلوقاته وأكرمها وأجمعها وأهمّها وأحبها إليه، ولا يمحوه بالفناء والإعدام النهائي، بلا رحمة وبلا عاقبة - كما يبدو ظاهراً - ولا يضيّعه ابداً.. بل يضع الخالق الرحيم ذلك المخلوق المحبوب تحت التراب الذي هو باب الرحمة موقتاً، كي يعطي ثماره في حياة أخرى، كما يبذر الفلاح البذور على الأرض .

وبعد أن تلقيت هذا التنبيه القرآني، باتت تلك المقبرة عندي مؤنسة أكثر من إستانبول نفسها، وأصبحت الخلوة والعزلة عندي أكثر لطافة من المعاشرة والمؤانسة، مما حدا بي أن أجد مكاناً للعزلة في صارى ير على البسفور . وأصبح الشيخ الكيلاني ﷺ أستاذاً لي وطبيباً ومرشداً بكتابه فتوح الغيب، وصار الإمام الرباني ﷺ كذلك بمثابة أستاذ أنيس ورؤوف شفيق بكتابه مكتوبات فأصبحت راضياً كلياً وممتنّاً من دخولي المشيب، ومن عزوفي عن مظاهر الحضارة البراقة ومتعها الزائفة، ومن انسلالي من الحياة الاجتماعية وانسحابي منها، فشكرت الله على ذلك كثيراً"[١].

لم يكن التفكر في الموت والحوار مع الكائنات والسعي إلى حل اللغز الذي

---

(١) سيرة ذاتية ١٥٨ – ١٦٠.

أرهق البشر، لم يكن ذلك حالة عارضة أو موقفا مر سريعا، بل كان حالة امتدت حتى شملت الوجود كله، والكائنات جميعها، فهي شريكة في الوجود والموت، وحل لغزها يسهم في حل اللغز العام، وها هو الأستاذ النورسي رحمه الله يعطينا صفحة جديدة من صفحات التفكر في هذا اللغز الإنساني:

"كنت يوماً على قمة جبل، تراءى لي القبر بكل معناه، وبدا لي الموت بكل حقائقه، وظهر لي الزوال والفناء بلوحاته الحزينة المبكية، وذلك بوساطة يقظة روحية بددت ظلمة الغفلة . فاحتدّ عشق البقاء المغروز في فطرتي – كما هو في الآخرين – احتدّ غاضباً أمام هذا المنظر، فشق عصا الطاعة إزاء الزوال. وفار ما فيّ من العطف على بني الجنس والرأفة على نوع البشر وطغى إزاء القبر وفناء الأنبياء المكرمين وأهل الفضل الموقرين من الأولياء والأصفياء، الذين أكنّ لهم حباً شديداً وتبجيلاً عظيماً وتقديراً لائقاً وأرتبط بهم بعلاقة وثيقة .

وإزاء هذا الأمر توجهت إلى الجهات الست لأستمدّ منها العون. فلم أجد ما يسلّيني أبداً. حيث إن جهة الماضي قد تحولت إلى مقبرة كبرى واسعة، وجهة المستقبل مظلم مخيف، وجهة الفوق مخيفة رهيبة، وجهة الأسفل وكذا اليمين والشمال كلها جهات تورث حالات أليمة حزينة. فرأيت كأن الأشياء المضرة التي لا تحد تنقض عليّ انقضاضاً، فأغاثني سر التوحيد من حالتي التي كنت فيها ورفع الستار من أمام بصيرتي وأراني حقيقة هذه الجهات قائلاً: انظر! فنظرت أول مانظرت إلى وجه الموت المخيف. ورأيت أن الموت لأهل الإيمان تسريح من الوظيفة، والأجل هو بطاقته. فالموت إذن تبديل مكان، ومقدمة لحياة باقية، وباب

إليها. وهو انطلاق من سجن الدنيا إلى بساتين الآخرة. وهو انتظار زمن الوصول إلى ديوان الرحمن الرحيم لاستلام أجرة العمل، وهو دعوة إلى دار السعادة. ولما فهمت حقيقة الموت فهماً يقيناً أحببته.

ثم نظرت إلى الزوال والفناء، ورأيت: أن زوال الأشياء إنما هو تجديد لها ولأمثالها، فهو تجديد ممتع ملذ، شبيه بتجدد مشاهد السينما وشبيه بتجدد جمال حباب النهر الجاري تحت ضوء الشمس. لذا علمت يقيناً أن زوال الأشياء وفناءها إنما هو تجديد للتجليات الجميلة للأسماء الحسنى، ووظيفة يؤديها ضمن سير وتجوال في عالم الشهادة بعد مجيئها من عالم الغيب، وهو مظاهر حكيمة لجمال الربوبية، فالموجودات تؤدي به وظيفة المرآة إزاء الحسن السرمدي.

ثم نظرت إلى الجهات الست ورأيت: أنها نورانية بسر التوحيد بل نورانية إلى حد يكاد سنا نورها يخطف بالأبصار. حتى رأيت أن الزمان الماضي لم يعد مقبرة عظيمة بل انقلب إلى المستقبل ليكون مجالس نورانية ومجامع أحباب ومناظر نورانية تزيد على الألوف.

وهكذا على غرار هاتين المادتين نظرت إلى الوجوه الحقيقية لألوف المواد. ورأيت أنها لا تورث إلاّ السرور والفرح(١).

ويمضي الأستاذ في رحلة التفكر مع الموت، ولا نجده يستبعده أو يتجاهله أو يتناساه، كما يفعل كثير من الناس حتى من الدعاة وأهل العلم الديني، بل يتعامل مع الموت القادم باعتباره حقيقة حاضرة ويواجهه بحواس مفتوحة وعقل واع

---

(١) الشعاعات ٢٠ -٢١.

وقلب مستبصر:

"قلت ذات يوم: "إنني لا بد – كأي فرد كان – داخل لا محالة في القبر .. فدخلت إليه خيالا: وفيما كنت أستوحش يائسا من سجن القبر الانفرادي، ومن تجردي المطلق من كل شيء، وحيداً دون معين، في ذلك المكان الضيق المظلم البارد، إذا بصديقين كريمين من طائفة "المنكر والنكير" قد برزا وجاءا إليّ وبدءا بالمناظرة معي .. وسّعا كلا من قلبي وقبري، فاستضاءا وتدفئا، وفُتحت شبابيك نوافذ مطلة على عالم الأرواح .. سُررت من أعماق روحي وشكرت الله كثيرا على ما رأيت من الأوضاع التي ستتحقق حتما في المستقبل وإن كنت أراها الآن خيالا[١].

في ضوء هذه التجربة العميقة التي صهرت سعيدا القديم ونتج عنها سعيد الجديد نجد في رسائل النور صورة خاصة للموت، صورة تتجاوز الشائع المألوف لا عند عامة الناس بل ربما عند بعض خاصتهم من العلماء !

رسائل النور تبين أن الإنسان في رحلة امتحان وابتلاء طويلة تنطلق من عالم الارواح مارةً من رحم الأم ومن الطفولة والصبا ثم من الشيخوخة ومن الدنيا ثم من القبر والبرزخ ومن الحشر والصراط "[٢].

وتبين أن الموت حق ولا بد منه لأن مكونات الجسم البشري تقتضيه، يقول الأستاذ النورسي رحمه الله:

---

(١) الشعاعات ٣٢١ .

(٢) انظر: الكلمات ص ٢٨.

"الموت حق" فهذه الحياة وهذا البدن، ليسا بقابلين لأن يصيرا عمودَين تُبنى عليهما هذه الدنيا العظيمة ؛ إذ ما هما بأبديين ولا من حديد ولاحجر بل من لحم ودم وعظم، ومتخالفات توافقوا في أيام قليلة هم على جناح التفرق في كل آن.. فكيف يُبنى بالآمال قصرٌ يسع الدنيا على هذا الاساس الرخو الفاسد والعمود المدَوّد الكاسد"(١)..

وما دام الجسد الإنساني غير مهيأ للخلود في هذه الأرض فلا بد أن يدرك الإنسان حقيقة وجوده:

"وأما أنت هنا الآن؛ فمسافرٌ ثم مسافرٌ ثم مسافرٌ، والمسافرُ لا يَعلّقُ قلبه بما لايتعلق به ويفارقه بسرعة. فكما ترتحل من هذا المنزل في هذا المسجد البتة، كذلك تفارق هذه البلدة قطعاً، إما إلى بطنها أو إلى خارجها .. فكما ستفارقها بالضرورة، كذلك تذهب بل تُخرَج وتُطردُ - شئتَ أم أبيتَ - من هذه الدنيا الفانية؛ فاخرجْ وأنت عزيز قبل أن تُطرد وأنت ذليل"(٢).

وما دام الأمر كذلك فلا بد من التصرف الحكيم الذي يقوم على إدراك حقيقة الحياة والموت:

" لاخير فيما لايبقى. وإياك ونقض العهد معه. وعليك بالموت، والموت المنجر إلى الحياة أولى من هذه الحياة المنقلبة إلى الموت"(٣).

---

(١) المثنوي العربي ١٠٦.

(٢) المثنوي العربي ٢٢٢.

(٣) المثنوي العربي ٢٤٣.

تصورات ثلاثة للقبر

تقدم رسائل النور صورة توضيحية لعلاقة الإنسان بالقبر وهي صورة ثلاثية المشاهد تختلف باختلاف مشارب الناس واتجاهاتهم في الحياة، فلكل مشرب طريق يسلكه أهله حين يغادرون الحياة:

الطريق الأول: يؤدي إلى أن القبر باب ينفتح للمؤمنين إلى رياض جميلة وعالمٍ رحب فسيح أفضلَ وأجملَ من هذه الدنيا .

الطريق الثاني: يوصل إلى أن القبر باب لسجن دائم للمتمادين في الضلالة والغي – مع إيمانهم بالآخرة – فهم يعامَلون بجنس ما كانوا يعتقدونه ويرون الوجود والحياة من خلاله؛ فيُعزَلون عن جميع أحبتهم في هذا السجن الانفرادي، لعدم عملهم بما كانوا يعتقدونه.

الطريق الثالث: ينساق إليه مَن لا يؤمن بالآخرة من أرباب الضلالة، فإذا القبر بابٌ إلى العدم المحض وإعدامٌ نهائي له. والقبر في نظره مشنقة تُفنيه وتُفني معه جميعَ أحبته. فهذا هو جزاء جحوده بالآخرة[1].

هذا التوصيف لحال القبر وطبيعته ومآل البشر فيه يتناسق مع حال البشر: مؤمنين وعصاة وكفارا. ولكل حال مآل .

وهذه الطرق الثلاثة يقينية يشهد عليها الثقات من البشر من أهل النبوة والولاية الذين اخترقوا عالم الحس ورأوا الحقائق الخفية عيانا:

---

(١) الكلمات ١٥٦.

"إن ظهور هذه الحقيقة، حقيقة الموت والقبر، بالطرق الثلاثة المتقدمة، ينبئ بها مائة وأربعة وعشرون ألفاً من المخبرين الصادقين، وهم الأنبياء الكرام عليهم السلام الحاملون لواء تصديقهم الذي هو معجزاتهم الباهرة.. وينبىء بها مائة وأربعة وعشرون مليوناً من الأولياء الصالحين، يصدّقون ما أخبر به أولئك الأنبياء الكرام، ويشهدون لهم على الحقيقة نفسها بالكشف والذوق والشهود .. وينبئ بها ما لا يعد ولا يحصى من العلماء المحققين، يثبتون ما أخبر به أولئك الأنبياء والأولياء بأدلتهم العقلية القاطعة البالغة درجة علم اليقين، بما يصل إلى تسع وتسعين بالمئة من الثبوت والجزم.. فالجميع يقررون: أن النجاة من الإعدام الأبدي، والخلاص من السجن الانفرادي، وتحويل الموت إلى سعادة أبدية، إنما تكون بالإيمان بالله وطاعته ليس إلاّ"(١).

ويؤكد الأستاذ النورسي رحمه الله هذه الحقيقة أي ارتباط الصورة المشرقة للموت بالإيمان فيقول:

"إن انتساب الانسان بالايمان الى القدير الذي لا نهاية لقدرته، وإلى السلطان الرحيم ذي الرحمة الواسعة، ودخوله في عبوديته، بالطاعة والشكران، يبدّل الأجل والموت من الإعدام الأبدي إلى تذكرة مرور ورخصة إلى العالم الباقي"(٢).

الموت بين الرؤية الإيمانية والرؤية المادية:

يضرب الأستاذ النورسي رحمه الله مثلا لحال المؤمن بالآخرة السائر على

---

(١) الكلمات ١٥٧.

(٢) الكلمات ١٧٩.

الصراط المستقيم وحال من لا يؤمن بها، يضرب مثلا قريبا يمكن أن ينظر كل واحد من الناس إلى نفسه من خلاله، هو مثل الرحيل من القرية الصغيرة إلى المدينة الكبيرة، يقول الأستاذ رحمه الله:

"هب أنه في هذه القرية (بارلا) رجلان اثنان: أحدهما قد رحل تسعة وتسعون بالمائة من أحبته إلى إستانبول وهم يعيشون هناك عيشة طيبة جميلة، ولم يبق منهم هنا سوى شخص واحد فقط وهو أيضاً في طريقه إلى الالتحاق بهم، لذا فإن هذا الرجل مشتاق إلى إستانبول أشد الاشتياق بل يفكر بها، ويرغب في أن يلتقي الأحباب دائماً . فلو قيل له في أي وقت من الأوقات: "هيا اذهب إلى هناك" فإنه سيذهب فرحاً باسماً ..

أما الرجل الثاني فقد رحل من أحبته تسعة وتسعون بالمائة، ويظن أن بعضهم فني، ومنهم مَن انزوى في أماكن لا ترى. فهلكوا وتفرقوا حسب ظنه. فهذا الرجل المسكين ذو داء عضال يبحث عن أنيس وعن سلوان حتى عند سائح واحد، بدلاً من أولئك جميعاً، ويريد أن يغطي به على ألم الفراق الشديد.

فيا نفسي!

إن أحبتك كلهم، وعلى رأسهم وفي مقدمتهم (حبيب الله) ﷺ، هم الآن في الطرف الآخر من القبر . فلم يبق هنا إلاّ واحد أو اثنان وهم أيضاً متأهبون للرحيل.

فلا تديرنّ رأسك جفلة من الموت، خائفة من القبر، بل حدّقي في القبر وانظري إلى حفرته بشهامة واستمعي إلى ما يطلب. وابتسمي بوجه الموت

برجولة، وانظري ماذا يريد؟ وإياك أن تغفلي فتكوني أشبه بالرجل الثاني[(١)]!."

بهذا المثل المحسوس يتحول الموت من عالم وحشة وغربة إلى عالم أنس يتطلع إليه المؤمن بشوق .

وتحدثنا رسائل النور كثيرا عن حقيقة الموت وتلح إلحاحا شديدا من أجل نزع الصورة المرعبة للموت بما يتراءى للعين من التحلل الذي يصيب الجسد في القبر، وتصرف رسائل النور النظر والعقل والقلب عن هذا المشهد المحسوس إلى ما وراءه مما له صلة بالروح التي تتحرر من قيد الجسد وتنطلق في عالم البرزخ الفسيح، ومع الفكرة الجديدة نجد المثل المستمد من المشاهد المألوفة للإنسان التي تحول الفكرة المجردة إلى واقع محسوس:

"إن الموت في حقيقته تسريح وإنهاء لوظيفة الحياة الدنيا، وهو تبديل مكان وتحويل وجود، وهو دعوة إلى الحياة الباقية الخالدة ومقدمة لها؛ إذ كما أن مجيء الحياة إلى الدنيا هو بخلق وبتقدير إلهي، كذلك ذهابها من الدنيا هو أيضاً بخلق وتقدير وحكمة وتدبيرإلهي؛ لأن موت أبسط الأحياء- وهو النبات - يُظهر لنا نظاماً دقيقاً وإبداعاً للخلق ما هو أعظم من الحياة نفسها وأنظم منها، فموت الأثمار والبذور والحبوب الذي يبدو ظاهراً تفسخاً وتحللاً هو في الحقيقة عبارة عن عجن لتفاعلات كيمياوية متسلسلة في غاية الانتظام، وامتزاج لمقادير العناصر في غاية الدقة والميزان، وتركيب وتشكّل للذرات بعضها ببعض في غاية الحكمة والبصيرة، بحيث إن هذا الموت الذي لا يرى، وفيه هذا النظام الحكيم والدقة

---

(١) الكلمات١٩٢-١٩٣.

الرائعة، هو الذي يظهر بشكل حياة نامية للسنبل وللنبات الباسق المثمر. وهذا يعني أن موت البذرة هو مبدأ حياة النبات الجديدة، أزهاراً وأثماراً .. بل هو بمثابة عين حياته الجديدة ؛ فهذا الموت اذن مخلوق منتظم كالحياة ..

وكذلك فإن ما يحدث في معدة الإنسان من موت لثمرات حية، أو غذاء حيواني، هو في حقيقته بداية ومنشأ لصعود ذلك الغذاء في أجزاء الحياة الإنسانية الراقية . فذلك الموت إذن مخلوق أكثر انتظاماً من حياة تلك الأغذية.

فلئن كان موت النبات – وهو في أدنى طبقات الحياة – مخلوقاً منتظماً بحكمة، فكيف بالموت الذي يصيب الإنسان وهو في أرقى طبقات الحياة؟ فلا شك أن موته هذا سيثمر حياة دائمة في عالم البرزخ، تماماً كالبذرة الموضوعة تحت التراب والتي تصبح بموتها نباتاً رائع الجمال والحكمة في (عالم الهواء)"[١].

وتقف رسائل النور لتعالج ما يتراءى للعين من حال يصيب الجسد بعد الموت:

" الموت ليس تخريباً وانطفاءً كي يسند إلى الأسباب، ويحال على الطبيعة، بل الموت مهما يبدو ظاهراً انحلالاً وانطفاءً إلاّ أنه في الحقيقة مبدأ ومقدمة لحياة باقية للإنسان وعنوان لتلك الحياة، مثلما تضمر البذرة تحت الأرض وتموت ظاهراً إلا أنها تمضي باطناً من حياة البذرة الجزئية إلى حياة السنبل الكلية"[٢].

(١) المكتوبات ص ٨)

(٢) المكتوبات ٣١٠.

والموت ليس عدما ولا فناء ولا فراغا بل هو مخلوق كالحياة بل هو دليل على قدرة الله كالحياة أيضا:

"إن الموت كالحياة برهان ساطع للربوبية، وهو حجة في غاية القوة على الوحدانية، مثل الحياة، إذ بدلالة الآية الكريمة:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾

إن الموت ليس عدماً، ولا إعداماً، ولا فناءً، ولا لعبة العبث، ولا انقراضاً بالذات من غير فاعل، بل هو: تسريح من العمل، من لدن فاعل حكيم، وهو استبدال مكان بمكان، وتبديل جسم بجسم، وانتهاءٌ من وظيفة، وانطلاق من سجن الجسم، وخلق منتظم جديد وِفقَ الحكمة الإلهية . كما بينا في المكتوب الاول .

نعم، كما أن الموجودات الحية المبثوثة في الأرض كافة، تشير بحياتها إلى الخالق الحكيم وإلى وحدانيته. فتلك الأحياء تشهد بموتها أيضاً على سرمدية ذلك الحي الباقي، وتشير إلى وحدانيته جلَّ شأنه"(١).

وتقدم لنا رسائل النور صورة تطمئن الإنسان على بقائه بعد انفصال الروح عن الجسد وتحلل الجسد، فها هي العلاقة بين الروح والجسد كما تبينها الرسائل:

"إن كل من يدقق النظر في حياته ويفكر مليّاً في نفسه يدرك أن هناك روحاً باقيةً.

نعم. إنه بديهي أن كل روح رغم التبدل والتغير الجاري على الجسم عبر

---

(١) الكلمات ٨١٤.

سني العمر تظل باقية بعينها دون أن تتأثر، لذا فما دام الجسد يزول ويستحدث – مع ثبات الروح– فلا بدّ أن الروح حتى عند انسلاخها بالموت انسلاخاً تاماً، وزوال الجسد كلّه، لا يتأثر بقاؤها ولا تتغير ماهيتها.. أي أنها باقية ثابتة رغم هذه التغيرات الجسدية، وكل ما هنالك أن الجسد يبدّل أزياءه تدريجياً طوال حياته مع بقاء الروح، أما عند الموت فيجرد نهائياً وتثبت الروح . فبالحدس القطعي بل بالمشاهدة نرى أن الجسد قائم بالروح، أي ليست الروح قائمة بالجسد، وإنما الروح قائمة ومسيطرة بنفسها. ومن ثم فتفرّق الجسد وتبعثره بأي شكل من الأشكال وتجمّعه لايضر باستقلالية الروح ولا يخل بها أصلاً . فالجسد عشّ الروح ومسكنها وليس بردائها. وإنما رداء الروح غلاف لطيف وبدن مثالي ثابت إلى حدٍّ ما"(١).

وفي رسائل النور إلحاح على هذا الأمر ليصبح قضية مسلما بها، وتصبح يقينا في قلب المؤمن وعقله، ولترسخ الصورة الإيجابية للموت تلك الصورة التي لا تراها العين بل يدركها العقل ويسلم بها القلب، ولتزول الصورة المرعبة للموت:

"إن الأشياء لا تمضي إلى العدم، ولاتصير إلى الفناء، بل تمضي من دائرة القدرة إلى دائرة العلم، وتدخل من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، وتتوجه من عالم التغير والفناء إلى عالم النور والبقاء، وإن الجمال والكمال في الأشياء يعودان إلى الأسماء الإلهية وإلى نقوشها وجلواتها من زاوية نظر الحقيقة .

(١) الكلمات – ص: ٦١٠.

وحيث إن تلك الأسماء باقية وتجلياتها دائمة، فلا شك أن نقوشها تتجدد وتتجمل وتتبدل، فلا تذهب إلى العدم والفناء، بل تتبدل تعيناتها الاعتبارية. أما حقائقها وماهياتها وهوياتها المثالية التي هي مدار الحسن والجمال ومظهر الفيض والكمال فهي باقية، فالحسن والجمال في الأشياء التي لاتملك روحاً يعودان إلى الأسماء الإلهية مباشرة فالشرف لها والمدح والثناء لها. إذ الحسن حسنها والمحبة توجه إليها. ولايورث تبدل تلك المرايا ضرراً للأسماء. وإن كانت الأشياء من ذوي الأرواح ولكن لم تكن من ذوي العقول، فإن فراقها وزوالها ليس فناءً ولاعدماً بل ينجو الشيء الحي من وجود جسماني ومن اضطرابات وظائف الحياة، مودعاً ثمرات وظائفه التي كسبها إلى روحه الباقية. فأرواح هذه الأشياء تستند أيضاً إلى أسماء إلهية حسنى فتدوم وتستمر، وتمضي إلى سعادة ملائمة لها .

أما إن كان أولئك الأحياء من ذوي العقول، فإنهم أصلاً يمضون إلى سعادة أبدية وإلى عالم البقاء المؤسس على كمالات مادية ومعنوية .

لذا فإن فراقهم وزوالهم ليس موتاً وعدماً ولا زوالاً وفراقاً حقاً، بل هو وصال مع الكمالات وهو سياحة ممتعة إلى عوالم نورانية للصانع الحكيم، عوالم أجمل من الدنيا وأزهى منها كعالم البرزخ وعالم المثال وعالم الأرواح وإلى ممالكه الأخرى من منازله سبحانه وتعالى"[(١)].

ويمضي الأستاذ النورسي رحمه الله في تقريب صورة الموت وكونه بوابة حياة جديدة لا بوابة فناء وعدم فيجد في الشتاء والربيع مثلا قريبا محسوسا مكررا

(١) المكتوبات ٣٧١ – ٣٧٢ .

ويتخذه دليلا على ما يريد عرضه وبيانه ولنستمع إليه:

"عندما يسدل الشتاء كفنه الثلجي الأبيض على وجه الأرض الربيعي، وتموت الأحياء التي كانت تزخر بالحياة فوقها؛ فإن منظر هذا الموت ينقل نظر الإنسان إلى أبعد من اللحظة الراهنة، فيركب متنَ الخيال ليذهب بعيداً إلى الماضي الذي درجت إليه جنائز كل ربيع راحل، فتتفتح عندئذ أمام النظر مشاهد من الموت والحياة أوسع من هذا المنظر المحصور في الحاضر الراهن، لأن كل ربيع راحل مما لا يُحصى من الأربِعَةِ، كان مشحوناً ملء الأرض بمعجزات القدرة الإلهية، وهو يُشعِرُ الإنسان بمجيء موجودات تتدفق بالحياة وتملأ الأرض كلها في ربيع مقبل .

فنجد بهذا أن موت الربيع يشهد شهادة بمقياس عظيم جداً، وبصورة رائعة جداً وبدرجة من القوة أكثر على الخالق ذي الجلال، والقدير ذي الكمال، والحي القيوم، والنور السرمدي، ويشير إلى وحدانيته، وسرمديته تبارك وتعالى . فيبين – هذا الموت– دلائل باهرة إلى حدّ يرغمك معه على القول بداهةً: (آمنت بالله الواحد الأحد) .

الخلاصة: أنه حسب الحكمة التي تتضمنها الآية الكريمة: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ﴾ **[الروم: ١٩]** فإن الأرض الحية هذه كما أنها تشهد على الخالق الحكيم سبحانه بحياتها، فإنها بموتها تلفت النظر إلى التأمل في معجزات القدرة الإلهية التي تطرز جناحي الزمن؛ الماضي والمستقبل، فيعرض الله سبحانه بهذا الموت أمام نظر الإنسان ألوفاً من الأربِعَةِ بدلاً من ربيع واحد، فبدلاً من أن تشهد على

قدرته سبحانه معجزةٌ واحدة وهي هنا الربيع الحاضر تشهد عليها بهذا الموت الذي حلَّ في الربيع الحاضر ألوفُ المعجزات"(١).

الموت نعمة

وليس الموت مخلوقا دالا على قدرة الله فحسب بل نجد في رسائل النور ما يحوله إلى نعمة من نعم الله تعالى على أهل الأرض عامة وعلى المؤمنين خاصة وهذا أمر يقلب صورة الموت المأساة المتجذرة في كثير من العقول، ويبين الأستاذ النورسي رحمه الله ذلك في ما يأتي:

"سنذكر أربعة وجوه فقط من أوجه النعمة والامتنان الكثيرة للموت.

أولها: الموت إنقاذ للإنسان من أعباء وظائف الحياة الدنيا ومن تكاليف المعيشة المثقلة. وهو باب وصال في الوقت نفسه مع تسعة وتسعين من الأحبة الأعزاء في عالم البرزخ، فهو إذن نعمة عظمى!

ثانيها: إنه خروج من قضبان سجن الدنيا المظلم الضيق المضطرب، ودخول في رعاية المحبوب الباقي وفي كنف رحمته الواسعة، وهو تنعم بحياة فسيحة خالدة مستنيرة لا يزعجها خوف، ولا يكدرها حزن ولا همّ .

ثالثها: إن الشيخوخة وأمثالها من الأسباب الداعية لجعل الحياة صعبة ومرهقة، تبيّن مدى كون الموت نعمة تفوق نعمة الحياة. فلو تصورت أن أجدادك مع ما هم عليه من أحوال مؤلمة قابعون أمامك حالياً مع والديك اللذين

(١) الكلمات ٨١٥ .

بلغا أرذل العمر، لفهمت مدى كون الحياة نقمة، والموت نعمة. بل يمكن إدراك مدى الرحمة في الموت ومدى الصعوبة في إدامة الحياة أيضاً بالتأمل في تلك الحشرات الجميلة العاشقة للأزاهير اللطيفة، عند اشتداد وطأة البرد القارس في الشتاء عليها.

رابعها: كما أن النوم راحة للانسان ورحمة، ولا سيما للمبتلين والمرضى والجرحى، كذلك الموت - الذي هو أخو النوم - رحمة ونعمة عظمى للمبتلين ببلايا يائسة قد تدفعهم إلى الانتحار"[١].

هذا حال المؤمنين مع الموت أما أهل الضلالة فهو نقمة عليهم، فمن لم يؤمن بالآخرة ولم يتزود بمعرفة الله وصالح العمل كان الموت له باب عذاب دائم:

"أما إن كان من أهل الضلال، فإنه يتألم علاوة على آلامه بهلاك الموجودات وبفنائها وبإعدامها الظاهري وبآلام ذوي الأرواح منها. أي أن كفره يملأ دنياه بالعدم ويفرغها على رأسه، فيمضي إلى جهنم (معنوية) قبل أن يساق إلى جهنم (في الآخرة)"[٢].

إن التصور الإيماني للموت يقدمه بوابة إلى عالم أفضل خال من المتاعب، عالم خلود في النعيم للمؤمنين يداوي جروحا كثيرة يتركها وقوع الموت في نفوس البشر، وهذا ما تبينه رسائل النور في قول الأستاذ رحمه الله:

---

(١) المكتوبات ص ٩.

(٢) المكتوبات ص ٣٧٣ .

" يداوي أيضاً تلك الجروح الإنسانية الناشئة من فناء الدنيا وزوال الأشياء، ومن حب الفانيات، يداويها بلطف وحنان بإظهاره الدنيا دار ضيافة الرحمن ومبيناً أن ما فيها من الموجودات هي مرايا الأسماء الحسنى، وموضحاً أن مصنوعاتها رسائل ربانية تتجدد كل حين بإذن ربها، فينقذ الإنسان من قبضة ظلمات الأوهام .

ويداوي أيضاً تلك الجروح التي يتركها الموت، الذي يتلقاه أهل الضلالة فراقاً أبدياً عن الأحبة جميعاً، ببيانه أن الموت مقدمة الوصال واللقاء مع الأحباء الذين رحلوا إلى عالم البرزخ والذين هم الآن في عالم البقاء، ويثبت أن ذلك الفراق هو عين اللقاء. ويزيل كذلك أعظم خوف للإنسان بإثباته أن القبر باب مفتوح إلى عالم الرحمة الواسعة، وإلى دار السعادة الأبدية، وإلى رياض الجنان، وإلى بلاد النور للرحمن الرحيم، مبيناً أن سياحة البرزخ التي هي أشد ألماً وأشقى سياحة عند أهل الضلالة، هي أمتع سياحة وآنسها وأسرها إذ ليس القبر فم ثعبان مرعب، بل هو باب الى روضة من رياض الجنة"[(١)].

أسئلة حرجة تتعلق بالموت:

ويقف الأستاذ النورسي رحمه الله أمام أسئلة حرجة تثقل عقل الإنسان ويستعصي جوابها على كثير من أهل العلم ومنها: سر موت الأطفال ـ وسر الوجود والموت وأي فائدة في ذلك؟ والمرض وخوف الموت .

(١) الكلمات ٧٥٩.

موت الأطفال

فأما موت الأطفال فنجد الحديث عنه في عزاء لأحد طلبة النور الذي فقد ابنه، وها هو الأستاذ رحمه الله يمضي معه في خطوات تجعل الإنسان يحمد الله أن فقد ابنه وسبقه إلى عالم الخلود:

"أخي! لقد آلمني كثيراً نبأ وفاة طفلكم، ولكن الحكم لله، فالرضاء بقضائه والتسليم بقدره شعار الإسلام . أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقكم الصبر الجميل، وأن يجعل لكم المرحوم ذخراً للآخرة، وشفيعاً يوم القيامة .

وسنبيّن لكم ولأمثالكم من المؤمنين المتقين " خمس نقاط " تشع بشرى سارة وتقطر سلواناً حقيقياً لكم .

النقطة الأولى: إن معنى الآية الكريمة ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ وسرها هو هكذا:

إن أولاد المؤمنين المتوفين قبل البلوغ سيخلَّدون في الجنة أطفالاً محبوبين بما يليق بالجنة.. وسيكونون مبعث سرور أبدي في أحضان آبائهم وأمهاتهم الذين مضوا إلى الجنة.. وسيكونون مداراً لتحقيق ألطف الأذواق الأبدية للوالدين وهو حب الأطفال وملاطفة الأولاد .

وحيث إن كل شيء لذيذ موجود في الجنة، فلا صحة لقول مَن يقول: "لا وجود لمحبة الأطفال ومداعبتهم في الجنة لخلوها من التكاثر والتناسل". بل هناك الفوز العظيم بمحبة الأطفال وملاعبتهم بصفاء تام ولذة كاملة طوال ملايين السنين، من دون أن يشوبها ألمٌ ولا كدرٌ، بدلاً من محبتهم وملاعبتهم في عشر

سنوات دنيوية قصيرة فانية مشوبة بالآلام. كل هذا تحققه الآية الكريمة بجملة ﴿وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ فتصبح أكبر مدار لسعادة المؤمنين وتزفّ أعظم بشرى لهم.

النقطة الثانية: كان هناك - ذات يوم - رجل كريم في السجن.. أُلحق به ولده الحبيب أيضاً. فكان يتألم كثيراً بمشقات عجزه عن تأمين راحة ابنه فضلاً عن مقاساته آلامه الشخصية .

بعث إليه الحاكم الرحيم أحداً ليبلّغه: "إن هذا الطفل وإن كان ابنك إلاّ أنه واحد من رعيتي وأحد أفراد أمتي، سآخذه منك لأربيه في قصر جميل فخم".. بدأ الرجل بالبكاء والحسرة والتأوه، وقال: "لا . لا أعطي ولدي ولا أسلّمه، إنه مدار سلواني!".

انبرى له أصدقاؤه في السجن: يا هذا لا داعي لأحزانك ولا معنى لتألمك. إن كنت تتألم لأجل الطفل فهو سيمضي إلى قصر باذخ رحيب بدلاً من أن يبقى في هذا السجن الملوّث المتعفن الضيق . وإن كنت متألماً لذات نفسك وتبحث عن نفعك الخاص، فإن الطفل سيعاني مشقات كثيرة مع ضيق وألم شديدين فيما إذا بقي هنا لأجل أن تحصل على نفع مؤقت ومشكوك فيه! أما إذا ذهب إلى هناك فسيكون وسيلة لألف نفع وفائدة لك، ذلك لأنه سيكون سبباً لدرّ رحمة الحاكم لك، وسيصبح لك في حكم الشفيع . ولابد أن الحاكم سيرغب يوماً في أن يسعده باللقاء معك، ولا جرم أنه لن يرسله إليك في السجن، بل سيأخذك إليه ويخرجك من السجن ويبعثك إلى ذلك القصر لتحظى باللقاء مع الطفل، فيما إذا كنت ذا طاعة له وثقة به.

وفي ضوء هذا المثال- يا أخي العزيز - ينبغي أن يتفكر فيه أمثالُك من المؤمنين عندما يتوفى أطفالهم، ويقولوا: إن هذا الطفل برئ، وإن خالقه رحيم وكريم، فبدلاً من رقتي القاصرة عليه، وبدلاً من تربيتي الناقصة له، فقد احتضَنَتْه الرحمة الإلهية وضمته العناية الإلهية إلى كنفها العظيم، وأخرجته من سجن المشقات والمصائب والآلام الدنيوية وأرسلته إلى ظلال جنة فردوسه العظيم. فهنيئاً لذلك الطفل!

ومَن يدري ماذا كان يعمل وكيف كان يتصرف لو ظل في هذه الدنيا؟ لذا فأنا لست متألما عليه، بل أراه سعيداً محظوظاً.. أما تألمي لنفسي بالذات فلا أتألم لها ألماً شديداً، فيما يخص متعتي الخاصة. إذ لو كان باقياً في الدنيا لكان يضمن لي محبّة الأولاد وملاعبتهم المؤقتة زهاء عشرة أعوام وهي مشوبة بالآلام، ولربما لو كان صالحاً بارّاً، وكان ذا قدرة في أمور الدنيا كان يمكنه أن يعينني ويتعاون معي، إلا أنه بوفاته فقد ضمن لي محبة الأولاد ولعشرة ملايين من السنين وفي الجنة الخالدة، وأصبح مشفّعاً لي للدخول إلى السعادة الأبدية، فلا أكون إذن شديدَ التألم عليه حتى على حساب نفسي كذلك، لأن مَن غابت عنه منفعة عاجلة مشكوك فيها، وربح ألف منفعة آجلة محققة الحصول، لن يظهر الأحزان الأليمة، ولن ينوح يائساً أبداً !

النقطة الثالثة: إن الطفل المتوفى.. ما كان إلا مخلوقاً لخالق رحيم، وعبداً له، وبكل كيانه مصنوعاً من مصنوعاته سبحانه، وصديقاً مودعاً من لدنه عند الوالدين ليبقى مؤقتاً تحت رعايتهما، وقد جعل سبحانه أمه وأباه خادمَين أمينين

له، ومنح كلاً منهما شفقة ملذّة، أجرةً عاجلة إزاء ما يقومان به من خدمة .

والآن؛ إن ذلك الخالق الرحيم الذي هو المالك الحقيقي للطفل - وله فيه تسع وتسعون وتسعمائة حصة ولوالده حصة واحدة - إذا ما أخذ بمقتضى رحمته وحكمته ذلك الطفل منك مُنهياً خدماتك له، فلا يليق بأهل الإيمان أن يحزنوا يائسين ويبكوا صارخين بما يومئ إلى الشكوى أمام مولاهم الحق صاحب الحصص الألف، مقابل حصة صورية. وإنما هذا شأن أهل الغفلة والضلالة.

النقطة الرابعة: لو كانت الدنيا أبدية أبد الآباد، ولو كان الإنسان فيها خالداً مخلداً، أو لو كان الفراق أبدياً، إذن لكان للحزن الأليم والأسف اليائس معنىً ما. ولكن ما دامت الدنيا دار ضيافة فأينما ذهب الطفل المتوفى فكلنا - نحن وأنتم كذلك - إلى هناك راحلون لا مناص.

ثم إن هذه الوفاة ليست خاصة به هو وحده، بل هي طريق يسلكه الجميع.

ولما لم يكن الفراق أبدياً كذلك، بل سيتم اللقاء في الأيام المقبلة في البرزخ وفي الجنة. لذلك ينبغي القول: الحكم لله.. إن لله ما اخذ وما أعطى، مع الاحتساب والصبر الجميل والشكر قائلين: الحمد لله على كل حال.

النقطة الخامسة: إن الشفقة التي هي ألطف تجليات الرحمة الآلهية وأجملها وأطيبها واحلاها.. لهي إكسير نوراني، وهي أنفذ من العشق بكثير، وهي أسرع وسيلة للوصول إلى الحق تبارك وتعالى.

نعم، مثلما أن العشق المجازي والعشق الدنيوي - بمشكلات كثيرة جدا - ينقلبان إلى "العشق الحقيقي" فيجد صاحبه الله جل جلاله، كذلك الشفقة- ولكن

بلا مشكلات – تربط القلب بالله سبحانه ليوصل صاحبَه إلى الله جل وعلا بأقصر طريق وأصفى شكل .

والوالد أو الوالدة على السواء يحبان ولدهما بملء الدنيا كلها، فعندما يؤخذ الولد من أي منهما فإنه – إن كان سعيداً ومن أهل الايمان – يعرض وجهه عن الدنيا ويدير لها ظهره فيجد المنعم الحقيقي حاضراً فيقول: ما دامت الدنيا فانية زائلة فلا تستحق إذن ربط القلب بها، فيجد إزاء ما مضى إليه ولده علاقة وثيقة ويغنم حالة معنوية سامية[١].

حياة قصيرة وموت! لماذا؟؟

وأما إجابة سؤال الوجود والموت الذي يثيره الحضور القصير لبعض المخلوقات التي تأتي سريعا وتمضي سريعا فقد ورد في رسائل النور هكذا:

"ولكن أية رحمة وشفقة تسع، وأية حكمة ومصلحة توجد، وأي لطف ورحمة في إفناء هذه الأنواع من الأشجار والنباتات اللطيفة والأزهار الجميلة والحيوانات المؤهلة للوجود والشغوفة بالحياة والتواقة للبقاء، وباستمرار ودون استثناء وإعدامها دون إمهال أحد منها؟ وفي تسخيرها في المشاق وتغييرها بالمصائب دون السماح لأحد منها بالدعة والراحة؟ وفي إماتتها وزوالها وفراقها بلا توقف، دون أن يسمح لأحد بالمكوث قليلاً ودون رضىً من أحد؟"[٢].

ولم يقتصر الأمر على سؤال عابر بل أدى التفكر إلى حالة من الألم الدافع

---

(١) المكتوبات ٩٦-٩٩.

(٢) المكتوبات ٣٦٧ .

إلى البكاء والصراخ العميق لا بالصوت وحده بل باللطائف الإنسانية كلها:

"عندما كنت أتأمل في يوم من أيام الربيع شاهدت أن الموجودات التي تملأ سطح الأرض وتسيل قافلة إثر قافلة مظهرة مئات الألوف من نماذج الحشر والنشور.. هذه الموجودات ولاسيما المخلوقات الحية منها وبخاصة الأحياء الصغيرة منها، ما إن تظهر حتى تختفي عقبه.. فتتعاقب مناظر الموت والزوال باستمرار وفي فعالية دائمة. وبدت أمامي حزينةً أليمةً مسّت أوتار عواطفي وأثارت رقتي حتى دفعتني إلى البكاء. وكنت كلما شاهدت موت تلك الأحياء الصغيرة اللطيفة اعتصر قلبي ألماً وتأففت قائلاً: ياحسرتاه.. أواه .. آه .. فأستشعر ضراماً روحياً منبعثاً من الأعماق حتى رأيت الحياة التي تؤول إلى هذه النتيجة عذاباً أليماً دونه الموت .

وكذا رأيت في عالم النباتات والحيوانات، أن تلك الأحياء الجميلة جداً والمحبوبة جداً وهي في أتم إتقان وإبداع، ما إن تفتح عينيها للحياة في لحظات وتشاهد هذا المهرجان الكوني العظيم إلاّ وتمحى وتفنى. فكلما شاهدت هذه الحالة تفطر كبدي حزناً وكمداً، وكأنه يشكو باكياً وهو يقول: لِمَ أتوا إذن الى هذا العالم ولِمَ يرحلون دون أن يمكثوا فيه ؟ فكان قلبي يطرح أسئلة مخيفة إزاء الدهر والمقدرات . إذ مثل هذه المصنوعات اللطيفة تذهب دون جدوى، ولاغاية، ولانتيجة، وتعدم بسرعة متناهية مع أننا نرى اهتماماً عظيماً بها ودقة متناهية في صنعها وإتقاناً في إبداعها، مع توفير الأجهزة اللازمة لها والرعاية التامة في تربيتها وتنشئتها والتدبير الكامل لشؤونها وخلقها على أتم صورة. ولكن بعد كل هذا

نرى تمزقها وتشتتها وفناءها ومحوها وقذفها في ظلمات العدم.. هذا المنظر الأليم، كلما تأملته صرخت جميع لطائفي المفتونة بأنواع الكمال والمبتلاة بأنماط الجمال، والعاشقة للاشياء النفيسة القيّمة، واستغاثت قائلة : لِمَ لاتُرحم هذه المخلوقات؟ يالهفتاه ! من أين يأتي هذا الفناء والزوال ضمن الدوران والتجوال المحيّر للعقول ويسلط على هذه الصغار اللطاف[1]؟

ولم ينقذ الأستاذ النورسي رحمه الله من هذه الحالة العقلية المقلقة، والحالة القلبية المحرقة الاعتراضات المزعجة إلا أنوار القرآن الكريم الذي يهدي للتي هي أقوم:

"وما إن بدأت الاعتراضات المخيفة تتوجه نحو القدر لما يُرى في ظاهر المقدرات الحياتية من أحوال أليمة حزينة، إذا بنور القرآن والإيمان والتوحيد ولطف الرحمن يسعفني ويعينني؛ وينوّر تلك الظلمات، ويقلب بكائي ونحيبي وحسراتي إلى سرور وفرح وإلى النطق ب (ما شاء الله، بارك الله)، بدلاً من التلهف والتحسر وإطلاق الزفرات. حتى دفعني إلى القول بـ: الحمد لله على نور الإيمان. حيث رأيت بسر التوحيد: أن كل مخلوق ولاسيما كل كائن حي له نتائج كثيرة جداً ومنافع شتى .

فمثلا: إن كل ذي حياة – وليكن هذه الزهرة الزاهية، وهذه الحشرة الحلوياتي – هو قصيدة صغيرة إلهية تحمل من المعاني العميقة والغزيرة بحيث يطالعها ما لايحد من ذوي الشعور بمتعة كاملة .. وهو معجزة ثمينة قيّمة للقدرة

(١) الشعاعات ١٦ – ١٧.

الإلهية .. وهو لوحة تعلن عن حكمته تعالى حيث تعرض إتقان الصانع الجليل في منتهى الجاذبية أمام أنظار من لا يحدّ من أهل التقدير والاستحسان. وكذا فإن أجلّ نتيجة لخلق الكائن الحي هو الحظوة بالظهور أمام نظر الفاطر الجليل الذي يريد أن يرى بذاته جمال صنعته وجمال فطرته وجمال تجليات أسمائه في المرايا الصغيرة . زد على ذلك فإن وظيفة سامية لفطرة الكائن الحي هي أداؤه بخمسة وجوه (كما ذكر في المكتوب الرابع والعشرين) مهمة إظهار الربوبية المطلقة والكمال الإلهي الذي يقتضي هذه الفعالية المطلقة في الكون. ولكني رأيت أن الكائن الحي على الرغم مما له من مثل هذه الفوائد والنتائج فإنه يدع روحه في موضعه -إن كان ذا روح - ويترك صورته وهويته في الأذهان وسائر الألواح المحفوظة، ويضع قوانين ماهيته ونوعاً من حياته المستقبلية في بذوره وبويضاته، ويودع مزايا الكمال والجمال التي عكسها كالمرآة، يودعها في عالم الغيب ودائرة الأسماء . وبعد كل هذا يدخل تحت ستار الزوال فرحاً جذلاً بموت ظاهري - يعني التسريح من الوظائف - ويستتر عن الأنظار الدنيوية وحدها! .

نعم، هكذا رأيت ماهية الكائن الحي فقلت من الأعماق.. (الحمد لله..) .

فهذه الأنواع من الجمال والضروب من الحسن المشاهدة في جميع طبقات الكون وفي جميع أنواع الطوائف والممتدة عروقها في كل الأرجاء والتي لها أسس عريقة قوية لا نقص فيها ولا قصور، وهي في منتهى السطوع والبهاء.. لاشك أنها تبين أن مايقتضيه الشرك - كما هو في الوضع الأول - من قبح مشين ودمامة منفرة، محال وموهوم قطعاً . لأن جمالاً بهذا العمق في وجود الكون

لايمكن أن يستتر تحته قبح مشين إلى هذه الدرجة المخيفة، بل لايمكن أن يوجد أصلاً. ولو وجد فذلك الجمال إذن لاحقيقة له ولا أصل، وهو واهٍ وهمي ..

بمعنى أنه لاحقيقة للشرك إطلاقاً، وطريقه مسدود، بل لا يجد له موضعاً إلاّ في المستنقعات الآسنة، فحكمه محال وممتنع"(١).

المرض والموت:

ونجد كثيرا من الناس يخافون من المرض، ومن دواعي هذا الخوف الربط بين المرض والموت، وكأنهم إن مرضوا ماتوا، وإن عوفوا من المرض سلموا من الموت وخلدوا، وبأسلوبه الحكيم يعالج الأستاذ النورسي رحمه الله هذه المسألة ليبدد الخوف من المرض وليملأ قلب المريض سكينة وأنسا، يقول رحمه الله مخاطبا المريض:

"أيها المريض المؤمن بخالقه! إن سبب التألم من الأمراض والخوف والفزع منها ينبع من كون المرض أحياناً وسيلة للموت والهلاك، ولكون الموت - بنظر الغفلة - مرعباً مخيفاً ظاهراً، فإن الأمراض التي يمكن أن تكون وسائل له، تبعث على القلق والاضطراب. فاعلم:

أولاً: آمن قطعاً: أن الأجل مقدّر لا يتغيّر. فقد حدث أن مات أولئك الباكون عند المحتضرين في مرضهم. مع أنهم كانوا يتمتعون بصحة وعافية، وشفي أولئك المرضى الذين كانت حالتهم خطرة وعاشوا بعد ذلك أحياءً يرزقون.

ثانياً: إن الموت ليس مخيفاً في ذاته، كما يبدو لنا في صورته الظاهرية، وقد

---

(١) الشعاعات ١٧ – ١٨.

أثبتنا في رسائل كثيرة إثباتاً قاطعاً – دون أن يترك شكاً ولا شبهة – بموحيات نور القرآن الكريم: أن الموت للمؤمن إعفاء وإنهاء من كلفة وظيفة الحياة ومشقتها .. وهو تسريح من العبودية التي هي تعليم وتدريب في ميدان ابتلاء الدنيا.. وهو باب وصال لالتقاء تسعة وتسعين من الأحبة والخلاّن الراحلين إلى العالم الآخر.. وهو وسيلة للدخول في رحاب الوطن الحقيقي والمقام الأبدي للسعادة الخالدة .. وهو دعوة للانتقال من زنزانة الدنيا إلى بساتين الجنة وحدائقها.. وهو الفرصة الواجبة لتسلم الأجرة إزاء الخدمة المؤداة، تلك الأجرة التي تغدق سخية من خزينة فضل الخالق الرحيم .

فما دامت هذه هي ماهية الموت – من زاوية الحقيقة – فلا ينبغي أن يُنظر إليه كأنه شيء مخيف، بل يجب اعتباره تباشير الرحمة والسعادة. حتى إن قسماً من " أهل الله " لم يكن خوفهم من الموت بسبب وحشة الموت ودهشته، وإنما بسبب رغبتهم في كسب المزيد من الخير والحسنات بإدامة وظيفة الحياة.

نعم إن الموت لأهل الإيمان باب الرحمة. وهو لأهل الضلالة بئر مظلمة ظلاماً أبدياً"(١).

ملك الموت المحبوب:

ما دام الموت جسرا إلى الخلود، وما دام بوابة لا بد منها لدخول الجنة فمن ذا الذي يكرهه إن كان مؤمنا ؟ ومن ذا الذي يبغض ملك الموت الذي ينقلنا من دار العناء والفناء إلى دار النعيم والبقاء ؟ ها هو الأستاذ النورسي رحمه الله يحدثنا

(١) اللمعات ص: ٣٢٣.

عن ملك الموت حديثا ودودا، فهو من الملائكة الكبار الذين أوكل إليهم ربنا سبحانه أمورا عظيمة يؤدونها في هذا الوجود:

"كنت ذات يوم أدعو دعاء بهذا المضمون "يارب أتوسل إليك بحرمة جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وبشفاعتهم أن تحفظني من شرور شياطين الجن والإنس.." وحالما ذكرتُ اسم عزرائيل – الذي يملأ ذكره الناس رعباً وارتجافاً – شعرتُ بحالة ذات طعم في غاية الحلاوة والسلوان، فحمدت الله قائلا: الحمد لله، وبدأت أحب عزرائيل حباً خالصاً، على أنه واحد من الملائكة الذين يعتبر الإيمان بوجودهم ركناً من أركان الإيمان[1] .

نبي يطلب الموت:

إن الموت على الإيمان وفراق الدنيا الفانية بسلام مطلب للمؤمن نجده في هذا النموذج العالي لنبي الله يوسف ﵇ وقد تمت عليه النعمة، وتحققت رؤياه، واجتمع شمل أسرته بعد أن من الله عليه بملك في الأرض، وها هو لم تغره الدنيا، ولم يشغله الملك العاجل عن دار الخلود، ولم ينسه متاع الدنيا ذكر الموت، يحدثنا عن هذا الموقف الأستاذ النورسي ﵀ فيقول:

"إن الآية الكريمة التي تخبر عن ختام أحسن القصص، قصة يوسف، وهي: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ **[يوسف: ١٠١]** تتضمن نكتة بليغة سامية لطيفة تبشر بالخير وهي معجزة في الوقت نفسه. وذلك:

---

(١) الشعاعات ٣١٨.

أن الآلام والأحزان التي يتركها الزوال والفراق الذي تنتهي إليهما القصص الأخرى المفرحة والسعيدة، تنغّص اللذائذ الخيالية الممتعة المستفادة من القصة وتكدّرها، ولاسيما عندما يخبر عن الموت والفراق أثناء ذروة الفرح والسرور والسعادة البهيجة، فيكون الألم أشدّ حتى إنه يورث الأسف والأسى لدى السامعين. بينما هذه الآية الكريمة تختم أسطع قسم من قصة يوسف وهو عزيز مصر وأقر الله عينه ولقى والديه وتعارف وتحابّ هو وإخوته . وإذ تخبر الآية الكريمة عن موت يوسف في هذه الأثناء التي كان يوسف (عليه السلام) في ذروة السعادة والسرور تخبر أن يوسف (عليه السلام) نفسه هو الذي يسأل ربه الجليل وفاته لينال سعادة أعظم من هذه السعادة التي يرفل بها. وتوفي فنال تلك السعادة العظمى. بمعنى أن ما وراء القبر سعادة أكبر وفرح أعظم من هذه السعادة التي ينعم بها يوسف وهو الأنيس بالحقيقة. إذ طلب الموت المرّ وهو في ذلك الوضع الدنيوي المفرح اللذيذ كي ينال تلك السعادة العظمى هناك. فتأمل يا أخي في بلاغة القرآن الحكيم هذه، كيف أخبر عن خاتمة قصة يوسف بذلك الخبر الذي لم يثر الألم والأسف لدى السامعين، بل زادهم بشارة وسروراً. فضلاً عن أنه يرشد إلى الآتي: اعملوا لما وراء القبر، فإن السعادة الحقة واللذة الحقيقية هناك، زد على ذلك بيّن مرتبة الصديقية الرفيعة السامية لسيدنا يوسف (عليه السلام)، إذ يقول:

إن أسطع حالة في الدنيا وأكثرها فرحاً وبهجة وسروراً لم تورثه الغفلة قطعاً

ولم تفتره، بل هو دائم الطلب للآخرة [١].

طبقات الحياة والموت:

نجد في رسائل النور حديثا عجيبا يكشف حقيقة الموت والحياة ويبين أن في الموت طبقات للحياة، أي أن الموت ليس – وفق ما هو متداول بين كثير من الناس – فناء أوتلاشيا وانطفاء حياة، وإن تفسخ الجسد وصار ترابا في القبر فللروح التي هي حقيقة الإنسان عالم مختلف . جاء هذا البيان في جواب سؤال عن حياة الخضر عليه السلام، يقول الأستاذ رحمه الله:

"**للحياة خمس مراتب**، وهو في المرتبة الثانية منها، ولهذا شكّ عدد من العلماء في حياته .

الطبقة الأولى من الحياة: هي حياتنا نحن، التي هي مقيدة بكثير من القيود.

الطبقة الثانية من الحياة: هي طبقة حياة سيدنا الخضر وسيدنا إلياس عليهما السلام والتي فيها شيء من التحرر من القيود، أي يمكنهما أن يكونا في أماكن كثيرة في وقت واحد، وأن يأكلا ويشربا متى شاءا . فهما ليسا مضطرين ومقيدين بضرورات الحياة البشرية دائماً مثلنا. ويروي أهل الكشف والشهود من الأولياء بالتواتر حوادث واقعة عن هذه الطبقة. فهذه الروايات تثبت وجود هذه الطبقة من الحياة وتنورها، حتى إن في مقامات الولاية مقاماً يُعبّر عنه بـ" مقام

---

(١) المكتوبات ٣٦٥ -٣٦٦ .

الخضر. فالولي الذي يبلغ هذا المقام يجالس الخضر عليه السلام ويتلقى عنه الدرس، ولكن يُظن أحياناً خطأً أن صاحب هذا المقام هو الخضر بعينه.

الطبقة الثالثة من الحياة: هي طبقة حياة سيدنا إدريس وسيدنا عيسى عليهما السلام. هذه الطبقة تكتسب لطافة نورانية بالتجرد من ضرورات الحياة البشرية والدخول في حياة شبيهة بحياة الملائكة، فهما يوجدان في السماوات بجسميهما الدنيويين - الذي هو بلطافة بدن مثالي ونورانية جسد نجمي - والحديث الشريف الوارد أن سيدنا عيسى عليه السلام ينـزل في آخر الزمان ويحكم بالشريعة المحمدية حكمته هي الآتي:

إنه إزاء ما تجريه الفلسفة الطبيعية من تيار الإلحاد وإنكار الألوهية في آخر الزمان، تتصفى العيسوية وتتجرد من الخرافات. وفي أثناء انقلابها إلى الإسلام، يجرّد شخص العيسوية المعنوي سيف الوحي السماوي ويقتل شخص الإلحاد المعنوي، كما أن عيسى عليه السلام الذي يمثل الشخص المعنوي للعيسوية يقتل الدجالَ الممثل للإلحاد في العالم. بمعنى أنه يقتل مفهوم إنكار الألوهية .

الطبقة الرابعة من الحياة: هي حياة الشهداء، الثابتة بنص القرآن الكريم، أن لهم طبقة حياة أعلى وأسمى من حياة الأموات في القبور. نعم! إن الشهداء الذين ضحوا بحياتهم الدنيوية في سبيل الحق، ينعم عليهم سبحانه وتعالى بكمال كرمه حياة شبيهة بالحياة الدنيوية في عالم البرزخ، إلاّ أنها بلا آلام ولا متاعب ولا هموم؛ حيث لا يعلمون أنهم قد ماتوا، بل يعلمون أنهم قد ارتحلوا إلى عالم أفضل، لذا يستمتعون متعة تامة ويتنعمون بسعادة كاملة، إذ لا يشعرون بما في الموت من ألم الفراق من الأحبة، كما هو لدى الأموات الآخرين الذين يعلمون

أنهم قد ماتوا، رغم أن أرواحهم باقية. لذا فاللذة والسعادة التي يستمتعون بها في عالم البرزخ قاصرة عن اللذة التي يتمتع بها الشهداء. وهذا نظير المثال الآتي:

شخصان رأيا في المنام أنهما قد دخلا قصراً جميلاً كالجنة. أحدهما يعلم أن ما يراه هو رؤيا. فاللذة التي يحصل عليها تكون ناقصة جداً، إذ يقول في نفسه: ستزول هذه اللذة بمجرد انتباهي من النوم. أما الآخر فلا يعتقد أنه في رؤيا لذا ينال لذة حقيقية ويسعد سعادة حقيقية.

وهكذا يتميز كسب الشهداء من حياتهم البرزخية عن كسب الأموات منها.

إن نيل الشهداء هذا النمط من الحياة واعتقادهم أنهم أحياء ثابت بوقائع وروايات غير محدودة. حتى إن إجارة سيدنا حمزة ﷺ، سيد الشهداء، لمن استجاره ولجأ إليه وقضاءه لحوائجهم الدنيوية، وحمل الآخرين لقضائها، وأمثالها من حوادث واقعة كثيرة، نوّرت هذه الطبقة من الحياة وأثبتتها. حتى إنني شخصياً وقعت لي هذه الحادثة:

كان ابن اختي "عبيد" أحد طلابي، قد استشهد بقربي بدلاً عني، في الحرب العالمية الأولى. فرأيت في المنام رؤيا صادقة عندي: أنني قد دخلت قبره الشبيه بمنزل تحت الأرض، رغم أني في الأسر على بعد مسيرة ثلاثة أشهر منه، وأجهل مكان دفنه. ورأيته في طبقة حياة الشهداء. وقد كان يعتقد أنني ميت، وذكر أنه قد بكى عليّ كثيراً، ويعتقد أنه ما زال على قيد الحياة، إلاّ أنه قد بنى له منزلاً جميلاً تحت الأرض حذراً من استيلاء الروس .

فهذه الرؤيا الجزئية- مع بعض الشروط والأمارات- أعطتني قناعة تامة -

بدرجة الشهود - للحقيقة المذكورة .

الطبقة الخامسة من الحياة: هي الحياة الروحانية لأهل القبور .

نعم! الموت هو تبديل مكان وإطلاق روح وتسريح من الوظيفة، وليس إعداماً ولا عدماً ولا فناءً. فتمثُّل أرواح الأولياء، وظهورهم لأصحاب الكشف، بحوادث لا تعد، وعلاقات سائر أهل القبور بنا، في اليقظة والمنام، وإخبارهم إيانا أخباراً مطابقة للواقع.. وأمثالها من الأدلة الكثيرة، تنوّر هذه الطبقة وتثبتها[1].

---

(١) المكتوبات ٥-٧.

أما بعد

فهذا ما تجلى لي من صورة للموت في رسائل النور، ووراء هذه الصورة جوانب أخرى لعل عدستي أغفلتها، وضاق الزمن المتاح عن تتبعها، ولمن شاء أن يستزيد استكمالا للصورة فرسائل النور نبع فياض مشرع، يملأ كل جراره على قدر وسعها، وأرجو أن يكون في ما قدمت بعض الفائدة، ورحم الله أستاذنا النورسي ورضي عنه وأجزل مثوبته.

حاجة البشرية إلى النبوة

يقول الأستاذ النورسي رحمه الله في تأمله في الآية الكريمة ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ **[الذاريات: ٥٦]**: "يفهم من أسرار هذه الآية الجليلة: أن حكمة مجيء الإنسان إلى هذه الدنيا والغاية منه، هي: معرفة خالق الكون سبحانه، والإيمان به، والقيام بعبادته. كما أن وظيفة فطرته، وفريضة ذمَّته، هي: معرفة الله والإيمان به، والتصديق بوجوده وبوحدانيته إذعاناً ويقيناً"(١).

هذا الإيمان بالله هو أعظم ما يحصله الإنسان بل أعظم نعمة لله عليه فهو: "حياة للحياة" (٢).

ولا يتحقق الإيمان بالله على الوجه الأكمل، ولا العبادة على الوجه المطلوب ولا التصديق بوحدانية الله تعالى إلا بوساطة النبوة التي تعرف الإنسان بربه وتوضح مراد الله تعالى من عباده.

وإن من المتواتر في تاريخ البشرية ظهور رجال عبر العصور المختلفة قالوا إنهم أنبياء مرسلون من عند الله تعالى، وأنهم هداة لأقوامهم إلى سعادة الدنيا والآخرة، وقد " أثبتوا نبوتهم بمعجزاتهم التي تربو على الألوف فجميع أولئك

---

(١) الشعاعات – ص: ١٣٥.

(٢) الشعاعات – ص: ١٣٧.

الأنبياء الكرام يعلنون بمعجزاتهم بلسان واحد النبوة المطلقة في نوع البشر"[١].

ومما لفت نظر البشرية في سيرة أولئك الأنبياء أنهم لم يطلبوا أجرا على نبوتهم، ولا سعوا إلى مناصب الدنيا بل كانت دعوتهم:

﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾ **[الأعراف: ٦٥]**.

و﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ **[سبأ: ٤٧]**.

وكان خاتم تلك السلسلة المباركة نبينا وسيدنا محمد بن عبد الله عليه وآله الصلاة والسلام.

والنبوة كما يرى الأستاذ النورسي رحمه الله هي مقصد من المقاصد الأربعة للقرآن الكريم، تلك المقاصد هي: التوحيد والنبوة والحشر والعدالة[٢].

وقد تحدث عن هذا المقصد في رسائل النور في مواضع متعددة، فتحدث عن النبوة بصورة عامة، كما خص نبينا محمدا ﷺ بحديث مفصل في رسائل النور بعامة وخصص له بعض الرسائل. "وبإرسال الأنبياء، انفتح ميدان الامتحان والتجربة والجهاد والمسابقة، وبه تتميز الأرواح السافلة التي هي كالفحم في خساسته عن الأرواح العالية التي هي كالألماس في نفاسته. فلولا المجاهدة والمسابقة لبقيت الاستعدادات كامنة في جوهر الإنسانية، أي لتساوى الفحم والألماس أي لتساوت الروح السامية لسيدنا أبى بكر الصديق رضي الله عنه وهي

---

(١) صيقل الإسلام – ص: ١٣٩.

(٢) انظر: إشارات الإعجاز – ص: ٢٣.

في أعلى عليين مع روح أبي جهل التي هي في أسفل سافلين"(١).

ضرورة النبوة في نوع البشر وما يستلزمها:

بحث الأستاذ النورسي رحمه الله بتفصيل وعمق موضوع النبوة وحاجة البشرية إليها، فلايمكن إلا أن تكون هذه النبوة في البشر، ومما قال في ذلك:

"إن القدرة الإلهية التي لا تترك النمل من دون أمير، والنحل من دون يعسوب، لا تترك حتماً البشر من دون نبي، من دون شريعة. نعم هكذا يقتضي سرٌّ نظام العالم"(٢).

فللأنبياء في مسيرة البشرية موقع القيادة حيث يتقدمون موكبها في الطريق إلى الله.

وقال أيضا مجملا ما يجعل النبوة ضرورة لازمة في نوع البشر:

"اعلم! أن حكمة الصانع الجليل، وعدم العبثية في أفعاله، ومراعاته النظام في أقل ما في العالم، وعدم إهماله أخسّ مافيه.. وضرورة حاجة البشرية إلى مرشد، كل ذلك يستلزم قطعاً النبوة في نوع البشر"(٣).

فالإنسان الذي هو أكرم المخلوقات على الأرض لا بد أن تتجلى في حياته حكمة الله، فهو لم يخلق عبثا، وربه لا يتركه حائرا في الدنيا لا يعرف لم

---

(١) المكتوبات – ص: ٥٣.

(٢) الكلمات – ص: ٨٤٣.

(٣) صيقل الإسلام/ محاكمات – ص: ١٣٦.

خلق. ومن متطلبات الوجود النظام الذي يتجلى في كل شيء ولا يكشف حقيقته إلا نبي من عند الله، فكانت ثمرة ما سبق إرسال الرسل الذين يرشدون البشرية إلى ما فيه خيرها.

وقد انبثقت ضرورة النبوة وفق ما تجلى لي في رسائل النور من مجموعة من العوامل منها مايتعلق بالله تعالى وصفاته الحسنى، ومنها ما يتعلق بالإنسان ومنزلته في الوجود وما منحه الله تعالى له من الصفات والمؤهلات .

١- الأسماء الحسنى تستلزم وجود النبوة

وقف الأستاذ النورسي رحمه الله عند هذا الأمر وقفات، وفصل فيه الحديث، فالأسماء الحسنى فاعلة في الوجود في تجلياتها، ومن تجلياتها خلق الإنسان، فهل يمكن أن يخلق الله الإنسان ويظل في غيبوبة عن ربه لا يعرفه؟.

ولبيان تجليات الأسماء الحسنى في التواصل مع الإنسان وقف الأستاذ النورسي رحمه الله عند عدد من الأسماء الحسنى لله تعالى وربطها بالنبوة وضرورة إرسال الأنبياء إلى البشر، ومما بينه:

أن وجود مالك للكون يقتضي وجود الأنبياء، قال رحمه الله: "اعلم! أنه كما أنه محال أن لايكون لهذا المُلك المُعتنى به مالك، كذلك محالٌ أن لايتعرف ذلك المالك إلى الإنسان الذي يدرك درجات محاسن الملك الدالة على كمالات المالك، مع أن ذلك الإنسان كالخليفة في مهده الممهّد له يتصرف فيه كيف يشاء؛ بل في السقف المحفوظ السماوي أيضاً بعقله. ومع ذلك إن الإنسان أشرفُ المخلوقات بشهادة تصرفاته العجيبة الخارقة مع صغره وضعفه،

وإنه أوسعُ الأسباب اختياراً بالبداهة. فبالضرورة يرسل المالك من يعرّف المالك إلى مماليكه الغافلين عنه ويخبرهم مايرضى به ويطلبه منهم ذلك المالك جل جلاله" (١).

ويزيد الأستاذ النورسي ﷺ الأمر وضوحا فيقول: "كما لا يمكن للشمس إلاّ أن تشع ضياءً كذلك لا يمكن للألوهية إلاّ أن تظهر نفسها بإرسال الرسل الكرام عليهم السلام" (٢).

فالله تعالى لم يخلق الكون عبثا ليكون مهملا بل لابد له من مشاهدين يرون تجليات أسمائه الحسنى، ويتفكرون في ما خلق، ويبدون إعجابهم في التجليات المختلفة للأسماء الحسنى، وذلك يقتضي رسلا يبينون للناس تلك التجليات ويعرفونهم بخالقهم وأسمائه.

ويمضي الأستاذ النورسي ﷺ في الوقوف عند عدد من أسماء الله تعالى وتجلياتها في أسلوب استفهام إنكاري يبدأ بقوله: "أم هل يمكن ..." ليثبت أن تلك الأسماء بتجلياتها تقتضي وجود النبوة في البشر، ومما نستخلصه من تلك السلسلة من الأسئلة الاستنكارية:

أن الجمال الرباني الذي هو في غاية الكمال لا بد أن يعرّف نفسه لمن يستطيع إدراكه، والبشر هم أقدر المخلوقات على ذلك، ولا يكون ذلك إلا برسالة ورسول.

---

(١) المثنوي العربي النوري – ص: ٢٤٤.

(٢) الكلمات – ص:٦٢.

وأن الكمال الرباني الذي هو في غاية الجمال لا بد أن يظهر من خلال رسالة ورسول.

وأن سلطنة الربوبية الكلية العامة الشاملة التي لا بد أن تعلن عن نفسها لكل من له بها علاقة، والإنسان بما خصه الله تعالى من الصفات أولى المخلوقات بذلك الإعلان الذي لا يتم إلا بوساطة عبد رسول لله تعالى.

وأنه لا يمكن لمن يملك خزائن كل شيء إلا أن يعرض كماله ومكنونات خزائنه على أنظار خلقه، ولا يتم ذلك إلا من خلال رسول معرّف حاذق ومعلن وصّاف.

وأن ما في هذا الكون البديع المليء بالمخلوقات البديعة الصنع المجمّلة لقصر العالم لا بد لصانعه ومالكه أن يبين ما فيه من مخلوقاته وذلك بوساطة رسول مرشد معلم رائد.

وأن مالك هذا الكون بما يحدث فيه من تحولات وما يثيره الوجود من أسئلة لا يجد الإنسان جوابا عنها من خلال تفكيره الذاتي ولا ردا شافيا عنها إلا من خلال رسول ورسالة، إن مالك الكون لا يترك البشر حائرين مع تلك الأسئلة التي أعيتهم وهم ينظرون في أنفسهم وفي الكائنات من حولهم فيسألون: من أين؟ وإلى أين؟ ومن نكون؟ وكم حاول الإنسان من خلال الفلسفة أن يفك لغز العالم لكن قصور أدواته من حواس وعقل لم يصل به إلى الجواب الشافي الكافي.

وأن المنعم ذا الجلال الذي تجلت ألوان نعمه على البشر، لا يمكن أن

يتركهم حيارى لا يعرفون من أنعم عليهم وما الذي يرضيه منهم؟ وهل يتم ذلك إلا من خلال رسول مبلغ عن ربه؟.

وأن الخالق الذي أوجد لدى النوع البشري مشاعر واتجاهات مختلفة، وجعله أهلا للعبودية الكلية له، لا يمكن أن يتركه حائرا لا يعرف ربه ولا يؤدي له حقوق العبودية فيظل مشتت العقل والقلب بين ما يرى من مظاهر الوجود التي تشغله عن ربه فيظنها فاعلة قادرة. وهل يكون بيان الحقيقة إلا بوساطة رسول مبين مبلغ مرشد يعرّف الإنسان من خلال إرشاده: من ربه وما صفاته وما له عليه من الحقوق(١)؟.

وقد لخص الأستاذ النورسي رحمه الله ما سبق بجملة بليغة موجزة مفيدة وذلك في قوله: "إن الألوهية لا تكون بلا رسالة" (٢).

وعلينا ونحن نقف مع ما أورده الأستاذ النورسي رحمه الله أن نتذكر قول الله تعالى للملائكة قبل خلق آدم:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ **[البقرة: ٣٠]**.

وما تبع خلقه من موقف إبليس برفض الأمر الإلهي بالسجود لآدم وما تلا ذلك من خطيئة آدم عليه السلام وإهباطه إلى الأرض وقول الله تعالى:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ **[طه:**

---

(١) انظر: الكلمات– ص: ٦٢ – ٦٣.

(٢) الكلمات – ص: ٦٣.

١٢٣].

وهذا الكلام يقودنا إلى العامل الثاني الذي يجعل النبوة ضرورة بشرية وحاجة لا بد من تلبيتها في النوع البشري.

٢- منزلة الإنسان في الوجود:

للإنسان في الوجود منزلة لم ينلها كائن غيره، فقد خلقه الله تعالى بيده وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته، وكرمه على كثير ممن خلق من عباده، وسخر له ما في السماوات والأرض، وجعل الأرض التي هي مسكنه قسيمة السماوات في حديث القرآن الكريم عنها، مع ضآلة حجمها وضخامة حجم السماوات، وما ذاك إلا لأنها مسكن الإنسان وميدان استخراج ما أودع الله تعالى فيه من القدرات التي تظهر تجليات الأسماء الحسنى في أجلى مظاهرها على يديه، ولأنه الكائن الأقدر على مشاهدة ما لله تعالى من تجليات أسمائه في الوجود، وهو الكائن الوحيد الذي يملك القدرة على التغيير والتأثير في ما حوله، فقد غير نمط حياته وغير البيئة من حوله، وأثار الأرض وعمرها، واستفاد من مكنونات كنوزها ومن القوانين الموجودة فيها.

وفي مسيرة الإنسان الطويلة على الأرض ظهرت منه علامات الطغيان، بنسيان ربه، والاغترار بما آتاه الله تعالى من أسباب القوة، ونسيان الموت، والغفلة عن وجود عالم آخر يؤول إليه بعد الرحيل عن هذا العالم، مما اقتضى وجود من يذكره بحقيقته، وحقيقة حياته على هذه الأرض.

لقد وقف الأستاذ النورسي رحمه الله عند منزلة الإنسان في الوجود ولزوم

النبوة لجنسه، فالإنسان خليفة في الأرض وهو أقدر الكائنات على إدراك محاسن تجليات الأسماء الحسنى، وهو ثمرة شجرة الخلقة أو نواتها مما يجعل إرسال الرسل إليه أمرا ضروريا، قال ﵀:

"اعلم! أيها الإنسان أنك ثمرة أو نواة لشجرة الخلقة، فبجسمانيتك أنت جزء صغير ضعيف، عاجز ذليل، مقيّد محدود. لكن الصانع الحكيم رقاك بلطيف صُنعه من الجزء الجزئي، إلى الكل الكلي. فبإدراج الحياة في جسمك أطلقك من قيد الجزئية في الجملة، بجولان جواسيس حواسك المنبسطة على عالم الشهادة لجلب أغذيتهم المعنوية، ثم بإعطاء الإنسانية جعلك كالكل بالقوة كالنواة، ثم بإحسان الإسلامية والإيمان، جعلك كالكلي بالقوة، ثم بإنعام معرفته ومحبته صيّرك كالنور المحيط، فاختر ما شئت، فإن أخلدتَ إلى الأرض واللذائذ الجسمانية؛ صرت جزءاً جزئياً، عاجزاً، ذليلاً. وإن استعملت جهازات حياتك بحساب الإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية؛ صرت كالكل الكلي والسراج المركزي"(١).

والإنسان كما يرى الأستاذ النورسي ﵀ هو أكمل وأنور المصنوعات وأبدعها، ويتجلى ذلك في كونه " الثمرة المجهّزة بالشعور والإدراك لشجرة الخلق، وأن الثمرة هي أجمع جزء وأبعده من جميع أجزاء تلك الشجرة، وله نظر عام وشعور كلي"(٢). وتلك الخصائص لا تتوافر لغيره من الكائنات التي

---

(١) المثنوي العربي النوري – ص: ٣٥٣.

(٢) الكلمات – ص: ٢٥٢.

تشاركه الوجود.

ومع ضعف الإنسان وضآلة حجمه قياسا إلى الكائنات الكبيرة من حوله، وقصر عمره، فإن له منزلة خاصة تميزه عمن سواه من المخلوقات: "حتى صار هذا الإنسان المخلوق الضعيف - مع صغره وكونه كذرّة بين هذه العوالم - عبداً محبوباً لخالق الأرض والسماوات وخليفة الأرض، ورئيس الحيوانات"[(١)].

بل يرى الأستاذ النورسي رحمه الله أن الإنسان "هو سيد الموجودات رغم أنه صغير جداً، لما يملك من فطرة جامعة شاملة.. فهو قائد الموجودات، والداعي إلى سلطان ألوهية الله، والممثل للعبودية الكلية الشاملة ومظهرها، لذا فإن له أهمية عظمى"[(٢)].

وما دامت لهذا الإنسان هذه المنزلة فهل يمكن أن يتركه خالقه هملا ضائعا حائرا لا يعرف ربه فيأتي إلى الدنيا ويخرج منها جاهلا بسر مجيئه وخروجه؟.

لقد ميز الله تعالى الإنسان ليكون أهلا لوجود النبوة في جنسه بما أعطاه من الصفات وما أودع فيه من مظاهر الرقي. فالإنسان قادر على إدراك الترتيب في أشياء الكون ذلك الترتيب الناشئ من العلل المتسلسلة في الخلقة، والإنسان يملك القدرة على تحليل الأشياء وإعادة تركيبها، كما أنه يملك القدرة على محاكاة الطبيعة والإفادة منها في حياته، ونستذكر هنا قصة ابن آدم

(١) المثنوي العربي النوري - ص: ٢٧٩.
(٢) الكلمات- ص: ٦٤.

الذي قتل أخاه فتعلّم الدفن من الغراب، وتعلم الإنسان الطيران من الطيور والسباحة والغوص من الأسماك، وهكذا. كما أنه قادر على إدراك نواميس الله الجارية في الكون واستثمارها. هذا الإنسان الذي يملك هذه القدرات المميزة له عن سائر المخلوقات، أدرك قصوره في الوصول إلى حقيقة الوجود بنفسه، وبقدراته الذاتية تلك، وأدرك حاجته إلى نبي مرشد يكشف له سر النظام المتقن في العالم، وربه الذي خصه بتلك القدرات أنعم عليه بالنبوة التي تلبي حاجاته غير المحدودة، هذه الحاجات التي لا تجد إشباعا لها في هذه الدنيا التي لا تتسع لما يرنو إليه الإنسان من الكمالات التي ينقضي عمره ولم يحقق منها إلا القليل، ولا يشبع تلك الحاجات إشباعا حقيقيا إلا ما يخبر به الرسل الكرام من وجود عالم خالد ينتقل إليه بعد وفاته ويجد فيه ما لم يحققه في الدنيا المحدودة الفانية.

وإن مما يستدعي وجود النبوة في حياة البشر حاجة الإنسان إلى العدالة التي تضبط علاقات الناس في ما بينهم في سعيهم إلى تلبية الحاجات المشتركة التي لا يستطيع الإنسان الفرد أن يقوم بها وحده لكونه كائنا اجتماعيا، وقد "احتاج النوع إلى وضع قوانين كلية، ثم لمحافظة تأثيرها ودوامها، لابد من مقنن يجريها، ثم لإدامة حاكمية ذلك المقنن في الظاهر والباطن يحتاج إلى امتياز وتفوق - مادة ومعنىً - ويحتاج أيضاً إلى دليل على قوة المناسبة بينه وبين مالك الملك صاحب العالم، ثم لتأسيس إطاعة الأوامر وتامين اجتناب النواهي يحتاج إلى إدامة تصور عظمة الصانع وصاحب الملك في الأذهان، ثم لإدامة

التصور ورسوخ العقائد يحتاج إلى مذكّر مكرِر وعمل متجدد، وما المذكِّر المكرِّر إلاّ العبادة، وهذه العبادة توجه الأفكار إلى الصانع الحكيم، وهذا التوجه يؤسس الانقياد، والانقياد هو للإيصال إلى النظام الاكمل والارتباط به. وهذا النظام الأكمل يتولد من سر الحكمة، وسر الحكمة يشهد عليها إتقان الصنع وعدم العبثية" (١).

من أجل ذلك كانت النبوة حاجة ضرورية للبشرية لتنضبط العدالة في الحياة بضوابط لا تميل مع هوى ولا تتبع مصالح فئة على حساب أخرى حين يضع البشر أسسها.

لقد ميز الله تعالى الإنسان على سائر الخلق بصفات جعلته أهلا لمخاطبته سبحانه بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فالإنسان هو أكرم عبد لله وأكثر المخاطبين من خلق الله إدراكا وفهما للأوامر السبحانية، خلقه الله تعالى في أحسن تقويم، وجعله بذلك الوضع المرآة الجامعة للأسماء الحسنى "ولتجلي الاسم الأعظم ولتجلي المرتبة العظمى لكل اسم من هذه الأسماء الحسنى، وليكون أجمل معجزات القدرة الإلهية وأغناها أجهزة وموازين لمعرفة وتقدير ما في خزائن الرحمة الإلهية من كنوز"(٢) وهل يتحقق ذلك كله إلا برسالة ورسول؟.

ومما ميز الله تعالى به الإنسان على سائر المخلوقات أنه وهبه "استعداداً

---

(١) صيقل الإسلام – ص: ١٣٨.

(٢) الكلمات– ص: ٩٤ .

فطرياً سامياً يمكّنه من حمل الأمانة الكبرى التي أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها، أي خَلقَه ليعرف صفات خالقه سبحانه الشاملة المحيطة وشؤونه الكلية وتجلياته المطلقة، بموازينه الجزئية وبمهاراته الضئيلة، والذي بَرأه بشكل ألطف المخلوقات وأعجزها وأضعفها، فسخر له جميعَها من نبات وحيوان، حتى نصبه مشرفاً ومنظماً ومتدخلاً في أنماط تسبيحاتها وعباداتها، والذي جعله نموذجا ـ بمقاييس مصغّرة ـ للإجراءات الإلهية في الكون، ودلاّلاً لإعلان الربوبية المنزهة ـ فعلاً وقولا ـ على الكائنات، حتى منحه منزلة أكرم من منزلة الملائكة، رافعاً إياه إلى مرتبة الخلافة"[١].

هذه الميزات التي انفرد بها الإنسان جعلته أهلا لتلقي النبوة التي تهديه سواء السبيل وتكشف له الصراط المستقيم.

منزلة النبوة في حياة البشر

يرى الأستاذ النورسي رحمه الله أن النبوة المطلقة في نوع البشر قطب بل مركز ومحور تدور عليه أحوال البشر"[٢].

ويرى "أن النبوة التي هي قطب المصالح الكلية ومحورها ومعدن حياتها ضرورية لنوع البشر. فلو لم تكن النبوة لهلك النوع البشري"[٣].

ويرى الأستاذ "أن النبوة في البشرية فذلكة الخير وخلاصة الكمال

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) صيقل الإسلام- ص: ١٣٨.

(٣) صيقل الإسلام - ص: ١٤٠.

وأساسه. وأن الدين الحق فهرس السعادة. وأن الإيمان حُسنٌ منزَّه وجمال مجرّد. وحيث إن حسناً ساطعاً، وفيضاً واسعاً سامياً، وحقاً ظاهراً، وكمالاً فائقاً مشاهَدٌ في هذا العالم، فبالبداهة يكون الحقُ والحقيقة في جانب النبوة، وفي يد الأنبياء عليهم السلام، وتكون الضلالة والشر والخسارة في مخالفيهم"[١].

وهل كانت النبوة في البشر إلا لتحقيق الحياة الطيبة في الدنيا وإنقاذ الإنسان من العدم الذي يقوده إليه الكفر والغفلة عن ربه وحقيقة وجوده، ونقله من حياة عاجلة قصيرة فانية إلى دار خلود لا تفنى أبدا؟.

الأنبياء أئمة هدى للبشرية في كل شؤونها

كان إرسال الرسل إلى البشرية سبيلا إلى وصول البشر إلى ما أراد الله تعالى لهم من مراتب الكمال الممكن وقد سعى الأنبياء عليهم السلام إلى الارتقاء بالبشر من مرتبة الحيوانية التي يعيشونها حين لا يعرفون ربهم إلى مرتبة الملك[٢].

ولكي يتميز الصادق عن الكاذب، والنبي عن الدجال زود الله تعالى رسله بدلائل صدق تقوم بها الحجة على الناس، تلك هي المعجزات.

وإلى جانب المعجزات نجد من دلائل صدق النبوة ما حل بالأمم المكذبة من العذاب، وقد كان كل نبي يجعل من مصير الأمة السابقة لأمته نذيرا لهم لعلهم يتعظون.

---

(١) اللمعات – ص: ١٩٤.

(٢) انظر: الشعاعات– ص: ١٥٧.

يضاف إلى هذا أن النظر في سير الأنبياء وملامح شخصياتهم يضيف إلى معجزاتهم أدلة صدق عملية، وكذلك ما كان من صبر أتباعهم على ما نزل بهم من البلاء ابتغاء مرضاة الله يدل على اليقين الذي أكسبهم إياه الإيمان، فكان صبرهم دليل صدق إضافيا لنبوة أنبيائهم.

وإن إجماع الأنبياء عبر تاريخ البشرية على أصول دعوتهم دليل آخر على صدق ظاهرة النبوة في التاريخ البشري، يدل على مدى حاجة البشرية إليها لترتقي من مرتبة الحيوانية إلى مرتبة الملك.

يقول الأستاذ النورسي ﷺ: " نعم، إن المعجزات التي لاحصر لها تصديق فعلي من لدن الحق سبحانه وتعالى للأنبياء عليهم السلام، والصفعات السماوية التي نزلت بالمنكرين المعارضين لهم أظهرت أحقيتهم وتأييد الله لهم، وكمالاتهم الشخصية وارشاداتهم السديدة دالة على أنهم على حق أبلج، وقوة إيمانهم وغاية جديتهم ونهاية تجردهم تشهد كلها على صدقهم وصواب دعوتهم، وما في أيديهم من الكتب والصحف المقدسة، وتلاميذهم غير المحدودين الذين بلغوا الحقيقة وارتقوا إلى الكمال واهتدوا إلى النور باتباعهم لهم، يشهد كلها على أحقية سبيلهم وصواب طريقهم. وعلاوة على كل هذا فإن إجماع أولئك المبلّغين الصادقين في المسائل المثبتة لهو حجة قاطعة على صدق الإيمان وقوة عظيمة تعزز حقيقته بحيث لا تستطيع قطعاً أية قوة في العالم أن تصارعها. فهي حقيقة دامغة تنحسر أمامها كل شبهة او ريب" (١).

(١) المصدر نفسه.

ولم تكن فوائد النبوة مقتصرة على الرقي المعنوي الذي حصله البشر باتباع الأنبياء، وخروجهم من الفناء إلى الخلود، ومن الحيرة والتشتت إلى الهدى والاستقامة، والخلاص من العبودية للأشياء، وتجردهم لعبودة ربهم الواحد الأحد الفرد الصمد، بل رافق ذلك إثارة القدرات الكامنة لدى البشر في الجوانب العقلية والمادية. وإذا كانت معجزات الأنبياء دلائل صدق على نبوتهم، فقد كانت حافزا للبشر ليستثمروا ما أودع الله تعالى فيهم من القدرات، وما سخر لهم في الكون من الأشياء. يقول الأستاذ النورسي رحمه الله: "يبيّن القرآن الكريم أن الأنبياء عليهم السلام قد بُعثوا إلى مجتمعات إنسانية ليكونوا لهم أئمة الهدى يُقتدى بهم، في رقيهم المعنوي. ويبين في الوقت نفسه أن الله قد وضع بيد كلٍ منهم معجزة مادية، ونَصَبهم روّاداً للبشرية وأساتذة لها في تقدمها المادي أيضاً. أي أنه يأمر بالاقتداء بهم واتباعهم اتباعاً كاملاً في الأمور المادية والمعنوية؛ إذ كما يحض القرآنُ الكريم الإنسانَ على الاستزادة من نور الخصال الحميدة التي يتحلى بها الأنبياء عليهم السلام، وذلك عند بحثه عن كمالاتهم المعنوية، فإنه عند بحثه عن معجزاتهم المادية أيضاً يومئ إلى إثارة شوق الإنسان ليقوم بتقليد تلك المعجزات التي في أيديهم، ويشير إلى حضّه على بلوغ نظائرها، بل يصح القول: إن يد المعجزة هي التي أهدت إلى البشرية الكمال المادي وخوارقه لأول مرة، مثلما أهدت إليها الكمال المعنوي"[1].

---

(١) الكلمات– ص: ٢٧٩.

ويشير الأستاذ النورسي رحمه الله إلى إمامة الأنبياء للبشرية في المجال المهني فيقول: "وهناك إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة، وهي اتخاذ أغلب الصناع نبياً من الأنبياء رائداً لصنعتهم وقطباً لمهنتهم. فالملاحون- مثلا - اتخذوا سيدنا نوحاً عليه السلام رائدهم، والساعاتيون اتخذوا سيدنا يوسف عليه السلام إمامهم، والخياطون اتخذوا سيدنا إدريس عليه السلام مرشدهم"(١).

وقد وقف الأستاذ النورسي رحمه الله طويلا عند المعجزات المادية للأنبياء الكرام عليهم السلام، وسعى إلى الربط بين تلك المعجزات وما يمكن أن يصل إليه الإنسان من آفاق لاستثمار ما حوله من المواد والأشياء، وأتى الأستاذ رحمه الله في هذا المجال بما لم يسبق في حدود ما أعلم.

وسأورد بعض الأمثلة التي ربط الأستاذ بينها وبين معجزات بعض الأنبياء من غير أن أستقصي كل ما ذكره.

عند الحديث عن معجزة تسخير الريح لسيدنا سليمان عليه السلام التي أفادت أنه قطع في يوم واحد ما يقطع في شهرين يقول الأستاذ " فالآية تشير إلى أن الطريق مفتوح أمام البشر لقطع مثل هذه المسافة في الهواء. فيا أيها الإنسان! حاول أن تبلغ هذه المرتبة، واسعَ للدنو من هذه المنزلة ما دام الطريق ممهداً أمامك"(٢).

فكأن الله سبحانه وتعالى يقول في معنى هذه الآية الكريمة ويعني قوله

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الكلمات – ص: ٢٨٠.

تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]:

"إن عبداً من عبادي ترك هوى نفسه، فحملتُه فوق متون الهواء. وأنت أيها الإنسان إن نبذت كسل النفس وتركته، واستفدت جيداً من قوانين سنتي الجارية في الكون، يمكنك أيضاً أن تمتطي صهوة الهواء"(١).

ويتحدث عما تفتحه معجزة سيدنا موسى عليه السلام حين ضرب الحجر فتفجرت منه اثنتا عشرة عينا، كيف أنها تشير إلى إمكان وصول البشر إلى اختراع آلات يستخرجون بها الماء من باطن الأرض، وذلك في حديثه عن الآية: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ **[البقرة: ٦٠]**.

"هذه الآية الكريمة تبين معجزة من معجزات سيدنا موسى عليه السلام، وهي تشير إلى أنه يمكن الاستفادة من خزائن الرحمة المدفونة تحت الأرض بآلات بسيطة، بل يمكن تفجير الماء، وهو ينبوع الحياة، من أرض صلدة ميتة كالحجر بوساطة عصا. فهذه الآية تخاطب البشرية بهذا المعنى: يمكنكم أن تجدوا الماء الذي هو ألطف فيض من فيوضات الرحمة الإلهية، بوساطة عصا، فاسعوا واعملوا بجد لتجدوه وتكشفوه. فالله سبحانه يخاطب الإنسان بالمعنى الرمزي لهذه الآية: "ما دمتُ أسلّم بيد عبد يعتمد عليّ ويثق بي عصا، يتمكن بها أن يفجّر الماء أينما شاء، فأنت أيها الإنسان إن اعتمدت على قوانين رحمتي،

---

(١) المصدر نفسه.

يمكنك أيضاً أن تخترع آلةً شبيهة بتلك العصا، أو نظيرة لها. فهيا اسعَ لتجد تلك الآلة. فانت ترى كيف أن هذه الآية سبّاقة لإيجاد الآلة التي بها يتمكن الإنسان من استخراج الماء في أغلب الأماكن، والتي هي إحدى وسائل رقي البشرية. بل إن الآية الكريمة قد وضعت الخط النهائي لحدود استخدام تلك الآلة ومنتهى الغاية منها"(١).

ويمضي الأستاذ النورسي رحمه الله مع معجزات الأنبياء، فمعجزة سيدنا عيسى عليه السلام بشفاء أصحاب الأمراض المستعصية تشير إلى "أنه يمكن أن يُعثر على دواء يشفي أشد الأمراض المزمنة والعلل المستعصية، فلا تيأس أيها الإنسان، ولا تقنط أيها المبتلى المصاب، فكل داء مهما كان له دواء، وعلاجه ممكن، فابحث عنه، وجِدْه، واكتشفه، بل حتى يمكن معالجة الموت نفسه بلون من ألوان الحياة الموقتة" (٢).

فما تحقق على يدي سيدنا عيسى عليه السلام معجزة، " أيها الإنسان! بوسعك أن تجد في صيدلية حكمتي دواء لكل داء يصيبك، فاسعَ في هذه السبيل، واكشف ذلك الدواء فإنك لا محالة واجده وظافر به"(٣).

وأشير أخيرا إلى ما استنبطه الأستاذ النورسي رحمه الله من الأفق الذي تفتحه المعجزة التي تمت لسيدنا سليمان بإحضار عرش ملكة سبأ قبل أن يرتد إليه

---

(١) الكلمات - ص:٢٨٠ – ٢٨١.
(٢) الكلمات- ص: ٢٨١.
(٣) المصدر نفسه.

طرفه، ففي تلك المعجزة إشارة واضحة إلى أن " إحضار الأشياء من مسافات بعيدة – عيناً أو صورة – ممكن، وذلك بدلالتها على تلك الحادثة الخارقة التي وقعت في ديوان سيدنا سليمان ﷺ، عندما قال أحد وزرائه الذي أوتي علماً غزيراً في «علم التحضير»: أنا آتيك بعرش بلقيس" .

وليس الأمر مقتصرا على إحضار الأشياء عينا أو صورة بل فيه إشارة إلى منهج في الحكم يقوم على متابعة شؤون الرعية وإن كانت بعيدة المكان عن الحاكم فكأن الله تعالى يخاطب الحكام من خلال تلك المعجزة قائلا:

"أيها الحكام! ويا من تسلمتم أمر البلاد! إن كنتم تريدون أن تسود العدالة أنحاء مملكتكم، فاقتدوا بسليمان – ﷺ– واسعَوا مثله إلى مشاهدة ما يجري في الأرض كافة، ومعرفة ما يحدث في جميع أرجائها. فالحاكم العادل الذي يتطلع إلى بسط راية العدالة في ربوع البلاد، والسلطان الذي يرعى شؤون أبناء مملكته، ويشفق عليهم، لا يصل إلى مبتغاه إلا إذا استطاع الاطلاع – متى شاء – على أقطار مملكته، وعندئذٍ تعم العدالة حقاً، وينقذ نفسه من المحاسبة والتبعات المعنوية" [1].

إن هذا الأفق الذي تفتحه المعجزات النبوية للبشرية في مجال التقدم العلمي يشير إلى ضرورة النبوة في حياة البشر.

ويمضي الأستاذ النورسي رحمه الله بالمنهج نفسه في وقوفه مع معجزات

---

(١) الكلمات – ص: ٢٨٣ –٢٨٤.

أخرى لأنبياء الله إبراهيم وسليمان وداود وآدم عليهم السلام، ويربطها بما تم من فتوح علمية للبشرية وبما يمكن أن يكون كذلك.

وقد أجمل الأستاذ النورسي رحمه الله هذه القضية في قوله: "إن القرآن الكريم بإيراده معجزات الأنبياء إنما يخط الحدود النهائية لأقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان في مجال العلوم والصناعات، ويشير بها إلى أبعد نهاياتها، وغاية ما يمكن أن تحققه البشرية من أهداف، فهو بهذا يعيّن أبعد الأهداف النهائية لها ويحددها، ومن بعد ذلك يحث البشرية ويحضّها على بلوغ تلك الغاية، ويسوقها إليها. إذ كما أن الماضي مستودع بذور المستقبل ومرآة تعكس شؤونه، فالمستقبل أيضاً حصيلة بذور الماضي ومرآة آماله"[1].

البشرية لا تستغني عن النبوة، ولكن هل أحس البشر جميعا بهذه الضرورة؟.

من قبل وقف الملأ من كل قوم في وجه الأنبياء وسعوا إلى إطفاء نور الله، وصدوا الناس عن سبيل الهدى، فكذبوا فريقا من الأنبياء، وقتلوا فريقا.

واليوم نجد البشرية وقد قطعت في العلم، وحققت من المنجزات أشواطا غير مسبوقة في المعلوم من تاريخ البشر، فحققت كثيرا من معجزات الأنبياء من خلال العلم، فهل ترى البشرية أن ما هي فيه من التقدم أثر من آثار معجزات الأنبياء، وثمرة من آثار فضلهم أم أن الغرور يجعلها تنسب الأمور

---

(١) الكلمات- ص: ٢٧٩.

إلى نفسها وتنسى ربها وتقول ما قال قارون من قبل ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ **[القصص: ٧٨]**؟.

ما أحوج البشرية اليوم إلى حملة مشاعل النور ليضيئوا لها الطريق لتعرف نفسها، وتعرف حقيقة دنياها، وتعرف ربها، وتعرف الرحمة المهداة إلى البشرية جميعا: سيدنا محمدا عليه وآله الصلاة والسلام، خاتم سلسلة النبوة وشمسها الأكمل ضياء، وبدرها الأتم نورا.

إنها بحاجة إلى من يجعلها تصحو من سكرها، وتواجه الحقيقة لعلها تفيء إلى نور الإيمان، وتخلص نفسها من الغرور الذي يزينه لها الشيطان، ومن العدم الذي يقودها إليه الكفر.

فهل تشرق شمس النبوة على هذا العالم من جديد؟!

أكاديميون في رحاب رسائل النور

في ظلال "رسالة الإخلاص" (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة والأخوات

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وحياكم الله ونحن نجتمع اليوم في رحاب رسائل النور، على مؤلفها الرحمة والرضوان.

وما أحرانا ونحن في هذه الندوة الأكاديمية العالمية الرابعة للأكاديميين الشباب، أن ننظر إلى الوجه الآخر للمرآة لندخل عالم النور ورسائله من البوابة التي نستشعر فيها قيمة رسائل النور ونهيئ بها أنفسنا لا لنكون باحثين في رسائل النور بحثا أكاديميا فحسب بل لنكون نورانيين من طلاب رسائل النور، نأخذ منها قبسا ونجد على نورها هدى.

نحن اليوم ندخل هذه البلاد الطيبة آمنين مطمئنين معلنين أننا نحضر ندوة أكاديمية حول رسائل النور !!

وها نحن نعيش في أجواء أمن، وفي راحة بال، وفي رغد من حسن

(١) ألقي في الندوة الرابعة للباحثين الأكاديميين في اسطنبول عام ٢٠١٢م.

الاستقبال!!

وهذا من آيات الله التي تستحق التوقف والتدبر لمن وقف على سيرة رسائل النور.

وأراني وأنا أقرأ رسائل النور أحس بلهب التجربة وراء كل حرف من حروفها وكلمة من كلماتها. أسمع آهات الأستاذ النورسي رحمه الله وتسبيحاته ونشيجه تتجاوب أصداؤها من قمة شجرة الدلب إلى وديان بارلا، إلى قمة جبل جام لتتماوج على سطح بحيرة أجريدر لتطوف معه حيث حل: في كل منفى أو سجن أو محكمة.

أراني وأنا أركب أجنحة الإيمان الشهودي وأرحل على أجنحة رسائل النور محلقا مع الأستاذ في تأملاته، وفي رحلة برزخية تتخطى عالم الشهادة لتغوص في جنبات الغيب الذي لا يفصلنا عنه إلا غشاء شفيف يعمينا عن رؤيته وكشفه ما نحن فيه من مشاغل وحجب لا تزال تتوارد وتتكاثف حتى يصبح ذلك الحجاب الشفيف كردم ذي القرنين الذي يحجب يأجوج ومأجوج.

أراني أستبطن النفس بنور رسائل النور فتتجلى فيها وديان الضعف وتبرز من بعد قمم الهمة، وتتجلى الجسور ما بين تلك الوديان والقمم، وأراني أعبر بنور الرسائل تلك المسافة التي هي من جانب تقاس بالأميال وتبدو كأنها رحلة تحتاج إلى عمر ممتد طويل يقاس بيوم الألف أو يوم

الخمسين ألف سنة كحال الإنسان وهو يعاني من كابوس تنفتح له الأرض من تحت خطواته، وتكاد نفسه تهوي مع كل خطوة تحط على فوهة بركان أو منفتح واد،

ولكنها تبدو من جانب آخر كأنها مسافة بين عدوتي واد تقطعه بنظرة تمتد من هذه إلى تلك، أو تعبره بخطوات واثقة على جسر يعفيك من عناء النزول أو عنت الصعود، بل تكاد تعبره بسرعة خاطر يلوح فإذا هو حقيقة متجلية .

أراني أسيح في جنبات الكون حتى أجاور المجرات وأستكشف ما فيها وأطوف في مداراتها وأرى سكانها من الملائكة والروحانيين وأرواح الأصفياء من عباد الله الذين تخلصوا من أسر الجسد الطيني فحلقت أرواحهم في رحلة فضائية لا يحتاجون فيها إلى مكوك فضائي لتتجلى فيها آيات الله تعالى في أروع مشاهدها التي يقرؤون فيها تجليات الأسماء الحسنى، ويسمعون تسبيحات الكائنات من غير حجاب.

أراني أحس وأسمع وأنا ألصق أذني وراء الحروف والكلمات في رسائل النور نبضات قلوب فرسان النور الأوائل وهم يتنقلون بها في حذر شديد من قرية إلى أخرى، ومن مدينة إلى أخرى ،يسلمونها إلى الظامئة أرواحهم لنور الهداية، يتنقلون بها وهم يخبئونها قرب قلوبهم حذر أن يكتشفها أعداء النور الذين كانوا ينقبون في الحياة وفي القلوب عن كل شمعة ليطفئوها، وعن كل نجمة ليمسحوا ضياءها من خريطة السماء، بل كانوا يسعون إلى طمس شمس

النهار وقمر الليل حين مدوا رواقا من المادية المظلمة القاسية فوق رحاب هذه البلاد الطيبة التي كانت معقل الإسلام لقرون طويلة وكان أهلها فرسان الجهاد وحملة راية الدعوة إلى الله في جنبات أوربا التي استعصت على الهداية وآثرت الغواية .

أحس نبضات قلوب فرسان النور الأوائل القوية بالله، الواثقة من نصره، وأشم عرق أجسادهم الزكي وهم يقطعون الوديان والجبال، يحملون أشعة الرسائل يزرعونها في عقول وقلوب استعصت على ظلمات ذلك الرواق المادي الذي غطى السماء وكتم أنفاس الضياء، كانوا يعلمون أن ما يحملونه كنز أغلى من ألماس الأرض وذهبها وجواهرها.

وأصيخ سمعي وأنا أردد النظر في جنبات رسائل النور فأسمع صرير الأقلام الماسية لفرسان النور وهو ينسخونها، يسهرون الليل بل يتخلى بعضهم عن عمله في الحقول والبساتين لتقوم به "أخوات الآخرة" من زوجات مؤمنات عمر نور الإيمان قلوبهن، وأدركن ببصيرة ثاقبة أن أزواجهن ينسجون بأقلامهم خيوط فجر قادم سيدحر ظلمات رواق المادية المخيم على هذه البلاد الطيبة، وأنهم بهذه الأقلام يستمطرون رحمة ربانية تعيد إلى هذه البلاد ربيعها بعد أن اجتاحها الإعصار الذي اجتث أشجارا ضخمة من جذورها وجعل الأرض الخضراء يبابا .

أيها الإخوة والأخوات اعذروني، فأنا ارى أن من حق الأستاذ النورسي رحمه الله، علينا، ومن حق أبطال النور وفرسانه الأوائل أن نسترجع شيئا من ذلك

الماضي الذي صار ولله الحمد ماضيا بكل ما كان فيه من المعاناة والآلام والمنافي والمحاكم والسجون، وها نحن نعيش لحظات انبثاق الفجر وننتظر المزيد من نبوءات رسائل النور لا بالفجر الصادق وحده الذي شعشع نوره بل بضحى يتجلى فيه نور الإيمان ليكون هاديا لمن ضل، وحجة على من لم يعرف من قبل معنى الإيمان ولم يذق حلاوته .

اعذروني أيها الإخوة والأخوات، وأنا أستحضر برودة (الأكاديمية) وقيودها ولوازمها وضوابطها وهي تهبط في عالم رسائل النور وتغفل عن ذلك الذي أشرت إليه من قبل من تاريخ لاهب، ومعاناة مريرة انقلبت إلى حلاوة بنور الإيمان، وأغار على رسائل النور من تلك البرودة وتلك القيود.

واسمحوا لي أن أسأل سؤالا صريحا يوجهه كل باحث إلى نفسه:

لماذا توجهت إلى دراسة رسائل النور؟

إنه سؤال لابد منه، ولابد أن يختلف جواب أي منا عن جواب أي باحث آخر يبحث في مجال آخر تكون علاقته فيه بالموضوع علاقة (محايدة)، أو علاقة جامدة باردة، أو علاقة لايكون فيها للقلب والعقل حضور كامل .

لماذا رسائل النور؟

أتراها عالما قريبا سهلا ميسرا لكتابة رسائل تنال بها الدرجة العلمية المرجوة؟

ألأنا استجبنا لرغبة مشرفنا الذي استهوته الرسائل فاستهوانا اقتراحه؟

ألأنها مرتبطة ببلاد عادت إليها الروح من جديد وأشرق فجرها بعد ظلمة كالحة، والكتابة عنها تفتح المجال لدوام الاتصال بأهل هذه البلاد من طلاب النور؟

لماذا رسائل النور؟

قد نقبل بنوايا متعددة، ولكن أرجو ألا يخيب ظني أن من أقبل على رسائل النور لن يخيب سعيه، سينال درجات الدنيا التي يبغي، ولكنه بإذن الله سينال من نور هذه الرسائل ما يصحح النية إن كان فيها بعض الميل، وسيصحح الرؤية ويسدد المسار.

لأن رسائل النور تفتح لنا عالم القرآن الكريم لتطلع علينا شمسه وتضيء جنبات قلوبنا وعقولنا وحياتنا، وتفتح لنا جنبات الكون لنحلق فيها، وتفتح لنا أغوار النفس لنغوص فيها، وتفتح لنا رحاب الأسماء الحسنى لنسمو في آفاقها، ونرجو أن نصبح مرايا عاكسة لتلك الأنوار؛ كل على قدر مساحة مرآته، وبمقدار صدق نيته، ومن يصدق الله يصدقه.

ولنتذكر منزلة آية النور في حياة الأستاذ النورسي رحمه الله، وفي رسائل النور .

ولنتذكر أن نور الإنسان يوم القيامة يكون بمقدار ما شحن به قلبه من نور الإيمان والعمل في هذه الأرض.

واسمحوا لي أيها الإخوة والأخوات أن نقف معا في رحاب رسالة مهمة

من رسائل النور هي: رسالة الإخلاص، ذلك لأن موضوعها ذو صلة بما نحن فيه، وهو موضوع النية، وذو صلة بالسؤال الذي قدمته بين يدي حديثي: لماذا رسائل النور؟

أيها الإخوة والأخوات: أقول لكم بعد خبرة طويلة في العالم الأكاديمي إن هناك أمراضا في هذا العالم إن لم يتحصن منها المرء أصابه فيروس الغرور والكبر والتنافس والحسد والكيد والمكر، ذلك لأنه عالم مراتب ودرجات، وعالم ألقاب وامتيازات، قد تغيب فيه حقيقة (الأكاديمية) الإيجابية التي يفترض فيها أن يكون الحق هو غايتها، والبحث عن الحقيقة وجهتها، ومنتهى سعيها اكتشاف الجديد المفيد في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية التي تزيد الإنسان معرفة بربه سبحانه، واكتشافا لذاته، واستجلاء لغوامض تجليات الأسماء الحسنى في هذا الكون الذي هو بيتنا الذي نتقلب في جزء صغير منه بأجسادنا لكننا نرقى في معارج العلم في آفاقه بعقولنا وقلوبنا.

نعم أيها الإخوة والأخوات، قد يغيب هذا الجانب المشرق من الأكاديمية، وتظهر النفس بأنانيتها وكبريائها وأطماعها التي ترديها وتبغضها إلى خالقها وإلى الناس من حولها. فتجد للألقاب بمختلف درجاتها في السلم الأكاديمي في بعض النفوس منزلة، وويل لمن يتجاهلها عمدا أوسهوا، وتجد من يقول لك: هذا اللقب أفنيت عمرا من أجل الحصول عليه، وتراه كما يحرص عليه إن خوطب، يحرص عليه إن كتب فيصبح لصيق اسمه بل أعز عليه منه**!!**

وحقيقة الأمر أن هذه الألقاب والدرجات حين ينظر إليها بعين الحقيقة

ما هي إلا مفاتيح لمناصب دنيوية لا تتاح إلا بها، وهي كسائر الشهادات لكثير من الناس: "بطاقات تموين" ينالون بها آخر الشهر مرتبا يناسبها ليس أكثر، إن لم يكن لها من العلم الحقيقي رصيد يسندها، ويجعل لصاحبها بصدق النية وحسن العمل والإنجاز منزلة عند الله وعند الناس!!

ولنستمع إلى هذا التحذير من أستاذنا النورسي مما يحرص عليه كثير من الناس، وبعض الأكاديمين منهم، من صرف وجوه الناس إليهم، وحرصهم على رواج ما يكتبون، وكثرة المقبلين عليهم من المعجبين، قال الأستاذ النورسي رحمه الله:

"**تحذير:** إن اقبال الناس وتوجههم لايطلب، بل يوهب، ولو حصل الإقبال فلا يُسرّ به. وإذا ما ارتاح المرء لتوجه الناس إليه فقد ضيع الاخلاص ووقع في الرياء.

اما التطلع إلى نيل الشهرة والصيت التي تتضمن توجه الناس والرغبة في إقبالهم فهو ليس بأجرة ولا ثواب، بل عتاب وعقاب نابعان من فقدان الإخلاص.

نعم، إن توجه الناس وإقبالهم لا يراد، لأن ما فيه من لذة جزئية تضر بالإخلاص الذي هو روح الاعمال الصالحة، ثم إنه لا يستمر إلا إلى حد باب القبر. فضلا عن أنه يكتسب ما وراء القبر صورة أليمة من عذاب القبر، فلا يُرغب في توجه الناس ونيل رضاهم إذن، بل يلزم الفرار والتهيب منه. فليصغ

إلى هذا عباد الشهرة والمتلهفون على كسب رضى الناس"[١].

في عالم الأكاديميين أيها الإخوة والأخوات محاضرات وأصداء، ومؤلفات ورغبة في الذيوع والانتشار والاشتهار، ونظر إلى النفس وموازنة بحال الأنداد والأقران، فإن لم تصلح النية، وتضبط النفس كان الهوى الذي يوقد الشيطان ناره، وتهوى النفس أواره !!

لقد لفت نظر الأستاذ النورسي ﵀ أمر يثير العجب في حال أهل الإيمان وحال أهل الضلال ولنستمع إليه، وهو أمر ذو صلة بطرف ما بالأكاديميين أيضا:

"سؤال مهم ومثير للدهشة:

لماذا يختلف أصحاب الدين والعلماء وأرباب الطرق الصوفية وهم أهل حق ووفاق ووئام؛ **بالتنافس والتزاحم**، في حين يتفق أهل الدنيا والغفلة بل أهل الضلالة والنفاق من دون مزاحمة ولا حسد فيما بينهم. مع أن الاتفاق هو من شأن أهل الوفاق والوئام، والخلاف ملازم لأهل النفاق والشقاق. فكيف استبدل الحق والباطل مكانهما، فأصبح الحق بجانب هؤلاء والباطل بجانب أولئك[٢]؟"

والأستاذ النورسي ﵀ بدقة نظر العالم، وبصيرة الداعية، وخبرة المربي

---

(١) اللمعات هامش٢٢٦.

(٢) اللمعات ٢٢٦.

يقدم لنا وصف الداء، ويبين لنا سبيل الشفاء .

ونعجب حين يكون من بواعث اختلاف أهل الحق ما يمكن أن نسميه "الغرور بالحق"!! ووهم الاستغناء !!

أفهم هذا من قول الأستاذ النورسي رحمه الله في تشخيص حال أهل الهداية "المختلفين":

"أما اهل الهداية والدين وأصحاب العلم والطريقة فلأنهم يستندون إلى الحق والحقيقة، ولأن كلاً منهم أثناء سيره في طريق الحق لا يرجو إلا رضى ربه الكريم ويطمئن إليه كل الاطمئنان، وينال عزة معنوية في مسلكه نفسه، إذ حالما يشعر بضعف ينيب إلى ربه دون الناس، ويستمد منه وحده القوة، زد على ذلك يرى أمامه اختلاف المشارب مع ما هو عليه، لذا تراه لا يستشعر بدواعي التعاون مع الآخرين بل لا يتمكن من رؤية جدوى الاتفاق مع مخالفيه ظاهراً ولا يجد في نفسه الحاجة إليه.

وإذا ما كان ثمة غرور وأنانية في النفس يتوهم المرء نفسه محقاً ومخالفيه على باطل فيقع الاختلاف والمنافسة بدل الاتفاق والمحبة، وعندها يفوته الإخلاص ويحبط عمله ويكون اثراً بعد عين" [1].

والغريب أيها الإخوة والأخوات أن يتخذ السعي في الخير التنافس والتحاسد والتباغض أداة، ألا يذكرنا هذا بكيد الشيطان لإخوة يوسف حين

---

(١) اللمعات ٢٢٨.

زين لهم قتل أخيهم ليكونوا بعد جريمة القتل قوما صالحين!!:

﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴾ **[يوسف: ٩]**.

بل يردنا إلى فجر البشرية حين كان تقبل العمل من أحد ابني آدم سببا لقتل أخيه له:﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ **[المائدة: ٢٧]**.

إنه التنافس المفضي إلى التحاسد والتباغض حتى في ميدان الحق والدعوة والبحث العلمي!!

ولنتابع تشخيص أستاذنا النورسي رحمه الله لهذه القضية المهمة:

" وهذا يستدرج الحريص شيئاً فشيئاً حتى يصل به الامر أن يتخذ وضعاً منافساً إزاء اخيه الحقيقي الذي هو بأمس الحاجة إلى محبته ومعاونته وأخوته والأخذ بيده، كأن يقول – مثلاً –: لأغنم أنا بهذا الثواب، ولأرشد أنا هؤلاء الناس وليسمعوا مني وحدي الكلام، وأمثالها من طلب المزيد من الثواب لنفسه. أو يقول: لماذا يذهب تلاميذي إلى فلان وعلان؟ ولماذا لا يبلغ تلاميذي عدد تلاميذه وزيادة؟ فتجد روح الانانية لديه – بهذا الحوار الداخلي – الفرصة سانحة لترفع رأسها وتبرز، فتسوقه تدريجياً إلى التلوث بصفة

مذمومة، تلك هي التطلع الى حب الجاه، فيفوته الإخلاص وينسد دونه بابه، بينما ينفتح باب الرياء له على مصراعيه"(١).

إنني أيها الإخوة والأخوات وأنا أمضي في هذا السياق مع رسالة الإخلاص وتشخيص الأستاذ النورسي ﷺ لحال العاملين في مجال العلم والدعوة والتربية، وأضيف إليه المجال الأكاديمي، لا أشكك في النوايا ولا أوجه اتهامات، أعوذ بالله من ذلك، بل اقوم بحق من حقوق الأخوة في ندوة نرجو أن يكتب الله تعالى لنا أجر حضورها وما ينتج عنها من ثمرات وما سبقها من استعدادات. والغاية عندي هي تصحيح النية منا جميعا لعلنا نكون من المقبولين، ومعلوم أن ما قسم لنا من الدنيا نناله بفضل الله، والمطلوب منا السعي في مرضاته لننال الدرجات العليا في مدارج محبته وجنان رحمته ولنتذكر لنطفئ غرور النفس وسعيها في الوهم.

قول الله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ **[الإسراء: ٢١]**.

وقد قدم أستاذنا النورسي ﷺ العلاج لحالة الاختلاف والتنافس والتنازع الجارحة لحقيقة الإخلاص، ومن هذه الأدوية التي وصفها لنا:

"العمل الإيجابي البنّاء، وهو عمل المرء بمقتضى محبته لمسلكه فحسب، من دون أن يرد إلى تفكيره، أو يتدخل في علمه عداء الآخرين أو التهوين من

(١) اللمعات ٢٣٠.

شأنهم، أي لا ينشغل بهم أصلاً" [١].

"واتخاذ دستور الانصاف دليلاً ومرشداً، وهو أن صاحب كل مسلك حق يستطيع القول: "إن مسلكي حق وهو أفضل وأجمل" من دون أن يتدخل في أمر مسالك الآخرين، ولكن لا يجوز له أن يقول: "الحق هو مسلكي فحسب" أو "إن الحسن والجمال في مسلكي وحده "الذي يقضي على بطلان المسالك الأخرى وفسادها" [٢].

ويتابع أستاذنا رحمه الله تقديم العلاج لإنقاذ الحق من صولة الباطل من خلال أمور منها:

" - ترك غرور النفس وحظوظها.

- وترك ما يُتصور خطأ أنه من العزة والكرامة.

- وترك دواعي الحسد والمنافسة والأحاسيس النفسانية التافهة" [٣].

وها هو يوجه نداء المحب المشفق الذي يسوؤه ما يرى من تناحر أهل الحق واختلافهم:

" فيا أهل الحق! ويا أهل الشريعة والحقيقة والطريقة! ويا من تنشدون الحق لأجل الحق! اسعوا في دفع هذا المرض الرهيب، مرض الاختلاف

---

(١) اللمعات ٢٢٨.

(٢) اللمعات ٢٢٩.

(٣) المصدر السابق.

بتأدبكم بالأدب الفرقاني العظيم، ألا وهو: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ **[الفرقان: ٧٢]**، فاعفوا عن هفوات إخوانكم واصفحوا عن تقصيراتهم، وغضوا أبصاركم عن عيوب بعضكم البعض الآخر، ودعوا المناقشات الداخلية جانباً. فالأعداء الخارجيون يغيرون عليكم من كل صوب، واجعلوا إنقاذ أهل الحق من السقوط والذلة من أهم واجباتكم الأخروية وأولاها بالاهتمام، وامتثلوا بما تأمركم به مئات الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة من التآخي والتحابب والتعاون، واستمسكوا بكل مشاعركم بعرى الاتفاق والوفاق مع إخوانكم في الدين ونهج الحق المبين بأشد مما يستمسك به الدنيويون الغافلون، واحذروا دائماً من الوقوع في شباك الاختلاف"[1].

وها هو يكشف الغشاوة عن العيون ويبين حقيقة ما يجب أن يكون من حال أهل الحق في تعاملهم مع أمور الدين والآخرة لأنها أمور تكون ثمراتها متاحة للجميع من غير حاجة إلى التنافس الذي مبعثه الحرص على نيل أمر محدود لا يلبي حاجة كل من له فيه رغبة:

" اعلموا أنه ما ينبغي أن يكون حسد ولا منافسة ولاغيرة في أمور الدين والآخرة، فليس فيها في نظر الحقيقة أمثال هذه الأمور. ذلك لأن منشأ الحسد والمنافسة إنما هو من تطاول الأيدي الكثيرة على شيء واحد وحصر الأنظار

(١) اللمعات ٢٣٥.

إلى مقام واحد وشهية المعدات الكثيرة إلى طعام واحد، فتؤول **المناقشة** والمسابقة والمزاحمة إلى الغبطة والحسد. ولما كانت الدنيا ضيقة ومؤقتة ولا تشبع رغبات الإنسان ومطاليبه الكثيرة، وحيث إن هناك الكثيرين يتهالكون على شيء واحد، فالنتيجة إذن السقوط في هاوية الحسد والمنافسة. أما في الآخرة الفسيحة فلكل مؤمن جنة عرضها السموات والأرض تمتد الى مسافة خمسمائة سنة، ولكل منهم سبعون ألفاً من الحور والقصور، فلا موجب هناك إذن إلى الحسد والمنافسة قط، فيدلنا هذا على أنه لاحسد ولامشاحنة في أعمال صالحة تفضي إلى الآخرة، أي لا مجال للمنافسة والتحاسد فيها، فمَن تحاسد فهو لا شك مراء أي أنه يتحرى مغانم دنيوية تحت ستار الدين ويبحث عن منافع باسم العمل الصالح. أو أنه جاهل صادق لا يعلم أين وجهة الأعمال الصالحة ولم يدرك بعد أن الإخلاص روح الأعمال الصالحة وأساسها، فيتهم سعة الرحمة الإلهية كأنها لا تسعه، ويبدأ بالحسد والمنافسة والمزاحمة منطوياً في قرارة نفسه على نوع من العداء مع أولياء الله الصالحين الصادقين"[١].

ويستنهض أستاذنا في العاملين للحق روح التعاون بدل التحاسد مبينا حقيقة ما هم فيه من منزلة عظيمة ووظيفة جليلة:

"فيا أهل الحقيقة والطريقة! إن خدمة الحق ليس شيئاً هيناً، بل هو أشبه ما يكون بحمل كنز عظيم ثقيل والقيام بالمحافظة عليه، فالذين يحملون ذلك الكنز على أكتافهم يستبشرون بأيدي الأقوياء الممتدة إليهم بالعون والمساعدة

---

(١) اللمعات ٢٣٧ -٢٣٨.

ويفرحون بها أكثر. فالواجب يحتّم أن يُستقبل أولئك المقبلون بمحبة خالصة، وأن يُنظر إلى قوتهم وتأثيرهم ومعاونتهم أكثر من ذواتهم وأن يُتلقوا بالافتخار اللائق بهم، فهم إخوة حقيقيون ومؤازرون مضحّون. ولئن كان الواجب يحتم هذا، فلِمَ إذن ينظر إليهم نظر الحسد ناهيك عن المنافسة والغيرة، حتى يفسد الإخلاص نتيجة هذه الحالة، وتكون أعمالكم ومهمتكم موضع تهم الضالين. فيضعونكم في مستوى أقل منكم وأوطأ من مسلككم بكثير، بل يقرنونكم مع **أولئك الذين يأكلون الدنيا بالدين ويضمنون عيشهم تحت ستار علم الحقيقة ويجعلونكم من المتنافسين الحريصين على حطام الدنيا،** وأمثالها من الاتهامات الظالمة؟!"[1].

وأمر الإخلاص وصلاح النية استحق من أستاذنا طول التفكير وتنوع وسائل تحقيقه، فمع ما سبق من النصائح والوسائل المحققة للإخلاص يتابع أستاذنا تقديم الدواء من خلال ضوابط للفكر والسلوك سماها الدساتير التي تحقق الظفر بالإخلاص وتدفع موانعه وتزيلها، وهي:

" **دستوركم الأول:**

ابتغاء مرضاة الله في عملكم.(......)

---

(١) اللمعات ٢٣٨.

دستوركم الثاني:

هو عدم انتقاد إخوانكم العاملين في هذه الخدمة القرآنية، وعدم إثارة نوازع الغبطة بالتفاخر والاستعلاء[١]. ...."

" **دستوركم الثالث:**

اعلموا أن قوتكم جميعاً في الإخلاص والحق[٢] ...."

" **دستوركم الرابع:**

هو الافتخار شاكرين بمزايا إخوانكم، وتصورها في أنفسكم، وعد فضائلهم في ذواتكم[٣]......"

وما أجمله من تصوير لحال أهل الحق كما يجب أن يكون حين تذوب الأنا الفردية في الأنا الجماعية في نداء أستاذنا، رحمه الله، لطلبة رسائل النور نداء المحب المشفق:

"فيا طلاب رسائل النور ويا خدام القرآن! نحن جميعاً أجزاء وأعضاء في شخصية معنوية جديرة بأن يطلق عليها: الإنسان الكامل.. ونحن جميعاً بمثابة تروس ودواليب معمل ينسج السعادة الأبدية في حياة خالدة. فنحن خدام عاملون في سفينة ربانية تسير بالأمة المحمدية إلى شاطئ السلامة وهي دار

---

(١) اللمعات ٢٤٢.

(٢) اللمعات ٢٤٤.

(٣) اللمعات ٢٤٥.

السلام.

نحن إذن بحاجة ماسة بل مضطرون إلى الاتحاد والتساند التام وإلى الفوز بسر "الإخلاص " الذي يهيئ قوة معنوية بمقدار ألف ومائة وأحد عشـر "١١١١" ناتجة من أربعة أفراد. نعم.. إن لم تتحد ثلاث "ألفات" فستبقى قيمتها ثلاثاً فقط، أما إذا اتحدت وتساندت بسر العددية، فإنها تكسب قيمة مائة وأحد عشر" ١١١ "[1].

أيها الإخوة والأخوات

ليست غايتي أن ألخص رسالة الإخلاص فما أوردته شذرات منها، بل غايتي التناصح في ميدان للنفس فيه حظ كبير، فالدين النصيحة، ولعلنا جميعا نقرأ رسالة الإخلاص أكثر من مرة من باب التذكير بأمر جليل. وقد أوصى أستاذنا رحمه الله أن تقرأ اللمعة الحادية والعشرون (الإخلاص) كل خمسة عشر يوما في الأقل تجنبا لدسائس النفس وتخلصا من مضلات الهوى.

وأرجو ألا يثير كلامي حفيظة أي منا فالخير أردت، وأسأل الله أن يرزقنا جميعا حسن النية، وقبول العمل، والحياة الطيبة، والخاتمة السعيدة والحشر في ظلال عرش الرحمن على منابر النور، وأن نكون في الجنة ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ **[الحِجر: ٤٧]**.

---

(١) اللمعات ٢٤٣.

الفهرس